

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190735

UNIVERSAL
LIBRARY

الجهاء والجهاءون في الجاهلية

تأليف

الدكتور م. محمد صبيح
مدرس بكلية الآداب جامعة فاروق الأول

الناشر

مكتبة الآداب بالجماهير ٢٢٧٧

بسم الرحمن الرحيم

هذا كتاب فى تاريخ فى الهجاء فى الشعر العربى ، نحوت فىه نحوا جديدا فى دراسته وتحديده ، فجعلت فىه أقساما لم يتعارف النقاد على إدخالها فىه واعتبارها منه ، كالهجاء السياسى والهجاء الأخلاقى والاجتماعى .

ولما كان الموضوع طويلا متشعب النواحي ، فقد رأيت من الأوفق أن أخرجه أجزاء مستقلة ، وهذا هو الجزء الأول منه فى العصر الجاهلى . وقد قدمت للكتاب بتحديد موضوع الدراسة مبينا وجه هذا التحديد . ولم أبدأ من توضيح بعض المسائل العامة المتصلة بالعصر ، كالكلام عن الشعر ، وارتباط السحر به عامة وبالهجاء خاصة ، وكالكلام عن صلة الشاعر بالقبيلة ، وعن القيم الأخلاقية والاجتماعية فى ذلك العصر . فقد رأيت فى الهجاء من أكثر فنون الشعر اتصالا بالحياة وبالواقع ، ورأيت أن الدارس لا يستطيع أن يتعمقه من غير أن يوضح العصر وينير جوانبه .

وقد أدخلت فى هذا الجزء عصر النبوة والشعراء المخضرمين فجعلتهم جاهلين باعتبار نشأتهم ويئتهم .

وكان سبيلى فيه وفيما يليه من الأجزاء أن أفرد بابا لكل قسم من أقسام الهجاء ، ثم أتبعه بترجمة لشاعر أو أكثر من شعرائه البارزين . وقد بذلت الجهد فى تقريب الشعر العربى إلى الذوق ، بتلخيص جمل من روائعه ، تلخيصا تبقى فيه الصور ، ويُسْتَبْعَدُ فيه الغريب من الكلمات والتراكيب ، التى تحول بين طلاب الأدب وبين تذوقه ، ورجوت أن أنجح فى تحييه إلى الناس ، وأحرك فيهم الشوق لقراءة الشعر نفسه فى مراجعته . ولست أزعم أنى قد احتفظت فى هذا التلخيص بكل ما فى الأصل من جمال ، فمن الواضح أن شطرا

كثيرا من جمال الشعر يرجع إلى الوزن ، وإلى نظم الألفاظ في هذا النسق
الذى أصبح الكلام بفضل شعرا ، وأصبح قائله شاعرا . ولكنى أقنع بأن
أكون قد قاربت الأصل ، وأرى نفسى قد وقعت إن كنت قد استطعت
الاحتفاظ بروح الشعر وبلحة من جمال صوره ، وإن كنت قد نجحت
في كشف هذا الستار الكثيف من الألفاظ الغريبة والاشارات المبهمة عن
جوهره الدفين ، ونفض غبار الزمن وأكفان الأجيال عن جماله الأصيل .
والله الموفق والمستعان ؟

محمد حسين

ماهوالمجاء

اصطلح الناس منذ القدم على أن الهجاء فن الشتم والسباب وهو نقيض المدح كما كان يقول قدامة . وهذا تعريف واضح لا يحتاج إلى شرح . ولكننا مع ذلك نريد أن نناقشه وأن نضع لهذا الفن حدوده من جديد . بل نحن نريد أن ننظر في تقسيم الشعر العربي جملة انرى إلى أى حد كان شيوخنا الأقدمون موفقين . فلعل عقم دراساتنا الأدبية راجع إلى خطأ أساسى فى تقسيم الفنون الأدبية وتبويبها .

فلنبداً إذن باستعراض الذين تصدوا لتقسيم الشعر العربى :
أقدم من تعرض لتبويب الشعر العربى فيما وصل إلينا أبو تمام (٢٣١ هـ) حين رتب مختاراته المشهورة بالخماسة فى عشرة أبواب هى الخماسة ، والمرائى ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف والمدح ، والصفات ، والسير والنعاس ، والملح ، ومذمة النساء .

ثم جاء من بعده قدامة بن جعفر (٣١٠ هـ) فكان أول من حدد أقسامه على نسق على أخذته الناس عنه وتأثر به كثير من النقاد الذين خلفوه .
قسم قدامة الشعر إلى ستة أقسام فى كتابه « نقد الشعر » وهى : المدح ، والهجاء ، والنسيب ، والمرائى ، والوصف ، والتشبيه . ونجد تقسيماً آخر فى كتاب ينسب إليه هو (نقد النثر) يجعل فيه الشعر أربعة أصناف : المدح والهجاء والحكمة واللبو . ويجعل لكل صنف منها فروعا تتفرع منه . فمن المدح المرائى والافتخار والشكر واللفظ فى المسألة . ومن الهجاء الذم والعتب والاستبطاء والتأنيب . ومن الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ . ومن اللبو الغزل والطرد وصفة الخمر والمجون .

ثم خلف من بعده أبو هلال العسكري (٣٩٥ هـ) فألف كتابه (ديوان المعاني) جمع فيه عيون الكلام من شعر ونثر وجعله اثني عشر بابا : الباب الأول في التهاني والمدائح والافتخار . والثاني في الحصال المحموده ، ويمكن أن نضيفه إلى الأول وندخله فيه . والثالث في المعاتبات والهجاء والاعتذار . والرابع في الغزل وأوصاف الحسان . والأبواب الستة التي تلى ذلك كلها في الوصف مقسما بحسب موضوعاته . فالخامس في النار والطبخ وأنواع الطعام وصفات الشراب . والسادس في السماء والنجوم والشمس والقمر . والسابع في السحاب والمطر والثلوج والمياه وصفات البساتين . والثامن في السلاح والحرب . والتاسع في القلم والخط والكتاب وصفة البلاغة . والعاشر في الخيل والإبل والسير والقلوات والسراب وصفة سائر الحيوان . أما الباب الحادى عشر فهو في ذكر الشباب والمشيبي والعلل والموت والمرأى والتعازى والزهد . والباب الثانى عشر وهو الأخير في صفات أشياء مختلفة لم يرها داخله في قسم من الأقسام السابقة . ويجمل هذا التقسيم فيما نرى أن الشعر خمسة أقسام مديح وهجاء وغزل ووصف ورثاء . وهو نفس التقسيم الذى سبق إليه قدامة فى (نقد الشعر) . وإجمال هذه الأبواب فى خمسة أقسام شىء لم نأت به من عندنا ولكن أباهلال نفسه قد أشار إليه فى كتابه حين قال ^(١) « وإنما كانت أقسام الشعر فى الجاهلية خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيب والمرأى . حتى زاد النابغة فيها قسما سادسا وهو الاعتذار فأحسن فيه » .

وبلى هؤلاء ابن رشيق (٤٥٦ هـ) . روى آراء الذين سبقوه فى تقسيم الشعر ^(٢) فنسب التقسيم الذى وجدناه فى نقد الأثر بنصه وتفصيله لأستاذه عبد الكريم وروى تقسيم قدامة فى نقد الشعر مع شىء من التعديل . ألحق التشبيه بالوصف ، وحذف القسم السادس ، وجعل الفخر مكان المرأى . ولما أراد

(١) ديوان المعاني ج ١ ص ٩١

(٢) الحمدة ج ١ ص ٩٩ - ١٠٣ ص ١٠٥٧ - ١١٠

بعد ذلك أن يتكلم عن أبواب الشعر في شيء من التفصيل جعله تسعة أقسام :
النسيب، والمدح، والافتخار، والثناء، والاقتضاء والاستنجاز، والعتاب،
والوعيد والإنذار، والهجاء، والاعتذار. فهو قد زاد الافتخار وقدامة يدخله
في المدح، وزاد باب الاقتضاء والاستنجاز. وباب العتاب. وباب الوعيد
والإنذار، وقدامة يدخلها في الهجاء. ثم لم يجعل الوصف قسما. وزاد باب
الاعتذار وهو القسم السادس الذي أشار العسكري إلى أن النابغة قد استحدثه.
هذا عرض سريع للذين تصدوا لتقسيم الشعر العربي. فنناقش آراءهم
في إيجاز.

أما أبو تمام فهو يخرج الأبيات في كثير من الأحيان عن أبوابها إلى
أبواب لا تنطبق بها. وقد لاحظ هذا الخلط بعض المتقدمين كمصاحب اليتيمة^(١).
ولعل البحترى قد تنبه لهذا حين ألف حماسه فجاوز أبواب الندائ والسهين—
وقد أعرضنا عن تقسيمه فلم نسر إليه لأنه كما ترى لا يصح أن يكون
تقسما عليا— وفي حماسة أبي تمام عيب آخر. فهو يسلخ الأبيات من القصيدة
فيضعها في قسم من أقسامه. دون نظر إلى وحدة القصيدة وغرضها جملة.
والواقع أن أبا تمام لم يكن ينظر إلى التقسيم بنقد ما كان يهتم بجودة الاختيار
وسهولة الحفظ والتعليق. ولذلك كانت مختاراته قصيرة. وقد جمعت قبله
مختارات من الشعر العربي كالجهرة والمفضليات والأصمعيات. فكان أصحابها
يروون القصائد برمتها. ومع ذلك فأبو تمام أصلح حالا من البحترى. فقد كان
ربما اختار البيت أو البيتين فوضعهما في قسم من هذه الأقسام المترامية التي
لا تحصرها الذاكرة. ونحن مع ما نحرص على الإيجاز لا نرى بدا من أن
تتقدم ببعض الأمثلة على خلط أبي تمام في تقسيمه. فهو مثلا يذكر في باب
الحماسة أبيات جعفر بن علبة الحارثي^(٢)

(١) تاريخ آداب العرب للرازي ٣ ٣٦٦ قلاعي لبيتيمه ٣ ١٦٦

(٢) ص ١١

هوى مع الركب اليمانين مصعد جنيب وجثمانى بمكة موثق
والواقع أنها ليست حماسة خالصة . فالنسيب غالب عليها . ويذكر فى هذا
الباب أبيات أمية بن أبى الصلت^(١)

غذوتك مولودا وعلتك يافعا تل بما أدنى إليك وتنهل
وهى ليست حماسة وربما كانت أليق بباب الهجاء أو الأدب . وكذلك
القطعة التى تليها^(٢)

ربيته وهو مثل الفرخ أعظمه أم الطعام ترى فى جلده زغبا
ويذكر فى باب المراثى قصائد قيلت فى مناسبة قتل ، وهى ليست من
المراثى فى شئ . ليس بينها وبين المراثية من صلة إلا المناسبة التى قيلت فيها .
فمن ذلك أبيات أم الصريح الكندية^(٣)

هوت أمهم ماذا بهم يوم صرعوا بجيشان من أسباب مجد تصرما
ونما ذكره فى الرثاء وليس منه أبيات أبى الشغب العيسى فى سجن
خالد القسرى^(٤)

ألا إن خير الناس حيا وهالكا أسير ثقيف عندهم فى السلاسل
أما باب الأدب فلعله يقصد فيه إلى الشعر الحكيم (نسبة للحكمة)
أو الشعر التهذيبى . ولكنه لا يفرق فيه بين الحكمة التى تصدر عن القصد إلى
النصح والتهذيب . وبين الهجاء الذى يصدر عن الغضب والاشتمزاز والقصد
إلى التشفى والانتقام . فما جاء فى باب الأدب وهو هجاء فى حقيقة الأمر
أبيات القريعى^(٥)

منى ماير الناس الغنى وجاره فقير يقولوا عاجز وجليل
ومنها أبيات عباس بن مرداس^(٦)

بني لرجل الخجف فتزدرية وفى أثوابه أسد مزير

(١) ص ٣٦

(٢) ص ٣٨٢

(٣) ص ٢١٠

(٤) ص ٣١

(٥) ص ٣٨٠

(٦) ص ٣٨٠

وكذلك أبيات مالك بن حريم الحمداني^(١)

أنبتت والأيام ذات تجارب وتبدى لك الأيام مالست تعلم
بأن ثراء المال ينفع ربه ويثني عليه الحمد وهو مذموم
وقد اضطر أبو تمام إلى إدخال شعر الخمر في هذا الباب^(٢) وكان حقه أن
يكون في باب مفرد له ، ذلك بأنه لم يجعل في كتابه مكانا لشعر اللهو والمجون.
فهو لم يستوف في تقسيمه كل أبواب الشعر .

أما باب الأضياف والمديح فهو لا يصلح أن يكون قسما من أقسام الشعر
أصلا ، لأن تفريقه على الأقسام الأخرى ممكن ، فعظمه يدخل في الفخر فهو
حماسة ، مثل أبيات قيس بن عاصم المنقري^(٣)

إني امرؤ لا يعترى خلقي دنس يفسده ولا أفين
ومثل أبيات شقران مولى بني سلامان بن سعد بن هذيم^(٤)

لو كنت مولى قيس عيلان لم تجدد على لإنسان من الناس درهما
ولكنني مولى قضاة كلها فليست أبالي أن أدين ونغرما
ومثل أبيات عمرو بن الإطنابة^(٥)

إني من القوم الذين إذا اتدوا بدءوا بحق الله ثم التنازل
وبعض هذا الباب يدخل في الهجاء مثل أبيات عروة^(٦)

إني امرؤ عافى إنائي شركة وأنت امرؤ عافى إنانك واحد
ومثل أبيات حطائط بن يعفر^(٧)

تقول ابنة العباب رهم حربتنا حطائط لم تترك لنفسك مقعدا
ومثل أبيات جريرة بن النضر^(٨)

قالت طريفة ماتبقى دراهمنا وما بنا سرف فيها ولا خرق

(٢) ح ٢ ص ٨٥ - ٩٠

(٤) ح ٢ ص ٢٧٤

(٦) ح ٢ ص ٣٠١

(٨) ص ٣٤٤

(١) ح ٢ ص ٣١

(٢) ح ٢ ص ٢٦٣

(٥) ح ٢ ص ٢٨٩

(٧) ح ٢ ص ٣٤٢

ومثل قصيدة عارق الطائي (١)

ألا حتى قبل البين من أنت عاشقه ومن أنت مشتاق إليه وشائقه
أما باب الصفات فهو قصير جدا لا يستغرق أكثر من ثلاث صفحات .
مع أنه يتسع لأكثر من هذا . وكان حق الباب الذي يليه (باب السير
والنعاس) أن يضم إليه .

أما باب الملح فبعضه هجاء . وبعضه وضع للجذد موضع الهزل . فهو لاحق
بالهجاء . فمن الهجاء قول امرأة (٢)

فقدت الشيوخ وأشياهم وذلك من بعض أقواله
ترى زوجة الشيخ مغمومة وتسمى لصحبته قالية
ومن أمثله وضع الجذد موضع الهزل (٣)

فإنك إذ ترى عرصات جُمُل بعاقبة فأنت إذا سعيد
لها عينان من إقط وتمر وساء خلقها بعد الثريد

ومنه :

يارب إن قتلتها فعدلها فلن تموت أو تجيد قتلها

أما باب مذمة النساء وهو آخر أبواب الكتاب فكله داخل في الهجاء .
ومع ذلك فقد كان أبو تمام موفقا من بعض النواحي على ماله من فضل
السبق إلى التقسيم . فما وفق فيه جعل الحماسة قسما من أقسام الشعر . وقد
فرق الذين جاءوا بعده هذا الباب في عدة أقسام . فجعلوا منه المديح والفخر
وشعر الحروب . ونظرة أبي تمام إلى هذه الأقسام مجتمعة في باب واحد
أشمل وأوضح . فالواقع أنها تصدر جميعا عن اخماسة والإعجاب . وهي تصور
المثل الأعلى للشاعر ممثلا في مدوحه أو في نفسه وقيلته أو في فكرة من
الافكار . وقد كان لأبي تمام بعض العذر في هذا الخلط لأن معظم مختاراته
جاهلية . والشعر الجاهلي محتلط . تجد فيه النسيب والثناء واخماسة والهجاء في
القصيدة الواحدة .

كان اعتماد أبي تمام في تقسيمه على فطرته السليمة وإحساسه الفني، أما قدامة فقد اعتمد على عقله . وكان أبو تمام شاعرا صاحب ذوق ، أما قدامة فكان أعجميا صاحب منطق وفلسفة . ألف في الفلسفة كتاب السياسة وفي المنطق صناعة الجدل . لذلك كان تقسيمه للشعر متأثرا بهذه الثقافة الفلسفية . فهو يطبق على الشعر صناعة المنطق من ناحية ، ويخضعه لقوانين الأخلاق من ناحية أخرى . يبدأ تقسيمه بالمدح ويعتبره أصلا للفنون الأخرى ، فالهجاء عنده ضد المدح ، والرثاء مدح ولكن الشاعر يخلط به شيئا يدل على أن المقصود به ميت مثل كان أو عدمنا به كيت وكيت أو ما يشاكل هذا ليعلم أنه ميت ، وهو يعنى أول ما يعنى بتعريف الفن الذى يتحدث عنه تعريفا منطقيا سليما فى أقل لفظ ممكن ، ثم يأخذ فى شرح تعريفه ، فإذا فرغ من ذلك استخلص من التعريف ما ينبغى أن يتوافر فى هذا الفن من الشروط والأركان ، ويمضى فى ذلك تاركا نفسه إلى حيث يسوقه هذا المنطق . فهو يقول فى النسيب بعد التعريف . (وإذا قد بان أن الذى قلناه على ما قلناه ، فيجب أن يكون النسيب الذى يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهاك فى الصباية ، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة) . ويقول فى المدح (إنه لما كانت فضائل الناس من حيث أنهم ناس . لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان ، على ما عليه أهل الألباب من الاتفاق فى ذلك ، إنما هى العقل والشجاعة والعدل والعفة . كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيبا ، والمادح بغيرها مخطئا) وعلى هذا الأساس الأخلاقى المحدد بحدود منطقية عنيفة تدور الأقسام الثلاثة : المدح والهجاء والرثاء . ومادام الهجاء عنده ضد المدح فينبغى إذاً أن يعتمد على نقض الفضائل النفسية . وكلما كثرت أضداد المديح فى الشعر كان أهجى . ثم يقول (ثم ينظر أقسام المديح وأسبابه ، فيجرى أمر الهجاء بحسبها فى المراتب والدرجات والأقسام . ويلزمه ضد المعنى الذى يدل عليه . إذ المديح ضد الهجاء) ومادامت المراثية هى المدحة لافرق بينهما إلا أن

الأولى لهالك والآخرى لحي ، فيجب أن تعتمد على الفضائل النفسية . فهو يقول في الرناء (وإذ قد تبين بما قلنا أننا أنه لافضل بين المديح والتأين إلا في اللفظ دون المعنى ، فإصابة المعنى به ومواجهة غرضه هو أن يجرى الأمر فيه على سبيل المديح) وواضح من الأمثلة التي قدمناها من كتابه ما يلوح على ديباجته من المنطق العنيف الذي يفسد الأسلوب ، وواضح أيضاً أن رجلاً كهذا لا صلة له بالشعر بل بالفن جملة . فإنما هو صاحب منطق وأخلاق . والكلام في الشعر يعتمد أول ما يعتمد على الذوق . وقد ذكر يا قوت في ترجمته أنه كان بارعاً في الحساب . والواقع أن براعته في الحساب تغل لنا طريقة فهمه للشعر فهو يفهمه فهماً حسابياً . فالييت من الشعر لا يدل عنده إلا على أرقام . فهذا بيت في المدح قد اجتمعت فيه الفضائل الأربع فهو خير من بيت آخر فيه فضيلتان أو ثلاث . وهو يمثل للهجاء الجيد بقول الشاعر :

إن يغدروا أو يفجروا أو ييخلوا لا يحفلوا
وغدوا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا

انظر إلى هذا الرجل الذي يفهم الشعر بالأرقام . ويزنه بموازين الأخلاق كيف يتصور اجمالاً فيهما . يقول (فمن جودة هذا الهجاء أن الشاعر تعتمد به أصداد الفضائل على الحقيقة فجعلها فيهم . لأن الغدر ضد الوفاء . والفجور ضد الصدق . والبخل ضد الجود . ثم أتى بعد ذلك بضد أجل الفضائل وهو العقل حيث قال : وغدوا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا . لأن هذا الفعل إنما هو من أفعال أهل الجهل والبهيمية والفحة التي هي من عمى القوة المنيرة كما قال جالينوس في أخلاق النفس) وما ظنك برجل يعرف الشعر في أول كتابه بقوله (هو كلام موزون مقفى يدل على معنى) .

كان من سوء حظ النقد أن قدامة أول من ألف فيه كتاباً فتأثر به كثير من النقاد الذين جاموا بعده . وحتى أولئك الذين كانوا ينفرون من المنطق والفلسفة وإقحامها في الدراسات الأدبية لم يستطيعوا أن يتخلصوا من أثر

قدامة ويتحرروا من قيوده . فهذا أبو هلال العسكري وهو شاعر ، يعتمد في كتبه في البلاغة والنقد على الذوق ، قد تأثر بكتاب قدامة في نقد الشعر ، برغم ما يبدو من أنه نافر من أسلوبه في دراسة الشعر . هو يتجافى في (ديوان المعاني) عن تقسيم قدامة ، ويتعد عن التحديد المنطقي العنيف في التعريف والتقسيم ، ويضع بين يدي القارئ كثرة من النصوص شعرا ونثرا ، يروض بها ذوقه ، ويصقل ملكاته . ولكنه مع ذلك واقع تحت تأثير قدامة . نحس هذا في كثير من مواضع كتابه . فهو يفرد من ديوان المعاني بابا خُصّص للإنسان المحمودة من الجود والشجاعة والعلم والحلم والحزم والعقل وما يجري مع ذلك . وواضح من عنوان هذا الباب أنه ينساق من غير أن يشعر إلى نظرية الفضائل الأربع عند قدامة . وتأثر بهذه النظرية يبدو في مواضع أخرى من كتابه . فهو يقول في بيت أبي العميثل^(١) :

فاصدق وعف وجد وأنصت واحتمل واصفح وكاف ودار واحلم واشجع
(وقد جمع هذا البيت جميع خصال المدح) مع أن البيت كما ترى نظم لا جمال فيه . ويقول^(٢) بعد أن يروى أبياننا للبحترى (لم يبق وجه من وجوه المدح في الجود والشجاعة وتصوب الرأي ومضاء العزينة والدهاء وشدة الفكر إلا قد اجتمع ذكره في هذه الآيات . ولم أعرف أحدا يستوفي مثل هذه المعاني في أكثر مدائحها إلا للبحترى) ويقول في باب الهجاء^(٣)

وأباغ الهجاء ما يكون بسبب الصفات المستحسنة التي تخص النفس من الحلم والعلم والعقل وما يجري مجرى ذلك . وليس الهجاء بقبح الوجه وضوؤة الجسم وقصر القامة وما في معنى ذلك بليغا مرضيا . وروى في بعض مواضع من كتابه أمثلة قدامة يعينها . فروى في باب المدح آيات الخطيئة^(٤) .

يسوسون أحلاما بعيدا أناتها وإن غضبوا جاء الحفيظة والجد

ويقول بعدها (ولعمري إن معاني هذه الآيات أبكار ليس للعرب مثلها . وكل من تناولها فإنما استعارها من الحطيثة . وهي جامعة لخصال المدح كلها) ويروى في باب الهجاء بيتي قدامة اللذين أشرنا إليهما منذ قليل^(١)
إن يغدروا أو يفجروا أو ييخلوا لا يحفلوا
وغدوا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا
ويقول (هذا أبلغ من ذكر الفروج والقول الفاحش المقذع في الأمهات)
وبعد فتقسيم أبي هلال يمكن أن يرد آخر الأمر إلى تقسيم قدامة . فالباب الأول والثاني في المديح ، والثالث في الهجاء ، والرابع في النسيب ، والأبواب الستة التي تليه في الوصف ، والباب الحادى عشر في الرثاء . والباب الأخير في أشياء متفرقة رآها غير داخلة في باب من أبواب كتابه .

ثم جاء بن رشيق وكان شاعرا صاحب ذوق ممتاز يتجلى في حسن اختياره وفي جمال أمثاله التي أوردها في كتاب العمدة ، فسار على نهج قدامة وتأثر به تأثراً عميقاً ، فهو يردد في باب المديح كلام قدامة في الفضائل النفسية ، ويمضى على آثاره مبيناً ما يفرغ من كل فضيلة منها . ثم لا يزال يروى آراء قدامة مستقصياً ، حتى يذكر ما ينتج من تركيب بعضها مع البعض ، فالصبر على الملمات ونوازل الخطوب والوفاء بالإيعاد يحدث من تركيب العقل مع الشجاعة ، والبر وإنجاز الوعد وما أشبه ذلك يحدث من تركيب العقل مع السخاء . . وهكذا إلى أن ينتهى من كل الأمور المنطقية التي تنتج عن هذا التركيب . وكل هذا كلام لا موضع له في النقد .

ولم يقف تأثره بقدامة عند هذا الحد من رواية بعض آرائه واستحسانها ، بل تأثر به في تقسيم الشعر ، فجعل المدح أصلاً لتقسيمه كما جعله قدامة . فالفخر عنده هو المدح نفسه غير أن الشاعر يختص به نفسه . والرثاء مدح أيضاً ولكن الشاعر يخطئ به ما يدل على أن المقصود به ميت ، والهجاء يعتمد على

المدح أيضا فهو ضده لا يختلف في أصوله عنه ، فليس بينهما من فرق إلا أن الشاعر ينقض في الهجاء ما يقال في المدح ، فهو مثله يعتمد على الفضائل النفسية الأربع . وكلما كثرت أعداد المديح في الشعر كان أهجى .

وابن رشيق إن كان أعجميا كقدامة فهو أصنى ذوقا وأقوم طبعاً . فهو صاحب شعر مليح واختيار تتجلى فيه سلامة الذوق . وفي كتابه التفاتات جميلة وملاحظات فنية حسنة . وإنما جنى عليه اعتياده على قدامة في كثير من المواضع ، وقتنته بمنطق أرسطو الذى كان بدع العلماء والمتعلمين في ذلك الحين . ومع ذلك فأكثر ما يعتمد ابن رشيق في كتابه على الرواية ، فهو يعدد آراء الذين سبقوه من النقاد . ويستطيع القارئ أن يستخلص رأيه من بين هذه الروايات بما يعقب عليها مؤيدا أو معارضا ، منها إلى مواضع الخطأ والانحراف عن الصواب .

ولسنا أول من يأخذ على قدامة أسلوبه في دراسة الشعر وتقسيمه . فهذا هو الأمدى يتعرض له في غير موضع من كتاب الموازنة ، فيسخر آراءه ويهجنه ^(١) . بل لقد ألف كتابا في الرد على (نقد الشعر) سماء (تبين غلط قدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر ^(٢)) .

لم يقع هؤلاء النقاد على الصفة الأساسية البارزة التي تميز الشعر وهي العاطفة . وعليها وحدها يجب أن يقوم التقسيم ، وخصوصا في الشعر العربي الذى هو في معظمه غنائى . فليس الشعر في حقيقة الأمر إلا إبرازا للعواطف الإنسانية وتصويرا لانفعالات الشاعر وخلجات قلبه . فهو - كما يقول ويردزويرث - فيضان من شعور قوى ينبع من عواطف تجمعت في هدوء . فالعاطفة - كما يقول پول فاليرى - هي أول الشعر وآخره ، وأصل الفن وغايته . فالذى يتعرض لتقسيم الشعر يجب أن يعود إلى الأصل الذى صدر

(١) ص ١٢٤ ، ١٢٥

(٢) معجم الأدباء ج ٨ : ٨٦

عنه ، وأن يرد هذا الإنتاج إلى مصدره الأول . والواقع أن تقسيم الشعر - والغنائى منه بنوع خاص - مهمة شاقة ليست بالهينة . فموضوع الشعر واسع جدا سعة الحياة نفسها ، وألوانه متعددة تعدد أهواء النفس البشرية وخلجاتها ، ثم هو فى بعض الأحيان غامض محتلط يصعب تحليله وتمييزه وإرجاعه إلى عاطفة خاصة ، فقد يكون مصورا لمزاج من عواطف مختلفة بل ومتناقضة فى بعض الأحيان . وهذا التناقض والغموض قد يكون فى نفسه مصدر جمال ، فالشعر متعدد الألوان والأشكال تعدد ألوان النفوس التى صدر عنها ، حتى يكاد شعر كل شاعر أن يكون قسما قائما بنفسه مختلفا عما عداه من الأقسام . والناظر فى كتب النقد الغربى يجد أنه لم يبرأ من الخلاف الذى قدمنا بعض صورته عند نقادنا . ونحن نكتفى فى هذا المقام بتحديد القسم الذى سندرسه فى هذا الكتاب وهو الهجاء .

الهجاء أدب غنائى يصور عاطفة الغضب أو الاحتقار والاستهزاء . وسواء فى ذلك أن يكون موضوع العاطفة هو الفرد أو الجماعة أو الأخلاق والمذاهب . فالهجاء لا يصطنعه - كما يقول برونوتير^(١) - إلا وسيلة للتعبير عن طريقته فى الحس والتفكير ، معارضا طرق الآخرين فى حسهم وتفكيرهم . تلك الطرق التى تثير بالمعارضة ذاتها غضبه أو سخطه واستشعاعه أو خوفه واحتقاره أو استهزائه . وواضح أننا قد تعمدنا فى تعريف الهجاء أن لا نجعله شعرا غنائيا فهو أدب غنائى أى أنه شامل للشعر والنثر . فهو غناء أولا وتصوير لعواطف شخصية . وليس الشعر هو السبيل الوحيد لمثل ذلك . ونحن فى هذا التعريف نخالف المشهور عند نقاد العرب من وجين . الوجه الأول أننا نجعله شاملا للشعر والنثر والمشهور أنه لا يكون إلا شعرا ، والوجه الثانى أننا نجعل موضوعه شاملا للفرد والجماعة والأخلاق والمذاهب والمشهور عندهم أنه مقصور على الأفراد . ولكننا لانعدم ما يؤيد مذهبنا عند نقاد العرب ومؤلفيه . فالجاحظ

يسمى بعض رسائله النثرية هجاء فيقول في مقدمة كتاب الحيوان^(١) وعبثي بكتاب الأوافق والرياضيات . . . وبكل ما كتبت إلى إخواني وخطائي من مزح وجد ، ومن إفصاح وتعريض ، ومن تغافل وتوفيق ، ومن هجاء لا يزال ميسمه باقيا ، ومديح لا يزال ناميا . . الخ ، وصاحب العقد الفريد يجعل في القرآن هجاء فيقول^(٢) : قال الله تبارك وتعالى في هجو المشركين (والشعراء يتبعهم الغاؤون . الآية) ، . وأبو هلال العسكري يروى في باب الهجاء شعرا أخلاقيا لا يدخل في الهجاء بمعناه الضيق عند قدماء وأشياعه . ويذكر في هذا الباب نثرا مسجوعا في أغلب الأحيان ولكنه يسميه ذما .

فمن أمثلة الهجاء الأخلاقي الذي ينصب على الجماعة ولا ينصب على الفرد ما يروى لنفسه^(٣)

كم حاجة أنزلتها بكريم قوم أو لئيم
فإذا الكريم من اللئيم أو اللئيم من الكريم
سبحان رب قادر قد البرية من أديم
فشریفهم ووضعهم سيان في شرف ولوم
قد قل خير غنيهم فغنيهم مثل العديم
وإذا اختبرت حميدهم ألفيته مثل الذميم
لا نفع فيه للصغير من الأمور ولا العظيم

ومن أمثلة الهجاء نثرا قول بعضهم لرجل استضاف بخیلا (نزلت بواد غير مطور . ورجل غير مسرور . فأقم بئدم ، وارحل بعدم) . وقول أعرابي دخل بغداد (فإذا ثياب أحرار على أجساد عبيد . إقبال حظهم إدبار حظ الكرم . شجر فروعه عند أصوله . شغلهم عن المعروف رغبته في المنكر^(٤)) والنويري في نهاية الأرب يجعل النثر والهجاء الأخلاقي في باب الهجاء فيقول^(٥)

(١) ج ١ : ٣
(٢) ج ٦ : ١٥٥
(٣) ديوان المعاني ١ : ١٩١
(٤) ديوان المعاني ٢ : ١٠٣
(٥) ج ٣ : ٢٦٩

« وإن للشعراء والبلغاء في الذم والهجاء نظماً ونثراً سنورد منها طرفاً » وهو يروى أبيات أبي هلال السابقة ويجعلها « مما هيى به أهل الوقت على الإطلاق ». ويجعل من الهجاء قسماً هو هجاء أخلاقى . كهجاء الحسد والسعاية بالبغي والغيبة والنميمة ،

وبعد فمدلول الكلمة اللغوى واشتقاقها يعيننا على ما نذهب إليه ويتسع له . فالمرأة تهجو زوجها وتهجو صحبته أى تذمه وتشكو منه . وقد ورد في الحديث (اللهم إن عمرو بن العاص هجانى وهو يعلم أنى لست بتساعر فاهجه اللهم والعنه عدد ما هجانى ، أو مكان ما هجانى) والهجاء عند الزمخشرى مأخوذ من هجاء الحروف فهو تعديد للعياب . فالمرأة تهجو زوجها هجاء قبيحاً إذا ذمت صحبته وعددت عيوبه . وهو تفریع غريب . فالكلمة جاهلية قديمة . وهى بأن تكون سابقة للهجاء بمعنى تعديد حروف الكلمة أشبه . على أنه إن كان كل ما لحظ فى نقلها هو التعديد فلم لم يكن تعديد المفاخر والفضائل هجاء أيضاً ؟ الواقع أن فى المادة معانى أخرى هى أقرب لأن تكون أصلاً للمعنى الأدبى . فالهجاء والهاجة الضفدع وهجو يومنا اشتد حره . وفى اليائى من المادة هجى البيت هجياً انكشف ، وهجيت عين البعير غارت . ومما هو قريب من المادة الهياج بمعنى الغضب والقتال والحرب ، والهـُجـج بمعنى الحق والطيش والنسرع ، والهوجاء الريح التى تقتلع البيوت .

ونحن لا نستطيع أن نرجح معنى من هذه المعانى على أنه أصل للهادة فقد يكون الهجاء بمعناه الأدبى مأخوذاً من الضفدع فهو قبيح الشكل بشع الصوت . وقد يكون مأخوذاً من اشتداد الحر ففيه معنى التشكيل والتعذيب . وقد يكون مأخوذاً من الأصل اليائى فهو يكشف عن سيئات المهجو . ولعل الهجاء بمعنى تعديد حروف الكلمة مأخوذ من المعنى الأخير . فالذى يعدد حروف الكلمة يكشف عنها كما تكشف الريح عما بداخل البيت . معانى المادة على كل حال تدور حول البشاعة والشدة والنكال والسكشاف . والكلمة مرنة

تحتمل الزيادة . وليس هناك ما يمنع من توسيع مدلولها الأدبي بحيث يشمل غيرها من المعاني القريبة جداً من المعنى الأول . وهى وإن كانت قد أخذت شكلاً ثابتاً بهذا المعنى الذى اصطلاح عليه القدماء فما ينبغي لها أن تجمد على هذا الشكل إن فرض عليها تطور الفنون الأدبية أن تتسع أو تضيق . والواقع أن الجاهليين حين قصروا الهجاء بمعناه الأدبي على شكله الشخصى كانوا محقين . فهم لم يعرفوا من أنواع الهجاء إلا هذا اللون . وقد نشأ الهجاء عندهم كما نشأ عند غيرهم من الأمم تنديداً بالمعائب الشخصية أول الأمر . ثم تقدم الهجاء عندهم كما تقدم عند غيرهم ، وارتفع عن الأحقاد الخاصة إلى عنصر الحياة العامة . فكان منه السياسى . وكان منه الأخلاقى . وكان منه الدينى . ولما ارتقى النثر وأخذ مكانه بين الفنون الخيلة التى يتأق فيها أصحابها . وبالفنون فى صقلها وتهذيبها . وأصبح أداة صالحة لتصوير العواطف ونقلها قوية مؤثرة ، كان منه الهجاء . كما كانت منه فنون أخرى هى فى أصلها مواضع للشعر كالحماسة والوصف والرياء . وكل ما فى الأمر أن النقاد لم يسمحوا للمدلول الملفظ أن يتطور بتطور الفن الذى يدل عليه . ثم لم يلتفتوا لذلك ، فظلوا يطلقون الهجاء إطلاقه القديم . وسماوا ما ندرج عنه وامتد منه ذمماً أو تهجيناً أو زهداً أو أدباً . فإذا اكتشفنا نحن هذا الخطأ أو النسيان فما ينبغي لنا أن نتحرج ونزعم أن اللغة ليست منكناً لنا . فالقدماء أنفسهم قد سمحوا للمدلولات الألفاظ أن تتطور . والأدب نفسه قد تطور مدلوله منذ الجاهلية إلى عصرنا فضاقت واتسع مرات .

الهجاء يصور مثله الأعلى . ولكنه يصوره خلال سخطه وغضبه أو اشمئزازه واحتقاره . فهو يصوره بطريقة غير مباشرة حين يصوره المادح أو شاعر الحماسة — وليس المدح إلا حماسة فى حقيقة الأمر — بطريقة مباشرة . فهذا الفن الأدبى الذى يصور المثل الأعلى للشاعر بالسخرية من نقيضه ، ينبغي أن يدرس مجتمعاً بعضه إلى البعض . لأنه يصور ظاهرة فنية واحدة ، ولأنه

يصدر عن عاطفة واحدة ، ويتجه إلى هدف واحد . ونحن لانبألى إذا جمعت هذه الأنواع الأدبية تحت جنس واحد أن تسمى ما تسمى . فلنسمها هجاء إن شئنا ، ولنبحث لها عن اسم آخر إن أردنا أن نطلق لفظ الهجاء على هذا الشكل الأدبي الذى تعود القدماء أن يطلقوه عليه . فليست التسمية بالشئ المهم ، إنما المهم أن يقوم تقسيم الشعر ودراسته على أساس صحيح ، فلا نفرق منه ما ينبغى أن يجتمع ، ولا نجتمع ما ينبغى أن يتفرق .

والأساس فى هذا الشكل الأدبي الذى نريد أن نسميه هجاء — لأننا لا نرى مانعا من هذه التسمية — أن الأديب يصور فيه مثله الأعلى لأن شئاً قد عارض هذا المثل . وهذا الشئ قد يكون شخصاً من الأشخاص أو نظاماً من النظم أو فكرة من الأفكار . فإذا صور الشاعر عاطفته فقد يصورها منصباً على هذا الشخص أو هذا النظام ، وقد يعم بها الجنس أو النوع الذى يجمع هذا الفرد وغيره من الأفراد التى تخضع لنفس الحكم والتى تشبه عند الشاعر نفس العاطفة بتعارضها مع مثله الأعلى .

وهنا يجب أن نشير إلى فرق دقيق بين نوعين من الأدب لا ينبغى أن نخلط بينهما : هما شعر الهجاء والشعر التهذيبي (أو الأدب) كما كان يسميه بعض نقادنا القدماء . فالشعر التهذيبي يقصد به الوعظ والإرشاد ، أما الهجاء فيرمى به صاحبه إلى العقوبة والانتقام . فالأول يقدم درساً فى الأخلاق أو الدين أو الفلسفة . فى هدوء المعلم أو الواعظ والمبشر ، يزجيه الأمل فى الإصلاح . أما الهجاء فهو شريعة القصاص — كما يقول أرنولد — من المجرمين الذين لانتألم يد القانون القصيرة . فالهجاء يرى أن هناك طائفة من المجرمين ، قد غلظت ضبائعهم بما أشربوا فى قلوبهم الباطل والإثم والغرور ، حتى ما يؤثر فيهم نصيح أو تحذير . فهو ينشر على الناس مخازيهم ، ويجعلهم أضحوكة ومثلة ، وقد لا يرجو من وراء عمله هذا أن يصلحهم أو يطهرهم . فالعلاقة بين الشعر التهذيبي والشعر الهجائى هو كالصلة بين المدرسة والمحكمة . أحدهما يسعى

لتكوين الفضيلة ونشر الحكمة . والآخر ينزل عقابه بالذيلة ويهتك الستر
عن الحماقة والسفه . دافع الشاعر التهذي رغبة صادقة في الإصلاح ، ودافع
الهجاء شهوة الغضب والانتقام . وقد تصور الهجاء الانجليزي (Pope)
مهمة الهجاء تصوراً حسناً حين قال : —

Hear this and tremble, you who scaped the laws ;
Yes, while I live, no rich or noble Knave,
Shall walk the world in credit to his grave ;
To virtue only and her finds a friend ;
The world beside may murmur or commend.

استمعوا إلى هذا وارعدوا أيها الهاربون من القانون
فلن يستطيع الأغنياء والمخادعون من النبلاء — ما دبت في الحياة —
أن يقطعوا حياتهم إلى القبر في ثقة واطمئنان
للفضيلة وحدها ولأصدقائها أنا صديق
ما أبالي ضج الناس من حولي ساخطين . أو أننوا مادحين .

ولكى يستبين الفرق واضحاً بين النزعة التهذيية والنزعة الهجائية ، نقدم
قطعتين من الشعر ، إحداهما لأبي العتاهية ، والأخرى لنتنبي ، ثم ننظر في
الفرق بينهما .

يقول أبو العتاهية :

الحرص داء قد أضـ	ربمن ترى إلا قليلا
كم من عزيز قد رأيت	الحرص صبحه ذليلا
فتجنب الشهوات واحـ	ذر أن تكون لها قتيلـ
فلرب شهوة ساعة	قد أوزنت حزناً طويلا
من لم يكن لك منصفاً	في الود قابغ به بديلا
وعليك نفسك فارعا	واكسب لها فعلا جميلا

والمتنبى يقول :

فؤاد ما تسليه المدام	وعمر مثل ما تهب اللثام ^(١)
ودهر ناسه ناس صفار	وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم	ولسكن معدن الذهب الرغام ^(٢)
أرانب غير أنهم ملوك	مفتحة عيونهم نيام ^(٣)
بأجسام يحرق القتل فيها	وما أقرانها إلا الطعام ^(٤)
وخيل ما يخزلها طعين	كأن قنا فوارسها ثمام
خليلك أنت لا من قلت خلى	وإن كثر التجمل والكلام
ولو حيز الحفاظ بغير عقل	تجنب عنق صيقله الحسام ^(٥)
وشبه الشيء منجذب إليه	وأشبهنا بدينانا الطعام
ولو لم يعمل إلا ذو محل	تعالى الجيش وانحط القتام
ولو لم يرع إلا مستحق	لرتبته أسامهم المسام ^(٦)

~ ~ ~

الفرق واضح بين الشاعرين، فالأول يقدم النصيح للناس في هدوء، ليس في نفسه أثر لحقد أو غضب، لأن عيوب الناس لا تثير فيه إلا العطف، فهو يحاول أن يأخذ بيدهم لينجيهم من العذاب، ويدلهم على طريق السعادة، وكله أمل في النجاح. أما المتنبى فهو محقق مغیظ، وهو كالأب الذى يعالج أخطاء

(١) يقول إن آماله ضخمة عريضة ولكن عمره قصير لا يتسع لتحقيقها وهو يشبه عمره في قصره ببطية الخيل اللثيم .

(٢) الرغام التراب يقول إنه بين الناس كالذهب في التراب .

(٣) يصف الناس بالغبلة ويشبههم بالآرانب تام وعيونها مفتوحة .

(٤) يقول إنهم لا يموتون في حرب ولكنهم نهمون تقتلهم التهمة والشره للأكل الذى لا يحفظون بهره .

(٥) يقول إن الناس لا يقول لهم ولذلك هم لا يحفظون على حق ولا يراعون ذمة . ولو جاز أن يكون الحفاظ لغير العاقل لبنا السيف عن عنق صاقة وصانه إذا ضرب به .

(٦) يقول لو أن الأمور تجري على الحق والعدل لكان الملوك سوقة والسوقة ملوك .

ابنه بالضرب بدل أن يعالجها بالنصيحة . ولكن الأب قد يرجو أن يصلح ابنه بالقسوة ، أما المتنبي فهو لا يفكر إلا في نفسه . هو يريد أن يتشقى وينفس عن غضبه ، ثم لا يبالي بعد ذلك شيئاً .

وليس يفهم من هذا أننا نخض من قيمة الهجاء والهجائيين بما نصورهم في هذه الصورة البشعة التي لا يستجيون فيها إلا لشیطان الغضب . فالواقع أن في الهجاء قوة بناءية إلى جانب هذا المظهر الهدام . الذي هو أول ما يطالع المتصفح له . فهو حين يهاجم شخصاً من الأشخاص أو نظاماً من النظم أو نزعة من النزعات ، يتصور في حقيقة الأمر حياة أخرى بأشخاصها ونظامها وأساليبها ، هي مثله الأعلى الذي يطمح إليه ويدعو له . فالهجاء له فلسفة في الحياة يريد أن يؤديها إلينا . على أن الزمن الذي كانت تقاس فيه الفنون بمقدار ما تنفع وتفيد من الناحية المادية قد مضى . وأصبح الشعور الصادق في اللفظ الجميل هو فوam الشعر الصحيح — كما يقول فاليري — ولم يعد الفن وسيلة لتيء . ولكنه أصبح غاية في نفسه . وكل ما يطالب به الشاعر أن يكون دقيقاً قوياً في المزاوجة بين إحساسه الفني وبين السمكات . بحيث ينبجس شعره أنشودة رائعة وأزراً كاملاً لما في نفسه .

يقسم النقاد الهجاء إلى ثلاثة أقسام : هجاء شخصي وهجاء أخلاقي وهجاء سياسي .

فالهجاء الشخصي يعتمد على مهاجمة الأفراد . وهو أقدم أنواع الشعر الهجائي . وهو في معظم الأحيان متأثر بالأهواء الشخصية . بعيد عن العدل والإنصاف . لأنه لا يرتقي إلى عناصر الحياة العامة إلا في القليل من نواحيه ، فهو أقرب للسباب . وأدنى إلى أن يتورط في الفحش . ومثل هذا الشعر قد يعجب المعاصرين ويسترعى انتباههم . فيزدادونه شامتين أو ساخطين . ولكنه يفقد جزءاً كبيراً من قيمته بتداول العصور . فلا يتحمس له الناس ولا يجدون فيه المتعة . إلا بمقدار ما يشتمل عليه من نادرة طريفة . أو سخرية مسلية

أو نكتة مضحكة . وأكثر ما يكون الهجاء الشخصي ناجحاً إذا استطاع فيه الشاعر أن يخفي حقه نحو الأفراد ، فيبدو غضبه منصبا على رذائل سائدة وحماقات منتشرة ، لا تعرض فيها أسماء الأشخاص إلا على سبيل التوضيح والمثال ، كالذى نجده عند الجاحظ في «البخلاء» . ولسنا بحاجة إلى تقديم أمثلة شعرية لهذا القسم ، فهي كثيرة معروفة في الشعر العربي القديم .

أما الهجاء الأخلاقي ، فموضوعه الجرائم الأخلاقية أو الدينية ، والمفاسد الاجتماعية ، والعادات القبيحة . والعيوب الإنسانية على وجه العموم . وقد يعم به الهجاء جنساً من الأجناس لا يعين منه أفراداً ، كالذى نجده في شعر المعري من السخط على المرأة أو رجال الدين ، فهو لا يعنى فيه امرأة مقصودة أو رجلاً يعينه من رجال الدين ، ولكنه يرى رذائل مصورة في بعض من عرف من أولئك وهؤلاء ، فيدفعه السخط والاشمئزاز إلى التعميم . وبعض شعر المعري يبدو مظلماً ملاماً لا يروق المتفائلين ، لأنه يبدو وكأنه لا يصدر عن سخط أخلاقي ، ولكن عن كراهية ونفور من الجنس البشرى .

انظر ما يقول في هجاء رجال الدين^(١)

وقد فنشت عن أصحاب دين	لهم نُسك وليس فهم ريا
فألفيت البهائم لا عقول	نقيم لها الدليل ولا ضياء
وإخوان الفطانة في إختيال	كأنهم لقوم أنبياء
فأما هؤلاء فأهل مكر	وأما الأولون فأغبياء
فإن كان التقي بلسهاً وعباً	فأعيار المذلة أتقياء ^(٢)

ولاحظ ما يسودها من سخط على الجنس البشرى كله . فهو لا يصب سخطه على المتدينين وحدهم ، ولكنهم يشمل به المتدينين وغير المتدينين . فالمتدين أبه موصوم بالرياء ، وغير المتدين ما كرم يلائه الكبر والغرور .

(١) «الزوميات» ١٠٠ ، ١٠١

(٢) «الأعيان» مع غير وهو أحار . بقول لو كان كل ما يطلب في التقى أن يكون أبه عباً لكان أحار آخر شيء . انظر وصف بالمتنبي .

وانظر مايقول عن الوعاظ في موضع آخر^(١)

رويدك قد غُررتَ وأنت حر
بصاحب حية يعظ النساء
يحرم فيكم الصبيان صباحا
ويشربها على عمد مساء
تحساها فمن مزج وصرف
يُعل كائننا ورد الحساء
يقول لكم غدوت بلا كساء
وفي لذاتها رهن الكساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى
فمن جهتين لا جهة أساء

وفي موضع ثالث^(٢)

أقمي لا أعد الحـ فرضا
على عجز النساء ولا العذراي
وفي بطحاء مكة سر قوم
وليسوا بأخفاء ولا الغباري
وإن رجال شيبة سادنها
إذ راحت لكعبتها اجمارا
قيام يدفعون الوفد شفعا
إلى البيت الحرام وهم سكارى
إذا أخذوا الزواف أوجوهم
ولو كانوا اليهود أو النصارى

أما تحامله على المرأة فهو معروف مشهور منه^(٣)

خصاؤك خير من زواجك حرة
فكيف إذا أصبحت زوجا لموس
وإن كتاب المهر فيما اتمسته
نظير كتاب الشاعر المتلس^(٤)
فلا تُشهدن فيه الشهود وألقه
إلهم وعد كالعائر المتشمس^(٥)
ولبسك ثوب السقم أحسن منظرا
وأبهج من ثوب الغوى المتشمس^(٦)
وإنك إن تستعمل العقل لا يزل
مبيتك في ليل بعقلك مشمس

(١) اللزومات ١ : ٥٠

(٢) اللزومات ١ : ٦١

(٣) اللزومات ٢ : ٣٥

(٤) المتلس شاعر جاهلي حُد عليه عمرو بن هند ملك الحيرة لهجائه فاحتال لقتله بأن أرسله بكتاب إلى عامله في البحرين بأمره بقتله : ولكن المتلس توجس الشر ففرض الكتاب في الطريق وقرأه فنجا بنفسه
(٥) العائر الفرس الهذلي أفلت من صاحبه من غار الفرس بعير إذا أفلت وذهب على وجهه .

والمشمس المتشمى المنتع

(٦) المنس انحال

وله في اللزوميات قصيدة طويلة تبلغ ستة وتسعين بيتا معظمها في هجاء المرأة. فهي أشبه بأهجية جوفينال السادسة. ومنها (١)

لقينك بالأساور معلبات	فوارس فتنة أعلام غي
ركابك في مهالك مقدمات	ولكن الأوانس باعشات
أصابك من أذاتك بالسمات	صحبت فاستفدت بهن ولدا
بذلك من نواب مستدمات	ومن رزق البنين فغير ناء
وأرزاء ينجن مصدمات	فمن ثكل يهاب ومن عقوق
تبين في وجره مقدمات	وإن تعط الأناث فأى يؤس
ويلقين الخطوب ملوحات	يردن بعولة ويردن حليا
ولا في غارة متغشات	ولسن بدافعات يوم حرب
أمانا من غوارر مجرمات	وليس عكوفهن على المصلى
بأيد للسطور مقدمات	ولا تحمد حسانك إن توافت
بهن من اليراع مقلبات	حمل مغازل النسوان أولى
فلسن عن الضلال بمنجمات	وإن جن المنجم سائلات
من اللأى فغن مهتات	ليأخذن التلاوة عن عجوز
إذا قلن المراد مترجمات	فما عيب على الفتيات لحن
فقد ألفيتهن مذمات	فلا يدخلن دارك باختيار
بمعصرة من المتنعات	ولا يتأهلن شيخ مقل
إليه السن جاء بمعظات	فإن الفقر عيب إن أضيفت

وواضح في كل هذه الأهاجي ما يغشها من تشاؤم وكرهية للنوع البشرى.

ومن الهجاء الأخلاقي قول بشار :

خير إخوانك المشارك في المـــــر فأين الشريك في المرأينا
الذى إن شهدت شرك في الحـــــس وإن غبت كان أذنا وعينا

مثل سر الياقوت إن مسه النار جلاه البلاء فازداد زينا
أنت في معشر إذا غبت عنهم بدلوا كل مايزينك شينا
وإذا مارأوك قالوا جميعا أنت من أكرم البرايا علينا
ما أرى للأنام ودا صحيحا عاد كل الراء زورا ومينا

والفرق واضح بين المرارة القاسية التي تسم شعر المعري، وبين النقد الذي هو أدنى للحكمة الأخلاقية عند بشار :

والنوع الثالث من الهجاء هو الهجاء السياسي . وهو يتميز عن سابقه بأن صاحبه يرى مثله الأعلى في حزب من الأحزاب أو طائفة من الطوائف أو مذهب من المذاهب ، فهو يهاجم كل ما يتعارض مع هذا المثل من نقائص ومعائب تتمثل في أنصار حزب آخر . وهو يزعم في كل هذا — صادقاً أو متصنعاً — أنه يهاجم في سبيل الفضيلة والحق . ونستطيع أن نلحق بهذا القسم الهجاء الديني والهجاء القبلي . أما الهجاء الديني فنجد له أمثلة فيما كان بين شعراء المسلمين وشعراء قريش أول ظهور الاسلام . وأما الهجاء القبلي فهو في الواقع ليس شعراً سياسياً بالمعنى الدقيق ، ولكنه يصور الشعر السياسي في طوره البدائي عند العرب . فالعرب في جاهليتهم لم يعرفوا نظام الدولة . ومن ثم لم تكن لهم أحزاب منظمة تتقيد ببراهيج خاصة . ولكن العربي مع ذلك كان يحمل لقبيلته من القداسة والاجلال ، مثل ما يحمل المواطن لوطنه بل أشد . وكان للفرد على قبيلته من الحقوق ، ما يشبه حق المواطن على وطنه . فهي مكلفة بحمايته من كل اعتداء . وهو بعد هذا مسئول أمامها ، مرتبط بها . لا رأى له إلا مآرات . وهو يضع سيفه ولسانه في خدمتها . ولها أن تحرمه من جنسيته بأن تبرأ منه وتعلنه طريداً .

فمن الشعر السياسي قول ابن بقله (وهو من اليمنية الذين ارتدوا عن الإسلام عصية على نزار ^(١) :

أبعد المنذرين أرى سواماً
وبعد فوارس النعمان أرى
فصرنا بعد هلك أبي قيس
تقسمنا القبائل من معد
وكنا لا يرام لنا حريم
نؤدى الخرج بعد خراج كسرى
كذلك الدهر دولته سجال
فيوم من مساء أو سرور

ومنه قول حنظلة الكاتب في فتنة عثمان^(١)

عجبت لما يخوض الناس فيه
ولو زالت لزال الخير عنهم
وكانوا كاليهود أو النصرى
سواء كلهم ضلوا السبيل

وقول حسان^(٢) :

أتركتم غزو الدروب وراءكم
فلبئس هدى المسلمين هديتم
إن تقدموا نجعل قرى سرواتكم
أو تدبروا فلبئس ماسافرتكم
وكان أصحاب النبي عشية
أبكى أبا عمرو لحسن بلائه
وغزوتمونا عند قبر محمد
ولبئس أمر الفاجر المتعمد
حول المدينة كل لين مذوذ
ولمثل أمر أميركم لم يرشد
بدن تذبج عند باب المسجد
أمسى مقبياً في بقيع الغرقد

ومنه قول الشاعر يخاطب أم المؤمنين في فتنة علي ، حين طالبت بدم
عثمان ، وكانت قد حضت على قتله^(٣)

منك البداء ومنك الغير
وأنت أمرت بقتل الإمام
ومنك الرياح ومنك المطر
وقلت لنا إنه قد كفر

(٢) الطبرى ٢ : ٤٤٧

(١) الطبرى ٣ : ٤١٧

(٣) الطبرى ٣ : ٤٧٧

فهبنا أطعناك في قتله وقتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ولم ينكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرأ يزيل الشبا ويقبم الصعر
ويلبس للحرب أثوابها وما من وفي مثل من قد غدر

ومنه قول الشاعر العلوى في يوم صفين^(١)

ألا أبلغ معاوية بن حرب فإنك من أخى ثقة ملهم
قطعت الدهر كالسدم المعنى تهدر في دمشق فما تريم
وإنك والكتاب إلى على كدابة وقد حلم الأديم
يمنيك الإمارة كل ركب لأنقاض العراق بها رسم
وقومك بالمدينة قد أيبدو فهم صرعى كأنهم انهشم
وليس أخواترات بمن توافى ولكن طالب الترة الغشوم
ولو كنت القتل وكن حيا لجرد لا ألف ولا ستوم
ولا نكل عن الأوتار حتى يبي بها ولا بيم جوم

ومنه قول الشاعر الخارجي عيسى بن فأنك التيمي^(٢)

فلما أصبحوا صلوا وقاموا إلى الجرد العتاف مسومينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم فضل ذوو الجعائل يقتلونا
بقية يومهم حتى أتاها سواد الليل فيه يراوغونا
يقول بصيرهم لما أتاها بأن القوم ولوا هاريننا
أألفا مؤمن فيما زعمتم وهزمهم بأسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكبيرة ينصرونا

(١) الطبرى ٣ : ٥٦٣

(٢) الكامل ٢ : ٥٧

ومنه قول أعشى همدان في فتنة المختار (١)

وَأَنى بكم بأشرطة الشرك عارف	شهدت عليكم أنكم سبئية
وإن كان قد لفت عليه اللقائف	وأقسم ما كرسيكم بسكينة
شيام حواليه ونهد وخارف	وأن ليس كالتابوت فنيا وإن سعت
وتابعت وحيأ ضمته المصاحف	وإني امرؤ أحبت آل محمد
عليه قريش شمطها والغطارف	وتابعت عبد الله لما تابعت

الخصائص الفنية للشعر الهجائي

الهجاء ناقد بطبعه عياب. تسترعيه حماقات الناس وأخطاؤهم بأكثر مما تسترعيه فضائلهم، فهو لا يحسّ مثله الأعلى بطريق مباشر، ولا يفتن إليه إلا عن طريق ما يعارضه ويشيره، فكأنه لا يهتدى لنفسه إلا بالقدر الذي يدفعه إليه حقه وغضبه. فهو لا يكتشف ذوقه ومواهبه إلا عن طريق السخط، فإذا مات في نفسه السخط، وسكت عنه الغضب، فقد معها كل ظل من ملكاته. محاسن الناس لا تثيره ولا تحرك نفسه. فهو يقول الشعر لأنه مغيط. وقد تساءل جوفينفال في أبحاثه الأولى عن السبب الذي يدعو إلى الهجاء، ثم أجاب عن ذلك بأن الغضب يدفع إلى الشعر. ولقد يكفي أن يفتح إنسان عينيه في بساطة، ليعرف أن من الصعب أن لا يقول هجاء.

الهجاء ساخط على المجتمع نائر على ما فيه ضيق به. وهذا الشعور مركز في نفسه، مستقر في باطنه. فهو يحول بينه وبين إدراك الجانب المضى من الحياة. فهو كالثور الذي لا يحركه إلا منظر الدم. هو جلاد لا يرى من عمله تعليق النياشين على صدور الأكفاء. ولكنه يصب سوطه على ظهور المجرمين. ولو تتبعنا تاريخ الهجائيين في الآداب المختلفة لرأيناهم قد قاسوا من الحياة ما بغضها إليهم. وحرقوها في نظرهم، وجعلهم يتطيرون بكل شيء فيها. فالهجاء نتيجة عقدة نفسية، وربما كان في كثير من الأحيان نتيجة لمركب نقص.

كان الخطيئة دميم الخلقة مغموز النسب. وكان جرير متواضع النشأة والنسب. وكان بشار مشوه الخلق وكان أبوه مولى مهينا. وكان الجاحظ أسود قصيراً دميماً. ولو تتبعنا شعراء الموالى في العصر الأموي لوجدناهم في معظمهم هجائيين. منهم أبو عطاء السندی^(١) وزباد الأعجمي^(٢) والرماح

(١) الشعر والشعراء ٢٩٦، الأغاني ١٦ : ٨١

(٢) الشعر والشعراء ٢٩٨، الأغاني ٢ : ٢٦٣

ابن يزيد ^(١) وأبو العباس الأعمى ^(٢) وبشار . وكذلك شأن الهجائين في مختلف الآداب . ففي الأدب اللاتيني نجد أن جوفينال كان موتوراً لاقى في نشأته الأولى كثيراً من الاستخفاف والاحتقار ، حين اضطره فقره إلى الاعتماد على بعض السادة من الأغنياء ، يضع نفسه تحت حمايتهم وينال عطاءهم لقاء شعره . وقد علم أن له من المواهب والذكاء ما يفضل به هؤلاء السادة الذين يعتمد عليهم في حياته . فترك ذلك في نفسه مرارة لاذعة ، تبدو في قوله (إنه خير للإنسان أن يكون كل ما يملكه ضياعاً واحداً من أن يكون له قصر في روما) . وكان مارشال مضطرباً معذباً مدة إقامته في روما ، وقد اضطر آخر الأمر أن يعود — غير آسف — إلى وطنه في اسبانيا . أما استاذهما هوارس فقد كان أبوه رقيقاً معتقاً . وقد مرت بحياته أزمات كاد يموت فيها جوعاً . ولم يستطع أن يحصل على عيشه إلا كاتباً للنائب الذي يتولى تحقيق قضايا القتل والإفلاس (Quaestor) .

وكذلك كان شأن الهجائين في الأدب الإنجليزي . كانت حياة بوب (Pope) مرضاً طويلاً كما يصفها هو . فقد كان عاجزاً عن أن يرتدى ملابسه بغير مساعدة . وكان شديد الحساسية بالبرودة إلى حد أنه كان مضطرباً أن يلبس نوعاً مزدوجاً من الفرو تحت قميصه المبطن الكشيف . وكان أحد جنبيه متقلصاً لا يستطيع الوقوف منتصباً إلا إذا شد وسطه بنطاق من نسيج صلب . وكان لنحول ساقيه يضطر للبس ثلاثة أزواج من الجوارب ، لا يستطيع ارتداءهما أو نزعهما بغير مساعدة . وكان ينتابه مع ذلك كله صداع منهك يحطم ما بقى من قواه . وقد قضى بعد موت أمه حياة مؤحشة مقفرة لأنه لم يتزوج .

وكذلك كانت حياة صديقه سويفت (Swift) مؤلف رحلات جاليفر (Galliver's Travels) . فقد نشأ يتيماً مات أبوه قبل مولده ، فتولى عمه

تربيته ولم ينل لقمة العيش في أول حياته إلا بعد تعب شديد . وقد قضى الأعوام السبعة عشر الأخيرة من عمره في وحشة محزنة، ويأس من الحياة شديد ، بعد أن فقد أعز أصدقائه ، وتعاورته الأسقام والأوجاع . وفي هذه الوحدة الموحشة والضيق الشديد، كتب قصته الهجائية التي هي أروع ما كتب، فكانت أقسى ما رمى به الجنس البشرى من هجاء . وأى هجاء هو أقسى، وأى سخرية هي أنكى، من القسم الرابع الذي يتصور فيه أرساً تحكمها الخيول، ويقوم فيها الآدميون ، أو (الياهو) كما يسميهم السادة الخيول. مقام الخدم ويعتبرونهم أخط أنواع الحيوان .

ولم يكن حظ جونسون (Johnson) أحسن حظاً من زميله، فقد كان طفلاً سقيماً، وأول ماتعيه ذاكرته من حياته المشثومة أن الملكة آن لمستته لتشفيه من مرض خبيث كان الناس يزعمون أنه لا يشفى إلا بلبس الملوك (King-evil داء الملوك) . وكان بصره يعاني من الأمراض الرمدية . وكان جسمه موضوعاً للأمراض العصبية والتشنجية . وقد بدء محاولته الأولى في سبيل العيش حاجباً أو عريفاً في مدرسة .

كل هذا يعلل لنا الميول الهجائية في الهجائين، ولكنه لا يعلل لنا نبوغهم . فالسخط وحده قد يخلق هجاء، ولكن هذا الهجاء لا ينبغ ويتفوق حتى تتوافر فيه صفات أخرى . وأول هذه الميزات وأبرزها دقة الملاحظة . فالهجاء طلعة بصير يفطن إلى أدق التوافه وألطفها مما يخط به ، وهو ينظر إلى كل ما حوله بعين الناقد الذي يلتمس العيوب ، فهو سىء الظن بالناس في معظم الأحيان . وقد لا يحتاج الهجاء إلى أن يكون عميق التفكير أو ممتاز الخيال. ولكنه لا يكون ناجحاً إلا إذا رزق العين الناقدة التي تحسن اختيار مواطن الضعف ، وتعرف أين تضرب فريستها . والهجاء لا يرزق الذنوع والشهرة إلا إذا كان في أسلوبه لدع يعتمد على الذكاء واللفظة . فهو لا يؤدي فكرته أداء مباشراً صريحاً ، ولكنه يشير إليها في حذق، ويلج إليها في لباقة،

ويسخر من فريسته مداعبا . فخرير حين يهجو تيمًا بالجنين لا يقول في صراحة
لأنهم يفرون من ميدان القتال، ولكنه يقول :

ترى الأبطال قد كلوا وتيم صححو الجلد من أثر الكلوم
وابن الرومي يقول في نفس المعنى .

لا يعرف القرن وجهه ويرى قفاه من فرسخ فيعرفه
وابن الرومي من الهجائيين الممتازين بالباقعة ويقظة النكتة . انظر إلى
هذه الدعابة المضحكة والفكاهة الحلوة ، التي هي خليقة أن تغرى الناس
بالحرص على الشعر في قوله .

عشقنا قفا عمرو وإن كان وجهه يذكرنا قبح الخيانة والفدر
قتى وجهه كالهجر لا وصل بعده وأما قفاه فهو وصل بلا هجر
ثم انظر إلى ما يصف به نفسه من دمامة الحلقة .

شغفت بالخرد الحسان وما يصلح وجهي إلا لذى ورع
كى يعبد الله فى الفلاة ولا يشهد فيه مساجد الجمع

ومارسىال يهجو شاعرا بتفاهة شعره فلا يقول له ذلك بصراحة . ولكنه
يتلطف فى أدائه فيقول :

تسألنى بابوميلىانوس كيف فاتنى
أن أبعث إليك بشعرى الكثير
وعذرى أنك فى مقابله
قد تبعث إلى ببعض شعرك

والهجاء مع هذا ماهر فى التماس وجوه الشبه بين موضوع هجائه وبين
أقبح الصور ، وأبعثها على الضحك والاستهزاء . ومن الهجائيين من يرزق
إلى جانب هذه الموهبة عبقرية فى الحس اللفظى تلتم فيها الألفاظ (من
حيث هى حروف تتوالى) بالصور الشاماعةجياً . ولانكاد نعرف هجاء عريا

يعدل جريراً في هذه الناحية . فهاؤه يستفز القارئ لنضحك قبل أن يروى في معناه ويحققه . انظر إلى قوله .

ترى التيمى يزحف كالقربى إلى سوداء مثل قفا القدم
واعتبر غرابة الصورة وقبحها المضحك . والشام هذا مع الألفاظ التي تستجعل القارئ بالضحك أول ما تصافح سمعه . ولعل تكرار القاف ودورانها في البيت مما بعين على ذلك ، ثم انظر إلى قوله :

كأنى إذ فرغت إلى أحيج فرغت إلى مقوية بيوض
أوزة غيضة لمحت كشافاً لمحقها إذا درجت تفيض
واعتبر دوران القاف في هذه الأبيات أيضاً . ثم استمع إلى قوله في أم الأخطل

تغلى الخنايص والفول الذى أكلت فى حاوياوى ردوم الليل مجعار
كيف يضحكك البيت قبل أن تتفهم معناه ، فإذا تعرفت إليه لم تجده شيئاً .
فهى تأكل الفول وصغار الخناير فتضطرب فى أمعائها .

والهجاء — مع هذا كله — يعنى عن التأثير السريع والتوضوح الخلاب .
فأسلوبه يمتاز بالبساطة التى لا اثر فيها للتكلف . وقد يحسن فيه الإسفاف والهبوط إلى مستوى النكتة العامة والحديث الشائع المتداول بين العامة . أما الفكرة العميقة ، والفن الشعرى السامى . الذى يصدر عن الجهد الطويل ، والإمعان فى التروى والتفكير ، فهو يذهب بشطر كبير من قوته وتأثيره . لم يفسد هجاء الفرزدق شيئاً كالتكلف . ولم يضعف هجاء أبى تمام شيئاً كالعمق والإبعاد فى الخيال . ولعل هذا هو ما يعنيه صاحب زهر الآداب بقوله (وأصحاب المطبوع أقدر على الهجاء من أهل المصنوع ، إذ كان كالإدارة التى إذا حدثت على سجية قائلها . وقربت من يد متذولها . وكان واسع العطن . كثير الفطن . قربت القلب من اللسان . وتبتهت بنار الإحسان^(١) .

الهجاء نقد للحياة . فهو يأخذ مادته من الواقع ولا يستمدّها من الخيال أو التفكير . ولذلك كانت أبرز صفاته الواقعية البعيدة عن الإسراف في الصناعة، والتي تقوم على تجارب الحياة ودقة الملاحظة لما يجرى فيها من أحداث . فهجاء المعرى في لزومياته ليس إلا ملاحظات من صميم الواقع، يندد فيها بالضعف الإنساني في شتى مظاهره من خداع ونفاق وغرور ورياء وقسوة وأنانية . فهذا رجل غليظ القلب يحمل حمارة المسكين فوق ما يطيق، فإن عجز عن الخمل فرزح تحته أو وني وفتر ، أحال عليه ضرباً وجلدا :

لقد رابني مغدى الفقير بجهله	على العير ضربا ساء ما يتقلد
يحمّله مالا يطيق فإن وني	أحال على ذى فترة يتجلد
يضل كزان مُفتر غير محصن	يقام عليه الحد شفعا فيجلد
تظاهر أبلاذ الرزايا بظهره	وكشحيه فاعذر عاجرا يتبلد

وهذا آخر يحتضر، ولكن الغرور لا يفارقة ، فهو يحرص على أن يوصى قبل موته ، وكأنه سيعود إلى الدنيا بعد أيام . .

يوصى الفتى عند الحمام كأنه	يمر فيقضى ساعة ويعود
وما ينست من رجعة نفس ظاعن	مضت ولها عند القضاء وعود

وذاك واعظ منافق يجلس إلى الناس، فيحرم عليهم الخبائث، وينهاهم عن الشر . وهو يأتى أغلظ الآثام عن عمد :

رويدك قد غررت وأنت حر	بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصبَاء صبحا	ويشربها على عمد مساء
تحسأها فن مزج وصرف	يعل كأنما ورد الحساء
يقول لكم غدوت بلا كساء	وفي لذاتها رهن الكساء

وتلك امرأة مغرورة تؤمل أن يكون ابنها شيئا مذكورا، وترجو من حياته خيرا كثيرا ، فهي تأتى به إلى المنجم تسأل كم تراه يعيش ، والمنجم أجبل الناس بالغيب ، ولكنه حريص على أن يطيل في عمره ليشبع غرورها ، فهي

لا تجزّل له العطاء إلا إذا سخا في تقدير سنه . فيزعم لها أنه سيعيش مائة سنة ، ثم تنصرف الأم بوليدها ، فيأتي عليه الموت لشهره . وهذه فتاة تسعى جاهدة لتجد زوجا ، ظنا منها أن في ذلك الخير ، وهي إن كانت عفة طاهرة فلعلها أن لا تقع على طاهر عف ! والناس يكرهون البنات ويحبون البنين ، ويتصور أحدهم أن هذا الابن سيعلى من قدره في الحياة . وأنه سيسبق به الدنيا ، فكانه المهر ينزل به إلى السباق محتالا ، وإنما هو وهم الإنسان وسفه ، فليس أعدى للرجل من ولده . . .

سألت منجمها عن الطفل الذي	في المهد كم هو عائش من دهره
فأجابها مائة ليأخذ درهما	وأتى الحمام وليدها في شهره
قلب الزمان قرب خود تبتغي	زوجا وتبذل غاليا في مهره
إن كانت امرأة الفتى في طهرها	فلعله لم يأتها في طهره
كره الجهول بناته وسائله	أجنى لما يغتاله من صهره
أعدى عدو لابن آدم خلته	ولد يكون خروجه من ظهره
وسفاهة الإنسان موهمة له	بذ القوارح في الرهان بمهره

هذا هجاء لا يقوم إلا على تقرير الواقع ، وتقديم صور من الحياة ، كل قيمتها في صدقها ، وفي قدرة الشاعر على التقاطها من شتى الصور المتشابهة في الحياة ، وانتشالها من بين أخلاط المناظر ، وأكداس المحسوسات . يبرزها للقارئ ماثلة مجسمة ، فكانت يراها للبرّة الأولى ، وهي تحت بصره وسمعه ، يمر بها في كل يوم .

وإذا أعدنا النظر في كل هذا الهجاء لم نجد فيه نصيبا كبيرا للخيال أو الصناعة الشعرية ، فهو كلام أشبه بالنثر ، يقرر الأشياء كما هي ، كل عمل الخيال فيها هو التلفيق ، وجمع أجزائها المبعثرة من هنا ومن هناك ، يلائم بينها ليخلق منها صورة كاملة .

والواقع أن التعمق في الخيال ، والإسراف في الصناعة الشعرية ، وفي تكلف

الجزالة وسوء العبارة، يضعف الهجاء ويفقده قيمته، لأنه يباعد بينه وبين الواقع، ولذلك كان أصحاب الصنعة من الشعراء أقل الناس توفقاً وإصابة في هذا الفن، فهجاء أبي تمام فاطر لأنه يقوم على الصناعة، ولا يقوم على تقرير الواقع. انظر إليه كيف يبعد في التكلف حين يهجو أبا المغيث فيقول :

هب من له شيء يريد حجابَه ما بال لا شيء عليه حجاب
ما إن سمعت ولا أرائي سامعا أبداً بصحراء عليها باب
من كان مفقود الحياء فوجهه من غير بواب له بواب

وحين يتناول نفس المعنى في موضع آخر فيقول :

لا تكلفن - وأرض وجهك ضحرة - في غير منفعة مؤونة حاجب
ما كنت أول آخر في قدرة أرى فصغر قدر حق الواجب
خدمن غدى الجاني بخزيك ضعف ما أعطيتني في صدر أمسى الذاهب

ثم أنظر إليه في هجائه لعياش لما ينس من عطائه ، وإلى إفساده هجاءه بالإغراب في التشبيه والتعمق في الخيال :

محت نكباته سبل المعاني وأطفأ ليله سرج العقول
رجاء حل من عرصات قلبي محل البخل من قلب البخل
فأجدي موقفي بنداك جدوى وقوف الصب في الظلل المحيل
وأعكفت المنى في ذات صدرى عكوف الدمع في الخلد الأسيل

فهذا شعر لا يفهم إلا بعد تدبر وروية وإعمال فكر . والهجاء يعتمد في تأثيره على الوضوح والخلاب الذي يضحك القارئ أول ما يقرأه ، فهو كالنكتة، إذا لم تفهم إلا بعد تفكير فترت وبردت وذهب بريقها .

وقد كان الأخطل — مع مكاته الشعرية — أقل زملائه الثلاثة حظاً من هذا الفن، لأنه كان يجود شعره ويعنى بتسويته، ويذهب به مذهب الفخامة والتسامى . فهو لا يعيش مع الناس ، ولا يستمد هجاءه من خصمه ، ولكنه

يأخذه من فنه الشعري . فينما نرى جريرا يعتمد على الواقع وعلى دقة الملاحظة حين يهجو به بالخل فيقول :

والتغلي إذا تنحج للقرى حك استه وتمثل الأمثالا
نجد الأخلل يعتمد على فنه وخياله حين يتناول نفس المعنى فيقول :
قوم إذا استنبح الأضياف كلهم قالوا الأمهم بولى على النار

بيت جرير يستند إلى الواقع . فالصورة التي يقدمها حية لأنها من صميم الحياة . هذا الرجل البخيل قد تولته الحيرة . وتملكه الاضطراب ، حين نزل به الضيف . ولذلك فهو يكثر من هذه الحركات العابثة ، التي تصور رجلا لا يدري ماذا يصنع . فهو يتنحج لأنه لا يدري ماذا يقول . قد حل به الرجل في موعد الطعام . وهو لا يريد أن يطعمه ، فبأى حيلة يصرفه ؟ فهو يحك يده بعض أجزاء جسمه في اضطراب ظاهر . ويصرف الضيف إلى التمثل ببعض الأمثال ، لعله يجد في ذلك مخرجا . هذه صورة حية لاشك ، تستند إلى الملاحظة الدقيقة لما خفي من الحركات النفسية ومظاهرها الجسمية ، تجعل الهجاء صورة ناطقة متحركة من الحياة .

أما بيت الأخلل فهو يقوم على الصناعة وحدها ، وليس فيه من الواقع شيء . فهو يستوحى خياله هذه الصورة الغريبة التي تجمع ألوانا من معاني البخل والامتهان والدناءة . لا يكاد قوم جرير يسمعون نباح الكلب ، حتى يعلموا أن ضيفا قد طرقتهم ، فيسرعون إلى النار يطفقونها . وهم يطفقونها بطريقة عجيبة ، يطلبون إلى أمهم العجوز أن تبول عليها ، مع ما في ذلك من الامتهان لها والابتذال لحرمتها . والنار من الضوثة والتفاهة بحيث تكفي بولة عجوز لإطفائها . وهذه صورة — على ما فيها من البراعة الفنية — أبعد الأشياء عن الحياة وعن الذي يحدث فيها بالفعل .

ويهجو الأخلل ابن بدر معيرا إياه هربه في بعض الوقائع . فينصرف إلى فنه الشعري ، يجوده ويختار له أروع الألفاظ ، ويصف الفرس وراكبها

أجل وصف وأبرعه . ولكنه ينسى أنه يهجو وأنه يهجو ليو جمع خصمه
ويشهر به . يقول :

ونجى ابن بدر ركضه من رماحنا	بنضاحة الأعطاف ملهبة الحضر
إذا قلت نالته العوالى تقاذفت	به سوحق الرجلين سابحة الصدر
كأنهما والآل ينجاب عنهما	إذا هبطا وعثا يعومان فى غمر
كأن بطيئها ومجرى حزامها	أداوى تسح الماء من حور وفر
فظل يفديها وظلت كأنها	عقاب دعاها جنح ليل إلى وكر
وظل يحيش الماء من متفصد	على كل حال من هزائمه يجرى
يسر إليها والرماح تنوشه	فدى لك أى إن دأبت إلى العصر
وبالله لو أدركته لاضطررته	إلى صعبة الأرجاء مظلمة القعر
فوسد فيها كفه أو لحجلت	ضباغ الصحارى حوله غير ذى قبر

وهذا شعر رائع من الناحية الفنية ، ووصف ممتاز ، ولكنه هجاء
ضعيف لا يترك فى الخصم أثرا . وأين هو من هجاء جرير فى بساطته الواقعية
الموجعة وتهكمه اللاذع ، حين يقول :

حملت عليك حماة قيس خيلها	شعثا عوابس تحمل الأبطالا
ما زالت تحسب كل شىء بعدهم	خيلا تشد عليكم ورجالا
زفر الرئيس أبو الهذيل أبادكم	فسبى النساء وأحرز الأموالا
قال الأخيطل إذ رأى راياتنا	يامار سرجس لا نزيد قتالا
هلا سألت غناء دجلة عنكم	والخامعات تجمع الأوصالا
ترك الأخيطل أمه وكأنها	منحاة ساقية تدير محالا
ورجا الأخيطل من سفاهة رأيه	ما لم يكن وأب له لينالا
خل الطريق فقد رأيت قرومنا	تنفى القروم تخمطا وصيالا
إن حرموك لتحرم على العدا	أو حللوك لتؤكن حلالا

والواقعية فى الهجاء تستند فى كثير من الأحيان إلى دقة الملاحظة ، التى

تجعل أجزاء الموضوع واضحة ، وتعين الشاعر على اختيار الصور اللاذعة التى تؤذى خصمه ، وتجعله أضحوكة بين الناس . فمن أمثلة هذا الشعر الهجائى الذى يقوم على دقة الملاحظة ، قول يحيى بن نوفل :

وأما بلال فذاك الذى يميل الشراب به حيث مالا
يبيت يمص عتيق الشراب كمص الوليد يخاف الفصالا
ويصبح مضطربا ناعسا تخال من السكر فيه احوالا
ويمشى ضعيفا كشى الزيف تخال به حين يمشى شكالا

هذا هجاء يقوم على الملاحظة الدقيقة لحالات المثل ، واستخراج الصور اللاذعة من هذه الملاحظة . فهو يصور ذلك السكير الذى يلصق كأس الخمر بفمه ، ولا يزال يرشفها فى تردة ، ولا يطبق بعدها عنه ، كأنه الطفل الرضيع لا يطبق الفطام . ثم يصوره فى اضطرابه إذا أصبح مدوخ الرأس مطرقا ، وقد أثقل الخمار أجفانه . فبدا وهو يقاوم النوم ويحاول فتح عينيه الثقيلتين وقد رنق فيهما النعاس ، كأنه أحوال . وهو إذا مشى لم يكذب يستطيع نقل رجله فهو يمشى متدأ كالذى ألح عليه الزيف فأضعفه ، تضطرب رجلاه وتداخلان ، كأنه دابة قيدت رجلاها بشكال .

ومن هذا الشعر الذى يقوم على دقة الملاحظة قول شاعر الحماسة :

وإذا مررت به مررت بقانص متشمس فى شرقة مقرر
للقمل حول أبى العلاء مصارع من بين مقتول وبين عقير
وكأنهن لدى دروز قبصه قد وتوأم سمس مقشور
ضرج الأنامل من دماء قتيلا حنق على أخرى العدو مغير

فقد استطاع الهجاء أن يرسم صورة هزلية حية لهذا الرجل القدر ، الذى جلس فى الشمس ينتفض من البرد ، وقد خلع عنه ملابسه ، وراح يطارد هذه الحشرات التى لا تكاد تنتهى ، وقد التصقت بمواضع الخياطة من رداءه فرادى وجماعات كأنها سمس مقشور . وهو مستغرق فى عمله قد تضرجت

أنامله من دماء هذه الحشرات التي يفركها بينها ، ولكنه حتى قد أصابه الملل
لهذا الجيش الضخم من الحشرات الذي لا يكاد يستطيع أن يفرغ منه ،
فهو لا ينفك ينقض في غيظ على ما تبقى منها .

ومن هذا النوع قول شاعر الخامسة :

لا تنكح الدهر ماعشت أيماً مخزومة قد ملّ منها وملت
تحك قفاها من وراء خمارها إذا فقدت شيئاً من البيت جئت
تجود برجليها وتمنع درها وإن طلبت منها المودة هرت
فقد صور هذه العجوز الدمية الفانية أدق تصوير وأبشعه . فنحن
نتصور اضطرابها حين تحاول أن تتذكر شيئاً أو دعتة في هذا المكان أو ذاك
من البيت ، فلا تسعفها ذاكرتها التي أضعفتها الشيخوخة . فيجن جنونها ،
وتظل في حيرتها واضطرابها تحك قفاها من خلف الخمار الذي يغطي رأسها
المتهدج فيزيدها قبحاً على قبح ، ويضاعف ما كساها الهرم من بشاعة المنظر .
ويهبجو المتنبي ابن كيخلع فيقول :

وجفونه ما تستقر كأنها مطروقة أو فتّ فيها حصرم
وإذا أشار محدثاً فكأنه قرد يقبه أو عجوز تلطم
وتراء أصغر ما تراه ناطقاً ويكون أكذب ما يكون ويقسم
فقد صور هذا الرجل أبعد الناس عن الرزاة أو الوقار الذي ينبغي لمن
في مثل مقامه . فهو كثير الحركة في غير موجب ، مضطرب عيناه في حركة
عصبية دائمة ، كأنهم ما مطروفتان ، أو كأنما أصابهم ما حصرم ، فهو جاهد في
تخليصهما منه بموالة فتحهما وإغلاقهما . وهو كثير الإشارات ، لا يكاد يستقر
في مجلسه إذا تحدث . فإذا ضحك قام وقعد . وماج واضطرب ، مصوتا مغربا في
الضحك ، كأنه قرد يقبه أو عجوز تلطم . وهو أصغر ما يكون في نظر جلسيه
إذا تكلم ، لأن كلالته يكشف عن جهله وتفاهة عقله . وهو كثير الحلف ،
وأكثر ما يحلف أبعد ما يكون عن الصدق .

كل هذه الصور تقوم على الملاحظة الدقيقة لأدق الحركات وألطفها .
وهي مستمدة من صميم الواقع ومن قلب الحياة الجارية .
ومن مظاهر هذه الواقعية في فن الهجاء ، أن المثل التي يقوم عليها ويستند إليها مستمدة من تقاليد العصر ، ومن العرف الجارى بين الناس . فالهجاء — والشخصى منه بنوع خاص ، وهو شطر كبير من شعر الهجاء في الأدب العربى — لا يبالى أن يخالف القيم الأخلاقية ، فيهجو بالدمامة والريثاء والفقر ، وأن يتورط في الفحش والسباب ، ويهبط إلى التبذل في المعانى والألفاظ . ذلك لأنه يقصد إلى الإيحاء والتشهير بالمهجو بين أهل عصره . وهذا هو النجاشى يهجو تميم بن أبى بن مقبل ، بما لا بأس عليه منه عند أصحاب الأخلاق فيقول :

قيّلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل
ولا يرون الماء إلا عثية إذا صدر الورد عن كل منهل
وأبعد منه في المناقضة لأصحاب الأخلاق . ما يهجو به قريط بن أنيف قومه حين يقول :

لكن قومى وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر فى شئ وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كان ربك لم يخلق خشيته سواهم من جميع الناس إنسانا
واستناد الهجاء إلى قيم الحياة الواقعة يجعله عرضة لأن يفقد قيمته بتغير الزمن واختلاف الظروف ، فلا يخلد منه إلا ما يستند إلى عاطفة إنسانية عامة ، أو نسكته مضحكة ، أو دعاية ساخرة . ومن أمثلة ذلك الهجاء هجاء الحطيئة الذى يقوم على المفاضلة ، والذى هو فى معظمه تقرير لوقائع كانت معروفة فى ذلك العصر ، مثل قوله فى هجاء الزبرقان :

أتحصر قوما أن يجودوا بما لهم فهلا قتل الهرمران تحاصره
فلا المال إن جادوا به أنت مانع ولا العز من بنيانهم أنت عاقره

ولا هادم بنيان من شرفت له قريع بن عوف حلفه وأكابه
فإن تك ذا عز قديم فإنهم ذوو إرث مجد لم تخنهم زوافره
وإن تك ذا شاء كثير فإنهم ذوو جامل لا يهدأ الليل سامره
وإن تك ذا قرم أزب فإنهم يلاقى لهم قرم هجان أباعره
قروا جارك العيمان لما تركته وقلص عن برد الشراب مشافره
همو لاحموني بعد فقر وفاقة كما لاحم العظم الكسير الجبار

هذا شعر ليس فيه إلا تقرير الواقع والاستناد إلى القيم الاجتماعية التي كان يعيش عليها الناس في ذلك الوقت . وهو شعر لا نجد فيه اليوم من الروعة ما كان يجده فيه أهل عصره . ومع ذلك فقد كان يوجع الزبرقان ويمضه ألماً، حتى لقد استعدى على الخطيئة عمر فسجنه . وكان موضع الإيلام في هذا الشعر أن الشاعر يستغل ما بين المهجو وبين بني عمومته من تنافس في الشرف فيفضلهم عليه، ويقرر أنهم خير منه، وأنهم آوؤه وأطعموه حين قصر هو عن ذلك . وهذا هو مذهب الخطيئة الذي اشتهر به في أهاجيه، والذي نهاه عنه عمر، وهو استغلال لما عرف به العرب من التنافس والتكاثر والتفاخر .

ولما كان الهجاء الشخصي بعيداً جداً عن الاستناد إلى عاطفة إنسانية عامة، كان أخلده وأبقاه ما غلبت عليه الدعابة التي تغرى الناس بروايته والتندر به . والدعابة شيء موهوب غير مكسوب . فهي مركبة في طباع الهجائين الممتازين، الذين لا تكاد عنهم تقع على الشيء، حتى تندفق عليهم ألوان من الصور الفكاهية، والأخيلة الساخرة، التي تسعفهم بها البديهة . وهي خاصة لا تدر على التفكير وإعمال العقل وكد الخيلة . فالصورة تلمح في ذهن الهجاء الساخر الفطن، فتسعهف بالنكتة الصائبة، بمجرد وقوع عينه على موضوع هجائه أو تخيله . وهذه الخاصة تصور ذكاء لماحا، وهدوء في الطبع، وبروداً في الأعصاب، يحتفظ بروح المرح بعيدة عن أن يطغى عليها الغضب فيفسدها ويذهب بها .
يرد ابن الرومي على شاعر هجاء فيقول له : لماذا تهجوني ؟ أليس يكفيك

في هجائي أن آدم يجمعني وإياك؟ ثم يزعم أن إبليس لم يمتنع عن السجود لآدم إلا لأن هذا المهجو كان في صلبه

أبي وأبوك الشيخ آدم تلتقي مناسبتنا في ملتقى منه واحد
فلا تهجنني. حسبي من الخزي أنني وإياك ضمتني ولادة والد
فلم تكن في صلب آدم نطفة خثر له إبليس أول ساجد

ويهجو آل وهب ليلخلهم فيزعم أنهم كثيرو الضراط . ثم هو يعجب
لتنافضهم . فهم يسمحون بالضراط ولا يشدون رباطه ، بينما يشحون بالمال
فيشدون عليه الرباط . ثم هو يمضي في دعايته الساخرة فيقول : هلا صررتم
على الضراط وحبستموه كما تصرون على الدراهم وتحبسونها ! فإن لم تفعلوا
فاسمحوا بتلك كما سمحتم بهذي . ولكن هيهات فأتمم لا تنشطون للعطاء . وإنما
تفرطون في شيء واحد هو الضراط . فعديلاً في الحكم وسووا بين الأشياء .

يا آل وهب حدثوني عنكم لم لاترون العدل والإقساطا
ما بال ضرطتكم يُحَلِّ رباطها عفوا ودرهمكم يُشَدُّ رباطا
صروا رباطكم المبدد صرتم عند السؤل - الفلّس والقبيراطا
أو فاسمحوا بنوالكم وضرطكم هيهات لستم للنوال نشاطا
لكنكم أفرطتم في واحد وهو الضراط فعدوا الأسفاطا

والمتنبى يهجو كافورا فيداعبه هازلا ، ويسخر منه متشمتا . فيقول : من أين
يتعلم هذا الأسود المخصى المكارم ؟ أمن قومه البيض ؟ أم من آباه الصيد ؟
أم من النخّاس تدمى أذنه في يده إذ يعرضه للبيع طالبا فيه فلسين ، فيستكثرهما
المشتري . ولا يراه أهلا لأن يدفع فيه مثل هذا القدر ؟ ويمضي في هذه السخرية
معتذرا عنه فيقول : إن كوفييرا أولى الناس بعذر . فإن كرام الناس من
البيض لتعجز عن الجميل وتقصّر همّهم دونه ، فكيف نطالب به كافورا
وهو عبد خصي !

من علم الأسود المخصى مكرمة أقومه البيض أم آباؤه الصيد

أم أذنه في يد النحاس دامية أم قدره وهو بالفلسين مردود
أولى اللثام كويفير بمعدرة في كل لؤم وبعض العذر تفنيد
وذاك أن الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصية السود

ويذهب به هذا المذهب في قصيدة أخرى فيقول : إني لأداريك فأريك
الرضا وفي النفس ما فيها من الهم . ثم يعجب لهذا اللثيم ، كيف جمع الله فيه
الكذب وإخلاف الوعد والغدر والخسة والجن . ويقول : كل هذه المخازي
في واحد ! (أشخصا لحتلى أم مخازيا ؟) إني لأبتسم في حنرتك ، فيخيل لك
غباؤك أنى أضحك اغتباطا برؤياك ، وما أنا ضاحك إلا من نفسي إذ أرجو من
مثلك الخير ! ويمضى في التندر به فيقول : ما أعجب رجلحك في سوادهما !
إنهما لتبدوان في نعل وإن كانتا عاريتين . وإن قبح كعبهما ليدكرني ماضيك
يوم كنت عبدا يسخرك سيدك في حمل الزيت . وكأني أراك في ثوبك الخلق ،
تحمل الزيت ، وقد لطح جسدك ، وبدت رجلاك عاريتين مشققتين . فإن لم أكن
قد استفدت بالرحلة إليك مالا . فقد استفدت التلهى بالنظر إلى مشفريك ! ومثلك
حقيق أن يرحل إليه من بلاد بعيدة ! ومثلك حقيق أن يضحك البواكي من
ربات الحداد الناكلات !

أريك الرضالو أخفت النفس خافيا وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيا
آميناً وإخلافا وعذرا وخسة وجبنا . أشخصا لحتلى أم مخازيا !
تظن ابتساماتي رجاء وغبطة وما أنا إلا ضاحك من رجائيا
ونعجتي رجلاك في النعل إنني رأيتك ذا نعل وإن كنت حافيا
ويذكرني تخييط كعبك شقه ومشيك في ثوب من الزيت عاريا
فإن كنت لا خيراً أفدتُ فإنني أفدت بلحظي مشفريك الملاحيا
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة ليضحك ربات الحداد البواكيا

ويهجو أبو نواس رجلا اسمه إسماعيل بالبخل ، فيقول إن أحدا لا يستطيع أن
يزعم أنه رأى خبز إسماعيل . فهو كأوى لا وجر دله ، وإنما يعرف الناس ابن آوى !

على خبز إسماعيل وافية البخل فقد حل في دار الأمان من الأكل
وما خبزه إلا كآوى يرى ابنه ولم ير آوى في حزون ولا سهل
ويتندر بهذا الرجل في موضع آخر، فيزعم أنه يجمع أنصاف الأرغفة
وما يتبقى على المائدة من كسر الخبز، فيلفقها بعضها إلى بعض ويرفوها، حتى
تصبح أرغفة من جديد. وهو يعجب لبراعة الرفاء الذى رفاها. ثم يزعم أن
لهذا الرجل البخيل مذهباً جديداً فى الماء أيضاً. فهو لا يسقى ضيفه الماء
العذب خالصاً كما يشربه هو، ولكنه يقدمه له مخلوطاً بماء البئر، ويخص
نفسه بالماء الصرف!

خبز إسماعيل كالوشى إذا ما شقَّ يرفا
عجباً من أثر الصنعة فيه كيف يخفى
إن رفاءك هذا ألطف الأمة كفا
وله فى الماء أيضاً عمل أبدع ظرفا
مرجه العذب بماء البئر — كى يزاد ضعفا
فهو لا يعطيك منه مثل ما يشرب صرفا

ومن مظاهر هذه الدعابة وصورها، التلحيز إلى المعنى والإشارة إليه، فى
رفق يكشف عن المقصود دون التصريح به. وهو أسلوب تظهر فيه هبة
الفنان ولطف صناعته فى علاج موضوعاته. فجزير حين يهتم نساء مجاشع،
لا يسمى فعلهن باسمه، ولكنه يلحإ إليه بما يكشف عنه. فهو يقول إنهن
يقمن بعد أن ينام الناس فتنبحن الكلاب. وليس قيامهن لصلاة الوتر.

إذا قامت لغير صلاة وتر بعيد النوم أنبحت الكلابا

ويتساءل: خبرونى ما شأن برزة إذ نذرت لله أن تصوم شهر محرم كله
إن لم يطلع القمر؟ وهى تتمنى غياب القمر — بالطبع — لأنه يفضحها،
ويكشف عما تفعل.

ما بال برزة فى المنحة إذ نذرت صوم المحرم إن لم يطلع القمر؟

ويهجو شاعر الحماسة رجلاً بالقصر ، فلا يصرح بذلك ، ولكنه يتصور أن بيضة قد خرجت منه فسقطت على الأرض ، ثم يزعم أن هذه البيضة لا تنكسر لقربها من الأرض :

وأقسم لو خرت من استك بيضة لما انكسرت لقرب بعضك من بعض
ومن مظاهر هذه الموهبة أيضاً ، براعة الربط بين الصور . لا يكاد ابن الرومي يرى رجلاً ذا لحية طويلة ، حتى تستدعي إلى مخيلته صورة حمار قد ربطت في رقبتة مخلاة :

إن تطل لحية عليك وتعرض فالحال معروفة للحمير
علق الله في غداريك مخلاة ولكنها بغير شعير
لو غدا حكمها إلى لطارت في مهب الرياح كل مطير

ويتصور الأخطل طفلاً من بني العجلان يبكي في طلب الطعام ، وقدمت أمه صياحه فألقته في أقصى الخباء ، فراح يدلك عينيه وهو مستمر في صياحه ، فيذكره ذلك بمنظر خفاش قد انكمش في ركن مظلم منطوياً على نفسه :

وقد غبر العجلان حيناً إذا بكى على الزاد ألقته الوليدة في الكسر
فيصبح كالخفاش يدلك عينه فقبح من وجه لثيم ومن حجر
وينظر جرير إلى الرجل القصير من بني مجاشع ، الممتلىء سمناً ، وقد ضخمت عجيزته حتى أثقلته عن السير ، فينفرج فمه عن ضحكة عريضة . إذ يذكره ذلك بمنظر بردون خصي ، قد تردى في الوحل ، فراح يقارع رجله ويخلص نفسه منه جاهداً :

يفيش ابن حمراء العجان كأنه حصي براذين تقاعس في الوحل

أو يستدعي إلى مخيلته صورة بغل ضخم قد جثم فوقه خرجان . وكأن هذا الرجل القصير المكتنز ، في عجيزته الكبيرة ، بغل قد حمل خرجين ، لا يكاد ينهض للسير بهما إلا في مشقة.

من كل متفخ الوريد كأنه بغل تقاعس فوقه خرجان

* * *

كل هذه الخصائص التي قدمناها تباعد من وجوه كثيرة بين الهجاء وبين الشعر عامة، فبينما يصدر الشعر عن السكد والإجهاد، فيزيده عمق الخيال جمالا في الصور، وتضفي عليه الصناعة والملاءمات اللفظية حلاوة في الموسيقى، نجد أن الهجاء يقوم على البساطة في التعبير، تتلفه المعاني الغريبة والأخيلة البعيدة والصور المختارة والملاءمات اللفظية من جناس وطباق ومقابلة . وبينما تقوم الصناعة الشعرية على التأني والروية، والترفع عن ألفاظ السوق وعبارات الدهماء، نجد أن الهجاء يقوم على التصوير اللماح، ونقل الحياة الواقعية بغير تهذيب، وبلغتها الشعبية في بعض الأحيان . وقد يحسن الغموض في الشعر إذا كان ملهما مثيراً، كالذي نجده في صور الشعر الرمزي. ولكن مثل هذا الغموض متلف للهجاء، لأنه يقوم على الوضوح الخلاب .

لذلك كله، كان طبيعياً أن يتحول هذا الفن — الذي يقوم على نقد الحياة كما قدمنا — شيئاً فشيئاً من الشعر إلى النثر، حتى ينتهي به الوضع إلى أن يصبح فناً ثرياً خالصاً في هذا العصر، يأخذ شكل المقالة حيناً، وشكل القصة أو التمثيلية الكوميدية في حين آخر .

الهجاء والسحر

جاء في دائرة المعارف الإسلامية في مادة « الهجاء »^(١) ،

« الهجاء في أصله سحر أو لعنة، واشتقاق الكلمة غير معروف بالضبط. ولكنها قد تعني في أصلها شيئاً قريباً من الرقية. وأصول الهجاء مرتبطة بفكرة قديمة، تزعم أن بعض الأفراد الذين لهم نفوذ خاص، إذا تلفظوا بكلمات، كان لها من القداسة والسلطان، ما يجعل لها تأثيراً دائماً على الأفراد أو الأشياء التي تنصب عليها كلماتهم. وعلى ذلك فقد كان الشاعر في أصل الهجاء، يطلع على الناس بقوة شعره السحرية، التي يوحىها الجن إليه » .

هذا رأى يربط بين الهجاء والسحر. ويقتضينا تحقيقه أن تصور الظروف التي أحاطت بنشأة الشعر، والأطوار المختلفة التي تناوبته.

مر الفن الكلامي في أطوار مختلفة قبل أن يستوى شعراً كاملاً الأوزان، على الصورة التي وصلتنا قبيل الإسلام. وفق الإنسان في زمن من الأزمنة لانكاد نعرفه، ولا نستطيع تحديده، إلى ضرب من ضروب القول، امتاز من بين سائر الكلام، بنوع من التنعيم والنظام، ترتاح له الأذن، وتهزله النفس، ففرح به، ولهج بتكريره، وتناقله الناس، فأغراه ذلك بتجويده وثقيفه، لا يخضع في ذلك إلا لقانون الحس الفطري والذوق البدائي، والناس من ورائه يشجعونه، بما يرى من أثر كلامه فيهم، وتعلقهم به، وتردده على ألسنتهم. ولم يكن ذلك عمل فرد أو أفراد، ولكنه كان عمل الأجيال على يد طائفة ممتازة موهوبة، وجدت في نفسها القدرة على أن تصوغ تجاربها وعليها بما يحيط بها، أحياناً في حدود مدلولات الالفاظ ومعانيها التي تواضع عليها الناس.

(١) اعتمدت هنا على النسخة الإنجليزية.

ولم يكن العربى فى هذه الأزمان يفهم من مدلول الشجر ما نفهم منه اليوم، بعد أن حددناه بحدود من الأوزان والقيود . فقد كان مدلوله فى نفسه أعم وأشمل . كان الشعر عندهم ضرباً من الكلام المنغم المثير ، تتعاطاه طائفة ممتازة من بينهم ، اصطالحوا على تسميتهم بالشعراء ، لأنهم علموا ما لا يعلمون ، وفضنوا إلى ما لا يفظنون ، فقد كان كل علم شعراً — كما يقول صاحب القاموس — ولم تكن فتنتهم بهذا الضرب من ضروب القول الذى سموه شعراً . لما فيه من وزن وتنظيم ، ولكنهم فتنوا أيضاً بما تميز به من النفاذ إلى حقائق الأشياء ، وأسرار الكون ، وحكمة الدهور . فلم يكن عجباً أن يسموا هذه الطائفة « شعراء » . فقد كانوا هم العلماء حقاً . فالحكيم الذى ينطق بالعبرة والأمثال شاعر . والكاهن الذى ينفذ إلى حجب الغيب شاعر . والرجل الذى يصور ما خفى ودق من مواطن الجمال وخفايا النفوس شاعر أيضاً . وظل الناس يحفظون هذه الآثار ويتناقلونهم معجبين بها ، حتى جاء عصر التدوين ، واكتشف الدارسون أن فى شعرهم نوعاً من الوزن، حاولوا تحديده وضبطه ، فسموا ما استقام على هذه الموازين شعراً ، وأخرجوا ما لم يستقم عليها فسموه سجعا أو أمثالا ، وأصلحوا بعضه حتى يستقيم على ما عرفوا من أوزان . فالأمثال كقولهم : « إن البغاث بأرضنا يستنسر » ، « إن البلاء موكل بالمنطق » ، « قطعت جبهة كل خطيب » . والسجع مثل خطبة قس المشهورة أياها الناس :

إسمعوا ووعوا .

أنظروا واذكروا .

من عاش مات ، ومن مات فات . وكل ما هو آت آت .

ليل داج ، ونهار ساج ، وسما ذات أبراج .

ألا إن أبلغ العظام، السير فى الفلوات ، والنظر فى حل الأموات .

إن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لعلوا .
 ما لي أرى الناس يذهبون ، فلا يرجعون .
 أرضوا هناك بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟
 يا معشر إباد :

أين الآباء والجداد ، وأين المريض والعواد ، وأين الفراغ والشداد .
 أين من بنى وشيد ، وزخرف ونجد ، وغره المال والولد .
 أين من طغى وبغى . وجمع فأعوى ، وقال أنا ربكم الأعلى .
 ألم يكونوا أكثر منكم أمولا ؟ وأطول منكم أجالا ؟
 في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر .
 لما رأيت موارد اللوت ليس لها مصادر .
 ورأيت قوى نحوها تمضي الأصغر والأكبر .
 لا يرجع الماضي إلى ولا من الباقيين غابر .
 أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر ^(١) .
 مثل هذا كان شعراً في عرف العربى الجاهلى . والقرآن أيضاً كان
 شعراً في نظره . وقد احتاج النبي إلى أن ينفي ذلك أكثر من مرة ،
 ونزل به القرآن في أكثر من موضع . مما يدل على تمكن هذا الوهم
 من نفوسهم .

ولم تكن أوزان الشعر الذى عرفه الجاهليون مستقيمة في كل الأحيان
 على المقاييس التى وضعها أصحاب العروض فيما بعد . روى ابن إسحق في بناء
 مسجد المدينة : وارتجز المسلمون وهم يبنونه : لا عيش إلا عيش الآخرة .
 اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة ، وليس هذا عند العروضيين بشعر ولا رجز .
 ولكنه كان شعراً في عرف الجاهليين . ودليلنا على ذلك ما يروى صاحب
 السيرة من عدول النبي عنه — وقد كان لا يقول الشعر ولا يرويه — فكان

(١) راجع المزملة الثانية من الروائع للبستانى في كلامه عن الانقراض .

يقول معهم : « لا عيش إلا عيش الآخرة . اللهم ارحم المهاجرين والأنصار »^(٢) ،
وروى ابن إسحق في السيرة قصيدة لامية بن أبي الصلت ييكى زمعة بن
الأسود وقتلى بدر ، ثم يقول ابن هشام : « هذه الرواية لهذا الشعر غنطلة
ليست بصحيحة البناء » . ثم يرويها مستقيمة الأوزان عن خلف . ولعل
الرواية الأولى هي الصحيحة والرواية الثانية قد أصلحها خلف .

ولا يزال لدينا مع ذلك آثار قليلة تصور بعض الشعر الذى لم تسكتمل
أوزانه . مثل قول سويد بن أبي كاهل اليشكرى :

بسعنت رابعة الجبل لنا فوصلنا الجبل منها ما اتسع
ومثل قول المرقش الأصغر .

لابنة العجلان بأجو رسوم لم يتعفين والعهد قديم
ومثل قول امرئ القيس :

رب طعنة مسحفرة . وطعنة مشعجرة .
وجفنة مستحيرة . حلت بأرض أنقرة .
وقوله :

تطاول الليل علينا دمون ، دمون إنامعشر يمانون .
وإننا لقومنا محبون

وكذلك قول الشماخ :

قالت ألا يدعى لهذا عراف لم يبق إلا منطق وأطراف
وربضان وقيصر هفهاف وشعبتا ميس براها إسكاف
وليس هذا الذى يسميه العروضيون زحافات وعللا ، إلا تفسيراً لشذوذ
هذا الشعر فى بعض الأحيان ، عن الأوزان التى استنبطها العروضيون فيما بعد .
وجد الناس السجع أولاً ففتحوا به . ورددوه فى حروبهم أفراداً
وجاعات . مصوراً لما يجيش فى صدورهم من حمية وحماس ، يشحذون به
الهمم . ويشيرون به النفوس . ورددوه فى عملهم اليومى ، وهم على الآبار

يمتحنون الماء ، أو فى الفلوات يسوقون الإبل ، يروحون به عن نفوسهم ،
ويخففون بنغاته الحلوة ووقعه المريح ما يعالجون من نصب وتعب .
وأخذ هذا السجع يتطور نحو الكمال ، حتى استوت فقره رجزاً ، مثل
قول الكاهن (١) .

« مصباحه مصباح ، وقوله صلاح ، ودينه فلاح ، وأمره نجاح ، وقرنه
نطاح ، ذلت له البطاح ، ما ينفع الصباح ، لو وقع الذباح ، وسلت الصفاح ،
ومُوت الرماح ، فكله من وزن مستفعلن مستفعل . وقد أعان السجع على
هذا التطور عاملان : العامل الأول ملائمة هذه الحركات المنتظمة ، التى
يلازمها ويرتبط بها . والعامل الثانى الترفع الذى ينشأ عن طبيعة الموضوعات
التى يعالجها ، وهى أسمى من الواقع المسف ، وأكثر تعلقاً بالخيال الساج ،
والطرب المستخف الراقص ، الذى يدفع إلى نوع من النظام الموسيقى ، فى أدنى
صوره إلى الكمال .

وعند ذلك فطن الناس إلى أصل من أصول النظم أخذوا أنفسهم به ،
وهو تساوى الفقر وتوازيها . ثم راحوا يتسابقون فى حدود هذا القيد الجديد ،
كلما اهتدى أحدهم إلى ضرب من ضروب الوزن مضى فيه ، وسار الناس على
أثره من بعده . حتى استقرت الأوزان بحوراً مختلفة ، على الشكل الذى وصل
إلينا قبيل الإسلام .

ولما تعقد الفن الكلامى ، ووصل إلى هذه الدرجة من الكمال ، لم يعد
كل الناس قادرين عليه ، ولم يعد القادر عليه يستطيع أن يجمع بينه وبين عمله
اليومى ، فاقتصت بالشعر طائفة موهوبة ، وقفت عليه جهدها . وعرف الناس
لهم مكانهم منه ، فأعظموا فيهم قدرتهم عليه . وأصبح الشعر صناعة كسائر
الصناعات ، يتلذذ فيها الناشئ على الأستاذ ، فيلازمه ، ويروض أذنه وحسه
بما يعى ويروى من شعر أستاذه ، حتى تنضج فيه الملكة الشعرية .

كان الشاعر كما قلنا عالم القوم الذى ينفذ ببصيرته إلى مالايرون ؛ ويصوغ بحكمته تجارب الأيام وموعظة الأزمات ، ويتسلط ببيانه على نفوسهم ومشاعرهم ، فيتصرف فيها ، ويذهب بها شتى المذاهب ، غضبا وحماسة ، وصباة وحزنا . وكانت هذه الطبقة تتميز عندهم بشيء من الغرابة تشذبه عن سائر الناس . كانوا يستعينون على الشعر بالتفرد والوحدة . وكان الليل أحب الأوقات إليهم . يعالجون فيه الإنتاج . وقد هدأ الليل ، وسادته وحشة الظلام الرهيب . وربما استجاب الشعر للشاعر وانثال عليه انثيالا عند أول نداء ، وربما هاج وماج . واضطرب اضطراب الوحش الجائع قد حبسه القفص . يلتمس إخراجه من نفسه . فلا يدرّ درّه ، ولا يسيل سيله . ذلك بأن فى الشعر قدرا من الإلهام غير منكور . والنفس الإنسانية غريبة فى ملكاتها ، غامضة فى حالاتها ، وفيما يطرأ عليها من صفاء وإظلام ، وانطلاق وانقباض . فربما صفت النفس الإنسانية فانطلقت فى سخاء ، ونفذت إلى الحقائق فى سهولة ويسر . وربما انقبضت فإذا هى جدبة مظلمة لا تجود بشيء . وهذه حالات لا تجرى على نظام ثابت أو قانون معروف تستجاب به ، فليس يتبها للشاعر أن يصفو ويسخو حين يريد ومتى شاء ، ولا هو حين يصفو ويجود يكون صفاؤه بقدر واحد فى كل حال . وقد يما قال الفرزدق : أنا أشعر الناس عند الناس ، وقد يأتى على حين وقاع ضرس أهون عندي من قول بيت شعر ^(١) . لذلك دخل فى وهم هذه الطائفة من الشعراء أن الشعر يأتى من مصدر خفى ، ويهبط من عالم بعيد . فتصوروا أن وراءهم شياطين يمدونهم بما يقولون . ورسخ هذا الوهم فى نفوسهم ، واستقر فى أذهان الناس ، فأكسبهم عندهم رهبة وجلالا . واختلط فى أذهانهم الشاعر والساحر والكاهن ، فهم جميعا ينتمون إلى دولة الظلام الغامضة الرهيبة ، ومن وراء كل واحد منهم قوة خفية تمدّه وتعينه . وأعان على هذا الاضطراب والخلط

ما كان يجري على ألسن السحرة والكهان من كلام شعري منمق، يصوغون فيه أحكامهم ونبؤاتهم . فالسحر يقوم أول ما يقوم على التأثير في النفوس واسترهابها . والساحر يستعين على إلقاء الرهبة في صدور الناس بالبخور، وبالتلاوات الغريبة التي يسمونها « التعاويذ » أو « العزائم »، يستغل بها ما في الكلام من خواص صوتية ، فيشغل بها الحواس ، ريثما يتفد إلى النفوس ، فيقرفيها ما يشاء ^(١) . وقد كان الشعر عندهم شبيها بهذا في تأثيره ونفاذه .

والقارىء للقرآن وللنصوص العربية القديمة يجد الأدلة الكثيرة على صحة ما نذهب إليه . فالعرب أولا لم يفرقوا بين القرآن والشعر وتعاويذ السحرة . فكان النبي في وهمهم شاعرا وساحرا وكاهنا في آن معا . تشهد بذلك الآيات القرآنية الكثيرة :

« ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا لسحر مبين »
(الأنعام ٧ مكية)

« أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ؟ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين »
(يونس ٢ مكية)

« نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا »
(الإسراء ٤٧ مكية)

« ما يأتهم من ذكر من ربهم إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم . وأسروا النجوى الذين ظلموا : هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأتم تبصرون ؟ قل ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم . بل قالوا أضغاث أحلام . بل افتراء . بل هو شاعر . فإتينا بآية كما أرسل الأولون ،
(الأنبياء ٢-٥ مكية)

« وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ! لولا أنزل

إليه ملك فيكون معه نذيرا؟ أو يلقى إليه كنز؟ أو تكون له جنة يأكل منها؟
وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ، (الفرقان ٧-٨ مكية)

« وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون ، (الشعراء ٢١٠-٢١٢ مكية)

ثم يبيء بعد ذلك بيضع آيات « قل أو نبئكم على من تنزل الشياطين؟ تنزل على كل أفك أثم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظنوا . وسيعلم الذين ظنوا أي منقلب ينقلبون . »

(الشعراء ٢٢١-٢٢٧ مكية) . (١)

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم . وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى . وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين » (سبأ ٤٣ مكية)

« وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، (يس ٦٩-٧٠ مكية)

« وإذا رأوا آية يستسخرون . وقالوا إن هذا إلا سحر مبين »

(الصافات ١٤-١٥ مكية)

« إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ، (الصافات ٣٥-٣٦ مكية)

« وعجبوا أن جاءهم منذر منهم . وقال الكافرون هذا سحر كذاب . أجل الآلهة إلها واحدا؟ إن هذا لشيء عجاب ، (ص ٤-٥ مكية)

(١) يجب ملاحظة أن الآيات ٢٢٤ — ٢٢٧ مدنية والساق لها مكي . فالملكى ينتهي عند الآية « يلقون السمع وأكثرهم كاذبون » . والتالي لذلك مدني . وهو يصور شعراء الجبي الذين يدعون عن الاسلام منتصرين من شعراء قريش الذين يهاجرون الدعوة . والآية الأولى واضحة الدلالة في الإشارة إلى ما كانت تعتقد العرب من أن لكل شاعر شيطانا .

« كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون .
 أتواصوا به ! بل هم قوم طاغون ، (الذاريات ٥٢ — ٥٣ مكية)
 « يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التي كنتم بها تكذبون .
 أفسح هذا ؟ أم أنتم لا تبصرون ، (الطور ١٣ — ١٥ مكية)
 « فذكر فإ أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر
 يتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإني معكم من المتربصين »

(الطور ٢٨ — ٣١ مكية)
 « اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر
 مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم . وكل أمر مستقر »

(القمر ٢ — ٣ مكية)
 « ن ، والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا
 غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون ،
 (القلم ١ — ٦ مكية)
 « إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر . قليلا ما يؤمنون .
 « ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين »

(الحاقة ٤٠ — ٤٣ مكية)
 « إنه لقول رسول كريم . دى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين .
 وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين .
 وما هو بقول شيطان رجيم . فإين تذهبون ! إن هو إلا ذكر للعالمين »
 (التكويد ١٩ — ٢٧ مكية)

كل هذه الآيات واضحة الدلالة فى اختلاط مفهوم الشعر والسحر فى
 أوهام العرب ! وواضحة الدلالة أيضا فى أن العرب لم يفهموا من الشعر إلا أنه
 كلام منمق . يؤثر فى المشاعر ، ويهز النفوس ويحركها . ولذلك سمو القرآن

شعراً، وسموه سحراً . والسحر لغة هو كل ما لطف مأخذه ودق . وسحر كمنع خدع . فالملاحظ في اشتقاق السحر اللغوى ، اخذاع وقوة التأثير ، وهو واضح في الشعر . ويعين على ماذهب إليه قول لبيد ، وقد انقطع عن الشعر بعد إسلامه (في سورة البقرة وآل عمران غناء عن الشعر) والقارىء للسيرة يلاحظ أن النبي كان يتلو القرآن على الذين يعرض عليهم الإسلام فيتأثرون به . فكان العرب يرون أن له من قوة التأثير ما للتعاويد والسحر . وربما فرّوا من سماعه ، وجعلوا أصابعهم في آذانهم ، خشية التأثير به والافزع تحت سلطانه . وهذا هو الطفيل بن عمرو السدوسى . يقدم مكة ورسول الله فيها — وكان رجلاً شريفاً شاعراً لبيبا — فتنستقبله قريش ونصده عن لقاء النبي ، وتحذره من سماعه قائلين « وإنا قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته . وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما دخل علينا . فلا نكلمنه ، ولا نسمع منه شيئاً . ويستمع الرجل إلى نصيحة قريش ، فيجعل في أذنيه قطناً وقد غدا إلى المسجد ، حتى لا يبلغه شيء مما يقول . ولكنه لا يلبث أن يقبل على النبي ، فلا يكاد يتلو عليه القرآن حتى يؤمن ^(١) . وقد وصف العرب النبي بحلاوة المنطق ، والغلبة على قلوب الرجال بما يأتي به ^(٢) ، ولم يفرقوا بين حالة الوحي التي ربما اعترته فيها الغيوبة فتصب وجهه عرقاً ، وبين ما يصيب السحرة والسكان من مثل هذه الحالات . وهذا هو عتبة بن ربيعة ، يلقي النبي فيقول له : « يا أباي يقول : « وإن كان هذا الذى يأتىك ريثاً لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا ، حتى نبرئك منه . فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه . وهذا هو الرسول يستمع إليه ، حتى إذا فرغ من حديثه تلا عليه : (بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم

(١) السيرة ٢ : ٢٢

(٢) السيرة ٢ : ١٢٦

كتاب فصّلت آياته قرآنًا عربيًّا لقوم يعلمون) ويمضى فيها يقرأها ، حتى إذا بلغ السجدة سجد ، وعتبة ينصت إليه كلما خوذ ، وقد ألقى يديه خلف ظهره ، معتمدا عليهما ، يسمع منه . فإذا عاد إلى قومه قالوا له : « سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ^(١) » .

وأمام ما ذهب إليه العرب من أن القرآن شعر ، اضطر النبي أن يعدل عن الشعر ، لا يقوله ولا يرويه . وإذا رواه خالف بينه ، وقدم فيه وآخر ، حتى يخل بوزنه . فهو إذا روى مثلاً قول ابن عباس ^(٢) :

فأصبح نهي ونهب العبيد بين عينيه والأقرع

يقول : فأصبح نهي ونهب العبيد بين الأقرع وعينه

وإذا ترنم مع المسلمين في بناء مسجد المدينة قال : « لا عيش إلا عيش الآخرة ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار » ، وهم يقولون : « الأنصار والمهاجرة ^(٣) » .

وقد كان فن الهجاء من أكثر العنون الشعرية ارتباطاً بالسحر في أوهام العرب . ذلك لأن الخفاء والغموض اللذين لازما فن الشعر . كانا أليق بالشر ، وأدنى أن يبعثا الرهبة والخوف في قلوب الناس . فقد كانت العرب تزعم أن لكل شاعر رثياً من الجن يسمونه تابعا أو هاجسا ، وذلك واضح في قصصهم وفي شعرهم ، وواضح في القرآن أيضا .

قال عمرو بن كلثوم :

وقد هرت كلاب الجن منا وشذبنا قتادة من يلينا

وقال أبو النجم في مراجعة العجاج من أرجوزته (تذكر القلب وجهلا ما ذكر) :

(١) السيرة ١ : ٣١٣ - ٣١٤ .

(٢) السيرة ٤ : ١٣٧ .

(٣) السيرة ٢ : ١٤٢ .

إني وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر
وقال الأعشى ، في هجاء جهنم ، يذكر (مسحلا) شيطانه . وما يهدي له
من شعر :

فلما رأيت الناس بالشر أقبلوا وثابوا إلينا من فصيح وأعجم
وصيح علينا بالسياط وبالقنا إلى غاية مرفوعة عند موسم
دعوت خليل مسحلا ودعوا له جهنم جدعا للهجين المذم
حباني أخى الجنى نفسى فداؤه بأفيح جياش العشيات خضرم
وقال في موضع آخر يذكر شيطانه :
وما كنت شاحراً دأً ولكن حسبتي إذا مسحل سدّى لى القول أنطق
شريكان فيما بيننا من هواة صفيان جنى وإنس موفق
يقول فلا أعبي لشيء أقبله كفاني لا عى ولا هو أخرق
وقال سويد بن أبي كاهل الشكري :

فرا منى هاربا شيطانه حيث لا يعطى ولا شيئا منع
وأنا صاحب ذو غيث زفيان عند إنفاد القرع
قال ليك وما استصرخته حاقرا للناس قوال القذع
ذو عباب زبد آذيه خَمِط التيار يرمى بالقلع
زغربى مستعز بحره ليس للباهر فيه مُنْطَلَع
وجرير يهجو الراعى وابنه بالقصيدة المشهورة (أقلّ اللوم عاذن والعتابا)
التي يقول فيها :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا
فيرحل الراعى وابنه ، حتى إذا وصل إلى قومه ، وجد الشعر قد سبقه
إليهم فيما يقول الرواة ، فيقسم الراعى ما بلّخها إنس . وإن جرير لأشياء
من الجن . ويتشائم قومه به وبابنه (١) .

ووجه الشبه بين السحر والهجاء واضح . فالسحر كلمات تقال فيصيب شرها المسحور، وينصب ماتضمنت من لعنة على المقصود بالإيذاء، والهجاء كذلك كلمات تقال فيها معنى الشر واستمطار اللعنة . والساحر يتوسل إلى شياطينه وأرواحه الشريرة أن تعينه على إلحاق الأذى بالمسحور، والهجاء يستلهم شيطانه الهجاء ويستعينها على المهجو . ولذلك غلب ذكر شياطين الشعر في الهجاء بنوع خاص كما هو واضح في الأمثلة التي قدمناها . ولأمر ما نسب الناس هذه القوة الخفية التي تمد الشاعر بالشعر للشروم ينسبونها للخير، فقالوا (شيطان الشعر) ولم يقولوا (ربة الشعر) كما تعود اليونان أن يقولوا .

وقد كان الشاعر إذا هجا ربحاخرج على الناس في زى غريب غير مألوف، وبالغ في مسخ شكله وتشويه خلقته . قال الرافعي في تاريخ الأدب (١) نقلا عن أمالي المرتضى ١ : ١٣٥ (وكان القيسيون قد صدوا وجه النعان عنهم . فأرادوا تقديم ليبيد ليرجز بالربيع بن زياد رجزا مؤلما مضى — وكان هو الذي صرف الملك بالظعن فيهم وذكروا معابهم — فخلقوا رأسه ، وتركوا له ذؤابتين ، وألبسوه حلة . وغدوا به معهم فدخلوا على النعان ، فقام وقد دهن أحدشقي رأسه وأرخى إزاره وانتعل نعلًا واحدة . قال : وكذلك كانت الشعراء تفعل في الجاهلية إذا أرادت الهجاء (٢) .

ونقل الرافعي كذلك عن الأغاني ج ٤ : ٣ : وكان زى حسان بن ثابت في خضابه فكان يلوث شاربيه وعنقفته بالخناء دون سائر لحيته ، فيبدول أول وهلة كأنه أسد والغ في الدم . وروى الألوسى في بلوغ الأرب (٣) (والشاعر منهم كان إذا أراد الهجاء دهن إحدى شقي رأسه وأرخى إزاره وانتعل نعلًا واحدة) . لذلك كان العرب شديدي الخوف من الهجاء . وكانوا يرون بيت الهجاء متضمنًا قوة خفية ، ولعنة تصيب من تحل به . يقول مزرد بن ضرار الديباني

(١) تاريخ الأدب للرامى ٣ : ٢٣

(٢) وقد نقل نكلسون نفس الخبر في كتابه (تاريخ الأدب العربي) .

(٣) بلوغ الأرب ٣ : ٤٠٧

(أخو الشماخ بن ضرار) في رجل من بني عبد الله بن غطفان خدع غلاما من قومه فاشترى إبله بغم - وهو هنا يندد بخدعة الرجل ، طالبا إليه أن يرد الإبل ، وقد صورها مصابة بالجرب وبمختلف الأدوية ، وكأنه يريد أن يشأماها وينزل بها اللعنة والبول :

فيا آل ثوب إنما ذوودُ خالد كنار اللظى لاخير في ذو دخالد^(١)
 بهن دروء من نَحاز وغدة لها ذربات كاللدى النواهد^(٢)
 جربن فما يَهْتَنُّن إلا بغَلقة عطين وأبوال النساء القواعد^(٣)
 فلم أر رزءا مثله إذ أتاكم ولا مثل ما يهدى هدية شاكد^(٤)

ويؤيد ذلك ما روى صاحب السيرة ، من أن أبا سفيان بن حرب ألقى ابنه معاوية أرضا ، فرقا من دعوة خبيب ، حين قال وقد أخذوه ليصلبوه « اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحدا » ، وقد كانت العرب تزعم أن الرجل إذا دعى عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه^(٥) . وشيبه بهذا ماروى ابن الأثير في يوم الكلاب الثاني ، من أن بني تميم أسروا أحد شعراء بلحارث ، فلما أخذوه ليقتلوه شدوا لسانه قبل قتله لئلا يهجوهم^(٦) . وكان الشاعر ربما يعجز عن دفع مظلمة ، أورد حق غصب منه ، فلا يستعين على ذلك إلا بلسانه . فيهاب الناس هجاء أكثر مما يخافون سيف الفاتك الجبار . وهذا هو زهير تنهب إبله ، فلا يجد في نفسه القوة على استردادها ، فيهدد بالهجاء ، وكأنه يهدد بشيء خطير :

لئن حملت بجو من بني أسد في دين عمرو وحالت بيننا فدك
 ليأتينك مني منطلق قدع باق كما دنس القبطية الودك

(١) اللود الجماعة القليلة من الإبل .

(٢) الدرء جمع درء بفتح فسكون وهو التواء . النحاز داء يأخذ الدواب والإبل في رثاتها فتسعل سعالا شديدا . الغدة صاعون الإبل . الذربات جمع ذربة بفتح فسكون وهو رأس الخراج .

(٣) جربن أصابع الحرب . يهتن يطلبن . الغلقة شجر يدعى به . عطين معطون لأنها لا يدعى بها إلا لامد عطفا .

(٤) الشاكد المهدى والتفكد الإهداء .

(٦) ابن الأثير ١ : ٣٨١

(٥) السيرة ٣ : ١٨٢

الشاعر والقبيلة

لم ينزل أمر الشعراء يكبر في عيون الناس ويعظم في نفوسهم ، حتى احتلوا من قبائلهم مكاناً ممتازاً ، وصار الناس يقدون على القبيلة مهنيين إذا نبغ فيها الشاعر وذهب صيته ^(١) . وأصبح الشعراء جزءاً مهماً من النظام القبلي ، يتغنون بمفاخر القبيلة ، ويمجدون بطولتها في حروبها ، ومآثرها في سلمها ، ويصورون آمالها ومظامعها ، وما بينها وبين جيرانها من حلف أو عدا . يهجمون هذه ويمجدون تلك . وأفراد القبيلة جميعاً من ورأهم يحفظون هذا الشعر ويزيدونه ، مفاخرين به ومكاثرين . وربما عظم أمر الشاعر في قومه ، حتى يصبح زعيمهم الذي يشير عليهم بالرأى فلا يخالفون ولا يشذون عنه . يقول ابن هشام في إسلام الأنصار ^(٢) : « فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف — وتلك أوس الله ، وهم من الأوس بن حارثة — وذلك أنه كان فيه أبو قيس بن الأسلت — وهو عيني — وكان شاعراً لهم قائداً ، يستمعون منه ويضعونه ، فوقف بهم عن الإسلام » . ويقول ابن الأثير إن زهير بن جناب الكلبي كان أحد من اجتمعت عليه قضاة ، وكان يدعى الكاهن لصحة رأيه ، ثم روى له شعراً في الحماسة ^(٣) . والشعراء الذين سادوا في قبائلهم كثير : منهم الكلجة العرني كان أحد فرسان بني تميم وساداتها ، والجميع أحد فرسان يوم جلبة ، وبشامة بن عمرو خال زهير بن أبي سلمى ، كان أحزم الناس رأياً ، وكانت غطفان تستشيريه إذا أرادت الغزو ، والحصين بن الحجاج المري ، كان سبد قومه وذا رأيهم وقائدهم ورائدهم ، وهو من أوفياء

(١) النعمدة ٩ : ٤٩

(٢) التميمية ٢ : ٨٠

(٣) ابن الأثير ٩ : ٢٩٩

العرب ؛ وسلامة بن جندل ، كان من فرسان العرب المعدودين ؛ وعمر بن
الآثم السعدي ، كان من سادات قومه ، وكان خطيباً شاعراً وفد على النبي
في وفد تميم ؛ وذو الإصبع العدواني شاعر فارس ، وهو أحد الحكماء
المشهورين ؛ وعبد يغوث بن وقاص الحارثي كان فارساً ، وكان سيد قومه
بنى الحرث بن كعب وقائدهم في يوم الكلاب الثاني إلى بني تميم ، وهو من
أهل بيت معروف بالشعر في الجاهلية والإسلام ؛ والحرث بن ولة الجرمي ،
كان هو وأبوه ولة من فرسان قضاة وأنجادها وأعلامها وشعرائها ؛
وعوف بن الأحوص ، كان أبوه الأحوص سيداً في قومه ، وذو رأيهم ،
شهد يوم جبله وهو شيخ كبير ، فكان يدبر الناس ، وكان ابنه عوف
من زعمائهم وقوادهم ؛ والمقرئان الأكبر والأصغر ، كان لهما موقع في
بكر بن وائل وحروبها مع بني تغلب ؛ وأبو قيس بن الأسلت الأنصاري ،
كانت الأوس قد أسندت أمرها إليه وجعلته رئيساً عليها ؛ والحرث بن
ظالم المري ، كان من أشرف بني مرة وساداتهم ، وكان أفتك الناس
وأشجعهم ؛ وضمرة بن ضمرة النشلي كان خطيباً فارساً شاعراً شريفاً
وسيداً ، وكان أحد حكام بني تميم المشهورين ؛ وسنان بن أبي حارثة
المري كان فارساً شريفاً ، وكان رأس غطفان وبني مرة ، وابنه هرم من
أجواد العرب ؛ وعامر بن الطفيل كان شاعراً سيداً . وغير هؤلاء كثير .
ونحن لا نقصد إلى الاستقصاء ، وإنما أكثرنا للنزيل ما استقر في أوهام
كثير من الناس من أن الشعر كان يضع من قدر الأشراف ، كما يروى في
أخبار امرئ القيس والنابعة . فالواقع أن الشاعر كان عزيزاً في قومه منيعاً ،
ما عاش مستغنياً كريماً يضع لسانه في خدمة قبيلته . وإنما كان يسقط قدره بينهم
إذا احتاج لغيره ، وقبل على شعره الهات ، شأنه في ذلك شأن الناس جميعاً
إذا مدوا أيديهم للسؤال . ومعظم الشعراء الذين ذكرناهم فيمن سادوا مقلون^(١) .

لأن شعرهم محدود في نطاق القبيلة وما يتصل بها . روى الجاحظ عن أبي عمرو بن العلاء : كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم . ويفخّم شأنهم . ويهوّل على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم . ويخوف من كثرة عددهم ، فيهابهم شاعر غيرهم ويراقب شعرهم . فلما كثّر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوق ، وتسرعوا إلى أعراض الناس . صار الخطيب عندهم فوق الشاعر^(١) . وأصدق ما يصور مكان الشاعر من القبيلة قول هذبة بن الخشرم :

وإني من قضاة من يكدها أكده وهي مني في أمان
ولست بشاعر السفساف منهم ولكن مدره الحرب العوان
سأهجو من هجاهم من سواهم وأعرض منهم عن هجائي
وقول عبيد بن الأبرص :

إذا كنت لم تعبأ برأى ولم تطع لنصح ولا تصغى إلى قول مرشد
فلا تتق ذم العشيرة كلها وتدفع عنها باللسان وباليد
وتصفح عن ذى جهلها وتحوض ونقمع عنها نخوة المتهدد
وتنزل منها بالمكان الذي به يرى الفضل في الدنيا على المتحمّد
فأست وإن عللت نفسك بالمني بذى سودد باد ولا كرب سيّد

وكانت القبائل تعتمد في حروبها على الشعر اعتمادها على السلاح . ولم يكن الهجاء أخف وقعا على الأعداء من وقع الرماح ، كما يقول عبد القيس ابن خفاف البرجمي :

وأصبحت أعددت للنائب — ات عرضا بريئا وعضبا صقيلا^(٢)
ووقع لسان كحد السنان ورخا طويل القناة عسولا^(٣)

(١) البيان والتبيين ١ : ١٧٠

(٢) المصّب السيف .

(٣) عسولا كثير الاضطراب جبهة ودهابا .

العرب ؛ وسلامة بن جندل ، كان من فرسان العرب المعدودين ؛ وعمر بن الأَهم السعدى ، كان من سادات قومه ، وكان خطيباً شاعراً وفد على النبي في وفد تميم ؛ وذو الإصبع العدواني شاعر فارس ، وهو أحد الحكماء المشهورين ؛ وعبد يغوث بن وقاص الحارثى كان فارساً ، وكان سيد قومه بني الحرث بن كعب وقائدهم في يوم الكلاب الثاني إلى بني تميم . وهو من أهل بيت معروف بالشعر في الجاهلية والإسلام ؛ والحرث بن ولة الجرمي ، كان هو وأبوه ولة من فرسان قضاة وأنجاده وأعلامها وشعرائها ؛ وعوف بن الأحوص ، كان أبوه الأحوص سيداً في قومه ، وذا رأيهم ، شهد يوم جلبة وهو شيخ كبير ، فكان يدبر الناس ، وكان ابنه عوف من زعمائهم وقوادهم ؛ والمرقشان الأكبر والأصغر ، كان لهما موقع في بكر بن وائل وحروبها مع بني تغلب ؛ وأبو قيس بن الأسلت الأنصارى ، كانت الأوس قد أسندت أمرها إليه وجعلته رئيساً عليها ؛ والحرث بن ظالم المري ، كان من أشرف بني مرة وساداتهم ، وكان أفك الناس وأشجعهم ؛ وضمرة بن ضمرة النشلي كان خطيباً فارساً شاعراً شريفاً وسيداً . وكان أحد حكام بني تميم المشهورين ؛ وسنان بن أبي حارثة المري كان فارساً شريفاً ، وكان رأس غطفان وبني مرة ، وابنه هرم من أجواد العرب ؛ وعامر بن الطفيل كان شاعراً سيداً . وغير هؤلاء كثير . ونحن لا نقصد إلى الاستقصاء ، وإنما أكثرنا للنزيل ما استقر في أوهام كثير من الناس من أن الشعر كان يضع من قدر الأشراف ، كما يروى في أخبار امرئ القيس والنابعة . فالواقع أن الشاعر كان عزيزاً في قومه منيعاً ، ما عاش مستغنياً كريماً يضع لسانه في خدمة قبيلته . وإنما كان يسقط قدره بينهم إذا احتاج لغيره . وقبل على شعره الهبات ، شأنه في ذلك شأن الناس جميعاً إذا مدوا أيديهم للسؤال . ومعظم الشعراء الذين ذكرناهم فيمن سادوا مقلون^(١) .

لأن شعرهم محدود في نطاق القبيلة وما يتصل بها . روى الجاحظ عن أبي عمرو بن العلاء : كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ، ويفخّم شأنهم ، ويهوّل على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم . ويخوف من كثرة عددهم ، فيهابهم شاعر غيرهم ويراقب شعرهم . فلما كثّر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوق ، وتسرعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر^(١) . وأصدق ما يصور مكان الشاعر من القبيلة قول هذبة بن الخشرم :

وإني من قضاة من يكدها أكده وهي مني في أمان
ولست بشاعر السفساف منهم ولكن مدره الحرب العوان
سأهجو من هجّاهم من سواهم وأعرض منهم عن هجّائي
وقول عبيد بن الأبرص :

إذا كنت لم تعبأ برأى ولم تطع لنصح ولا تصغى إلى قول مرشد
فلا تتق ذم العشيرة كلها وتدفع عنها باللسان وباليد
وتصفح عن ذى جهلها وتحوض وتقمع عنها نخوة المهتدد
وتنزل منها بالمكان الذى به يرى الفضل في الدنيا على المتحمد
فاست وإن عللت نفسك بالمنى بذى سودد باد ولا كرب سيّد

وكانت القبائل تعتمد في حروبها على "الشعر اعتمادها على السلاح . ولم يكن الهجاء أخف وقعا على الأعداء من وقع الرماح ، كما يقول عبد القيس ابن خفاف البرجمي :

وأصبحت أعددت للنائب — ات عرضا بريئا وعضبا صقيلا^(٢)
ووقع لسان كحد السنان ورخا طويل القناة عسولا^(٣)

(١) البيان والتبيين ١ : ١٧٠

(٢) المعقب السيف .

(٣) عسولا كثير الاضطراب جينة ودهابا .

القيم الأخلاقية والاجتماعية عند العرب في الجاهلية

لم تكن الصحراء العربية سخية ولا رحيمة بأهلها ، ولم يكن أهلها رحماء بينهم ولا متنافسين . فالحياة تقوم على التنافس الشديد ، والعنف الذى لا هوادة فيه ، والقسوة التى لاتلين . والقارىء لشعرهم وآثارهم يستطيع أن يرى بوضوح أن القوة فى كل صورها هى المثل الأعلى الوحيد الذى آمنوا به وحرصوا عليه . فكل ما نالته يد القوى فهو حق له . الفضيلة عندهم هى الرجولة ، والشجاعة والإقدام ، وركوب المخاطر والأهوال ، والتجديد للمكاره والخطوب . للقوى صفوة الحياة ومتاعها ، وللضعيف الفضل والعفو . فالضعف فى كل مظاهره هى الجريرة الوحيدة التى يعير بها الرجل ، ويذوق من جرائها الهون والنكال . لم يكن للخيرين الوادعين مكان . وإنما كان المكان الأول للظالم الغاشم ، الذى ينتزع نصيبه من معترك الحياة جريئاً معتدياً ، ويستخلصه عزيزاً مقتدراً .

يقول زهير :

ومن لا يذُدُّ عن حوضه بسلاحه يهدمُ ومن لا يظلم الناس يُظلم
ويقول طرفه :

فلو كنتُ وغلاً فى الرجال لضرتنى عداوة ذى الأصحاب والمتوحد
ولكننى نفى عنى الرجال جرائق عليهم وإقدامى وصدقى ومحتدى
ويقول سعد بن ناشب :

تفتننى فيما ترى من شراستى وشدة نفسى أم سعد وما تدرى
فقلت لها إن الكريم وإن حلا ليلى على حال أمر من الصبر
وفى اللين ضعف والشراسة هيبة ومن لم يهَبْ يحمل على مركب وعر

وما بي على من لان لي من فظاظة ولكنني فظ أ بي على القسر^(١)
أقيم صغاذى الميل حتى أرده وأخطمه حتى يعود إلى القدر^(٢)
فإن تعذلي تعذلي بي مُمرزاً كريم ثا الإعسار مشترَك اليسر^(٣)
إذا هم ألقى بين عينيه عزمة وصمم تصميم السريحي ذي الأثر^(٤)
يغير النفر القوى على النفر الضعيف، فيجليه عن الماء، ويغصبه ماله وإبله
ومتاعه، ويخلفه على نسائه. كما يقول معاوية بن مالك :

إذا نزل السحاب بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا
ويقول مجمّع بن هلال :

وعائرة يوم الهيمنى^(٥) رأيتها وقد ضمها من داخل القلب مفزع
لها غاكُل في الصدر ليس يبارح شجي نَشَب والعين بالماء تدمع
تقول وقد أفردتها من حليلها تعست كما أتعستى يا مُجمّع
فقلت لها بل تعس أم مجاشع وقومك حتى خدك اليوم أضرع^(٦)
وربما أعوزهم النهب، فأغاروا على إخوتهم وأبناء عمومتهم. كما يقول القطامي :

وكن إذا أغرن على جناب وأعوزهن نهب حيث كانا
أغرن من الضباب على حُلُول وضبة إنه من حان حانا
وأحيانا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا
ويلقى الرجل الرجل، فيسلبه إبله ومتاعه. ويرد القوى الماء فيشرب
صفوه، وينتظر الضعيف خلل المورد، قانعا بالطين والكدر. كما يقول عمرو بن كلثوم :

(١) القسر القهر على كره .

(٢) أقيم صغاذى الميل أى أقيم عوجه . حلم الدابة أمسكها بالخصام يقصد أنه يكبح جماحه .

(٣) العدل اللوم والتعنيف . الشا الخبر . يقول إن اهتفرت حسنت سيرى ولم يرو الناس عنى إلا كل
خير، وإن أثريت أشركت الناس في ثرائى ولم أفرد به

(٤) السريحي السيف . الأثر فرند السيف .

(٥) الهيمى اسم اليوم الذى أسرت فيه هذه المرأة

(٦) يقول لها بئس تعس قومك (مجاشع) وتعت الأم التى ولنتهم . لأنهم صبيوك وتركوك

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدراً وطيناً
وكما يقول جرير :

إن الزحام لغيركم فتحنوا ورد العشيّ إليه يخلو المنهل
ويقضى القوى الأمر، والضعيف مخلف لا تصنى له أذن، ولا يقام
لرأيه وزن، كما يقول الأخطل :

مخلفون ويقضى الناس أمرهم وهم بغيب وفي عياء ما شعروا
وكما يقول جرير :

الظاعنون على العياء إن ظعنوا والسائلون بظهر الغيب ما الخبر
وهذا هو قُرَيْط بن أَنَيْف، لا يعير قومه إلا الحلم والإحسان، وأنهم ليسوا
أصحاب شر وعدوان :

لكن قومي وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشرّ في شيء وإن هاناً
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحساناً
كان ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس إنساناً
وإنما يريد قُرَيْط من قومه أن يكونوا كالذين وصفهم بقوله :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زَرَافَاتٍ ووحداناً
لا يسألون أخام حين يندبهم للنائبات على ما قال برهاناً

قال عبد الملك بن مروان لجعيل بن علقمة الثعلبي : ما مبلغ عزمك ؟ قال :
لا يُطَمَعُ فينا ولا يُؤْمَنُ . قال فما مبلغ حنماظكم ؟ قال يدفع الرجل منا
عمن استجار به من غير قومه، كدفاعه عن نفسه . قال عبد الملك مثلك من
يصف قومه . وقال عبد الملك بن مروان لابن مُسْتَطَاع العنبري أخبرني
عن مالك بن مسمع . قال لو غضب مالك لغضب معه مائة ألف سيف ،
لا يسألونه في أي شيء غضب (١)

كان تميم بن أبي بن مقبل يهاجى النجاشى الشاعر ، فهجاه النجاشى فأوجعه ،
فاستعدى عليه عمر بن الخطاب . فاستدعاه عمر فسأله : يانجاشى ما قات له ؟
قال : يا أمير المؤمنين قلت ما لا أرى فيه عليه بأساً . وأنشده :

إذا الله جازى أهل لؤم بذمة فجازى بنى العجلان رهط ابن مقبل
فقال عمر : إن كان مظلوماً استجيب له . وإن لم يكن مظلوماً لم يستجب له
قالوا : وقد قال أيضاً :

قُبَيْلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بَذْمَةً وَلَا يَظْلُمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ
فقال عمر : ليت آل الخطاب كذلك .
قالوا : فإنه قال :

وَلَا يَرُدُّونَ الْمَاءَ إِلَّا عَشِيَةً إِذَا صَدَرَ الْوُرَادُ عَنْ كُلِّ مَنَهْلٍ
قال عمر : ذلك أقل للزحام .
قالوا : فإنه قال :

تَعَاثَفَ الْكِلَابُ الضَّارِيَاتِ لِحُرْمَتِهِمْ وَتَأْكُلُ مِنْ كَعْبِ بْنِ عَوْفٍ وَنَهْشَلٍ
فقال عمر : يكفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه .
قالوا : فإنه قال :

وَمَا سَمَى الْعَجْلَانَ إِلَّا لِقَوْلِهِ خَذَا الْقَعَصْبُ وَاحْلَبَ أَيُّهَا الْعَبْدُ وَاجْعَلْ
فقال عمر : كائنا عبد ، وخير القوم خادمهم .
قال تميم : فسله يا أمير المؤمنين عن قوله :

أُولَئِكَ إِخْوَانُ اللَّعِينِ وَأُسُوءَ الْهَجِينِ وَرَهْطُ الْوَاهِنِ الْمُنْتَزِلِ
فقال عمر : أما هذا فلا أعذر لك عليه . وجلده ثم حبسه .

فالعربُ لا يحقرون الظالم لظلمه ، ولكنهم يعيرون المظلوم لضعفه .
فهذا رجل ينتصر لجاره له نهبت إبله ، ثم يضعف عن حمايته ، إذ يعدو عليه
المغتصب بقومه ، ويسترد ما اغتصب ، فيعيره الشاعر قائلاً :

أَغْرَكَ يَوْمًا أَنْ يَقَالَ ابْنُ دَارِمٍ وَتُقَصِّى كَمَا يُقَصِّى مِنَ الْبُرْكِ أَجْرِبُ
قضى فيكم قيسٌ بما الحقُّ غيرُهُ كذلك يخزوك العزيز المُدْرَبُ

فأدّ إلى قيس بن حسان ذو دَه وما نيل منك التمر بل هو أطيب
فإن لاتصل رحم ابن قيس ابن مرثد يعلمك وصل الرحيم غضب مجرب
هؤلاء قوم لا يسألون الضارب لم ضربت ، ولكنهم يسألون الباكي لم
بكيت . وهم لا ينظرون إلى المغتصب هذه النظرة المبهينة التي نرمق بها اللص
وقاطع الطريق . ولكنهم ينظرون إليه نظرة البطولة والإعجاب ، ما دام
يسعى جهرة ، ولا يدب ديبيا ، ويتستر متزاورا .

ولم يكن يستغيث بالسلطان إلا الضعيف العاجز . أما القوى فهو كما
يقول الشنمئذَر الحارثي :

فلسنا كمن كنتم تصيرون سلةً فنقبل ضيما أو نهكسَمَ قاضيا (١)
ولكن حكم السيف فينا مُسلَّطٌ فرضى إذا ما أصبح السيف راضيا
وكما يقول عروة المرادي :

أرجل جُمِتي وأجر ذيلي وتحمل شكنتي أفن كيت (٢)
وأمشي في سراة بني غطيف إذا ما ساءني أمر أبديت

وإن أحدهم ليرفض حكم الملوك . وهذا هو شبيب بن عوانه الطائي يقول :
قضى بيننا مروان أمس قضية فما زادنا مروان إلا تنائيا
فلو كنت بالأرض الفضاء لعففتها ولكن أتت أبوابه من ورائيا
وقد صورت جماعة الصعاليك المثل العربية العليا في ذلك الوقت أصدق
تصوير . فعروة بن الورد لا يتصور الفضيلة والمجد إلا في ركوب المخاطر
والأهوال ، ولا يرى الحياة الهادئة الوادعة خليقة بالرجال .

لحي الله صعلوكا إذا جنَّ ليله مضى في المشاش الفأكل مجزَر (٣)
يعد الغنى من دهره كل ليلة أصاب قراها من صديق مُيسَّر
ينام عشاء ثم يصبح ناعساً يحسُّ الحصى عن جنبه المتعفر

(٢) الشكة السلاح .

(١) سلة أى سرعة في تنثر وخفاء .

(٣) المشاش الأرض الوعرة . يذم الرجل الذي كل منه الطعام ، ركب الوعر باحثاً عن مواضع الذبح .

يعين نساء الحى ما يستعينه
ولكن صعلوكاً صحيفه وجهه
مطلاً على أعدائه يزجرونه
إذا بعدوا لا يأمنون اقترابه
فذلك إن يلق المنية يلقها
حميداً وإن يستغن يوماً فأجدر

ولست حياة الرجال عند تأبطشراً إلا تلساً للقتال والنزال، واضطراباً
فى الصحارى والقفار، ويقظة مستمرة فى الليل والنهار. إن نامت العينان
فالقلب يقظان. فالرجل العظيم :

قليل غرار النوم أكبر هممه
نماصعه كل يشجع قومه
قليل ادخار الزاد إلا تعاة
يبيت يمعنى الوحش حتى ألفنه
على غيرة أو نهزة من مكاس
ومن يغر بالأعداء لا بد أنه
وإنى وإن عمرت أعلم أننى

(١) نخسر المعنى وكذلك الطليح يقول إنه لا عمل له طول يوم إلا خدمة النساء والجلوس
بجوارهن. فلا يأتى النساء إلا وقد أنهكت النعب.

(٢) القابس الذى يهتس النار، والمتور الذى يطلبها من بعيد. يصف وجهه بالتهلل والبريق
الذى يصور الحضاء والعزم.

(٣) المنج والصفح والوعد أمامه فداح لأنصب لها فى الميسر، وإنما توضع ليكثر بها القداح.
وهو يشبه زجر الناس لهذا الصعلوك يرجز اللاعبين لهذا القدح الذى لاحظ له، لا يريد أحد أن يكون
من نصيبه.

(٤) الكى المتكى بالسلاح أو المندر به. المسفع المتغير لون الوجه من كثرة الأسفار.

(٥) يماصه بجالده وينارله.

(٦) الشرسوف مقاطع الأخلاق الى تشرف على البط. المعاد الأماماء. يصفه بالنعافة وبالتجلد
على الجوع.

(٧) المعنى مكان الإقامة من غنى بالمكان أقام به. يقول إن الوحوش قد أفنته لطول صحبته لها.

(٨) نفرة النفلة والنهزة الفرصة. وتسمع ولى أنه قد نحل ومضى معظمه.

أما أبو النشاش فهو يفتخر بالصوصية ، ويعجب من الفتي يرضى بالفقر ،
والمغائم مبذولة للمغامر ، ومن راكب ليل يخفق ، وفي سواده عون لكل فاتك .
ونائية الأرجاء طامسة الصوى خدّتْ بأبي النشاش فيهاركائبه^(١)
ليكسب مجداً أو ليدرك منما جزيلاً وهذا الدهر جَمَّ عجائبه
وسائلة ، بالغيب غنى وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذهبها ؟
فلم أر مثل الفقر ضاجعه الفتي ولا كسواد الليل أخفق طالبه
فالعربى يعيش للنزال والقتال ، ويحارب من أجل الحياة . المكان الأول
للفارس المقاتل ، وللسوقة حياة الصناعة والزراعة المستقرة الآمنة . التي
لا تكلف صاحبها مغامرة ولا زحاما . وهذا هو الأعشى يعير بإدأ أنهم أهل
زرع فيقول :

لسنا كمن جعلتْ إِيادَهُ دارَهَا تكريت تنظرُ حبَّها أن يحصدا
قوما يعالج قولا أبناءهم وسلاسلا أجداً وبابا مؤصدا
وعير جرير الفرزدق أن جده كان حداداً في كل مكان من النقائص .
وعير الفرزدق آل الملب أنهم يمنية أصحاب سفن وتجارة .

وكم لك يا ابن دُحمة من قريب مع التَّبَّانِ يُنسَب والزَّيَّار^(٢)
يظل يدافع الأقالع منها بملتزم السفينة والحِيتار^(٣)
إذا نُسبتْ عُمان وجدتَ فيها مذاهب للسفين وللصرارى^(٤)
أولئك معشر أقعوا جميعا على لؤم المناقب والنَّسْجَار

(١) الصوى الأعلام من الأحجار توضع على الطريق في الصحراء ليهتدى بها السالك إلى الطريق .
يقول إن هذه الصحراء مخيفة لأن الرمال قد طمست أعلامها .

(٢) دحمة أم يزيد بن الملب . التبان سراويل قصيرة يلبسها التوبة لانتشر إلا العورة . الزيار
أقلس وهو جبل السفينة .

(٣) الحيتار من كل شيء حروفه وما استدار به وحلقة الدبر . يقول إنه يدافع الأقالع بهذا الموضع
من جسمه .

(٤) الصرارى الملاح .

واقترع الأخنس بن شهاب التغلبي بأن قومه لا يركنون إلى المدن كما يفعل المستضعفون ، ولكنهم ينتقلون في الصحراء ، يفرضون أنفسهم على منازل الغيث بقوتهم ، تحيط بهم خيلهم ، يكرمونها فلا يسقونها إلا اللبن في الصباح وفي المساء .

ونحن أناس لاجاز بأرضنا مع الغيث ما نلثني ومن هو غالب
تري رائدات الخيل حول بيوتنا كعزى الحجاز أعجزتها الزرائب
فيُغيبقن أحلابا ويصبحن مثلها فمن التعداد قب شواذب^(١)
وإنها لمفخرة للعربي أى مفخرة أن يموت على فرسه محاربا . وأبغض
شيء إلى نفسه أن يموت على فراشه . يقول السموءل بن عاديا :

وما مات منا سيد حثف أنفه ولا طلل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظُّبَات نفوسنا وليست على غير الظُّبَات تسيل
وننكر أن شئنا على الناس قوهم ولا ينكرون القول حين نقول
من أجل ذلك كان أعز شيء على العربي فرسه وسلاحه . وإن أحدهم ليطعم
فرسه ، ويبيع عياله . وهذا رجل من تميم يتحدث عن فرسه (سكاب) فيقول :
أبيت اللعن أن سكاب علق نفيس لاتعار ولا تباع
مُفْدَاة مكرمة علينا يجاع لها العيال ولا تجاع
بل لقد بلغ من إعزاز العربي لفرسه أن يفضلها على زوجه . فالأعرج
المعنى يخاطب زوجته حين لامته في أن سقى فرسه (الورد) بعض اللبن ،
فيقول : إن فرسه يفضلها ساعة الفزع ، فهي تجرى نخيب الفؤاد ، حاسر الرأس ،
قد أخذ منها الفزع . أما هو فيجده طوع أمره ميسر أي يجزيه ما أسلف عنده
وما صنع له :

أرى أم سهل ما تزال تفسجج تلوم وما أدري علام توَجَّعُ
تلوم على أن أمنح الورد لقحة وما تستوى والورد ساعة تفرع^(٢)

(١) القب جمع أقب وهو دقيق الخصر . الشواذب حم شاذب وهو الضامر .

(٢) اللقحة الناقة اتى بها ابن والورد إمام فرسه .

إذا هي قامت حاسراً أمْثُـمَـعَةً نَحِيبَ الْفُؤَادِ رَأْسُهَا مَا يُقْنَعُ (١)
وقت إليه باللجام مَيْسَـرَا هنالك يَجْزِينِي بما كنت أصنع
ومن أجل ذلك أحب العرب كثرة النسل واعتزوا به ، فكانت المرأة أكرم
ما تكون على زوجها إذا كثرت نسلها من البنين . فهي في نظرهم مصنع حربى
لإنتاج الذخائر . قال تعالى (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر
بينكم وتكاثر بالأموال والأولاد) :
ويقول أنسيف بن زَبَّان الطائى فى وصف قومه .

أبى لهم أن يعرفوا الضيمَ أنهم بنو نائق كانت كثيراً عيالها
وقد كانت هذه الحياة المضطربة الكثيرة الحركة تتطلب الخفة والنشاط ،
لذلك كرهت العرب فى الرجل أن يكون سمينا مكتنزا ، ورأوا فى السمن
والاكتناز آثار النعمة والترف ، والركون إلى الكسل والخمول . وأحبوا فيه
أن يكون نحىلا خفيف اللحم ، من أثر السهر ، واقتحام الأحوال ، وطى الرمال ،
والصبر على المكارة ساعة النزال . فالرجل ذو الخطر كما يقول تأبط شرا :
سَبَّاقُ غَايَاتِ مَجْدٍ فى عشيرته مَرَجَّعُ الصَّوْتِ هَدًى بَيْنَ أَرْفَاقِ (٢)
عارى الظنائب مُـمْتَدِّ نَوَاشِرُهُ مَدْلَاجُ أَدْهِمٍ وَأَهَى المَاءِ غَسَّاقِ (٣)
أو هو كما نقول زينب بنت الطثيرة فى رثاء أخيها يزيد بن الطثيرة :
قَتَّى قَدْرٌ قَدَّ السِّيفُ لَامْتِضَائِلَ وَلَا رَهْلَ لِبَسَاتِهِ وَأَبَاجِلِهِ (٤)
ويقول شاعر الحامسة معتذرا عن سمنه :

ألا قالت الخنساء يوم لقيتها عهدتك دهرأ طأوى الكشح أهضا
فإما ترينى اليوم أصبحت بادنا لديك فقد ألقى على البزلِ مَرَجَمَا (٥)

(١) مشتملة مسرعة فى الجرى . يصفها فى فرعها وقد سقط الخار عن رأسها وجدت فى الحرب .
(٢) الأرفاق الرفاق يقول إن صوته مجلجل بينهم مدويا حين يأمر وينهى .
(٣) الظنوب عظم الساق . يقول إن عظم ساقه عار من اللحم لنحوه . النواشر عروق ظاهر
الذراع . وهى ظاهرة لقلة لحمه . المدلاج سير الليل كله يقول إنه كثير الأسفار فى الليل . الأدهم الليل
المظلم . وأهى الماء شديد المطر . غساق شديد الظلمة .
(٤) الأباجل العروق .
(٥) البازل الناقة التى ظهرت أنيابها وأجمع بزل

ويقول الأعشى في مدح قيس بن معد يكرب :

ولم تسع للحرب سَعْيَ امرئ إذا بَطْنَةٌ راجعته سكن

ترى هممه نظراً خَصْرَةً وهمك في الغزولافي السمن^(١)

قال عبد الملك بن مروان^(٢) ما كنت أحب أن أحدا ولدني من العرب إلا عروة بن الورد لقوله :

أتهزأ مني أن سمئت وأن ترى بجسمي مسَّ الحق والحق جاهد

لأنني إمرؤ عافي إنائي شركة وأنت امرؤ عافي إنائك واحد^(٣)

أقسم جسمي في جُسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

وعكس هذه الصورة التي يحبونها في الرجل كان يستحب في المرأة . كانوا يصورونها وقد تراكم عليها الشحم ، فهي لا تكاد تقوى على حمل جسمها . وكانوا يرون هذا السمن مظهر الترف والنعمة . فالمرأة المترفة يحميها رجل قوى ، يستطيع أن يدفع عنها كل عدوان ، ويكفيها أن تمتن وتهان ، ويجلب لها الثروة والمال من كل مكان .

يقول المُسرَّارُ بن مُنقِذٍ في وصف النساء :

قُطِفَ المني قريبات الخطي بُدْناً مثل الغمام المُرْخَرِ^(٤)

يتزاورن كقطاء القطا وطعمن العيش حلوا غير مر^(٥)

فهي هيفاء هضم كشحها نخمة حيث يُشدُّ المؤتَزَرُ

يَبْهَظُ المِفْضَلُ من أردافها ضفِرُ أُرْدِفٍ أنقاء ضفر^(٦)

(١) يقول : حين يكون هم الحامل أن ينظر في حصره ليرى هل من أم لا ، لا يكون همك إلا الغزو .

(٢) المعنى أنقريد ١ : ١٨١ .

(٣) يقول إن هذا الرجل المعجب بسمنه إنما أمتلا بما لأنه يأكل وحده . أما أنا فأشرك الناس في طعامي .

(٤) القُطُوفُ المتقاربة الخطو . المُرْخَرُ المرتفع . والغمام إذا ارتفع رق وصفا .

(٥) القُطُوفُ تتأرب الخطو .

(٦) يبْهَظُ يملؤه . المِفْضَلُ الثوب الذي تلبسه المرأة وحده في خلوتها .

وإذا تمشى إلى جاراتها لم تكذب تبلغ حتى تنهر
يُضْرَبُ السبعون في خلخالها فإذا ما أكرهته ينكسر
ناعمتها أم صدق برة^(١) وأب برّها غير حكر
فهي خذواء بعيش ناعم برّد العيش عليها وقصّر
ويقول عمرو بن كلثوم :

على آثارنا يضر حسان نحاذر أن تفارق أو تهونا
أخذن على فوارسهن عهداً إذا لاقوا فوارس معلّمين
لَيْسَتْ لِيْ أَبْدَاناً وَيَضُّ أَسْرَى فِي الْحَدِيدِ مَقْرَنِيْنَا^(٢)
إذا مارحُنَ يمشين الهوبنا كما اضطربت متون الشاريننا
يَقْتُنَّ جِيَادَنَا وَيَقْلُنَّ لِسْتُمْ بعولتنا إذا لم تمنعوننا
إذا لم نحمهن فلا بقينا لشيء بعدهن ولا حيننا
وما منع الظعائن مثل ضرب ترى منه السواعد كالقُلِيَا^(٣)

ولقد بلغ من تمكن صورة الشراسة والعنف في نفس العرب ، أنهم كانوا يزعمون أن المرأة إذا حملت ، وهي مكرهة على ذلك غير مدفوعة بالشهوة العنيفة ، كان ابنها أنجب . وكان الرجل منهم إذا أراد أن ينجب من زوجته أغضبها . ويقولون (إن ولد المذعورة لا يطاق) . وقد وصفت أم تأبط شرا ابنها فقالت : أما والله إنه لشيطان . ما رأيته قط مستقلا ولا ضاحكا ، ولا هم بشيء مذ كان صبيّا إلا فعله ، ولقد حملت به في إيلة ظلماء ، وإن نطاق لمشدود^(٤) . وفي هذا يقول أبو كبير الهذلي :

حملت به في لَيْلَةٍ مَرَّةٍ وَودَّ كرها وعقد نطقها لم يخال^(٥)
فأتت به حُشَّ الْفَوَادِ مَبْطِنًا سُهْدًا إذا ما نام ليل الهوجل^(٥)

(١) الأبدان الدروع ، والبيض الخوذات .

(٢) القلون جمع قلة وهي خشبة يلعب بها الصبيان .

(٣) شرح الحماسة ١ : ٨٤ ، ٨٥ . (٤) الزود الذعر والمزود المذعور .

(٥) حوش الفؤاد وحشبه لحده وتوفده . مبطن ضامر البطن . مهد كثير السر . الهوجل الثقيل الكسلان أو الأحمق .

فإذا نبذت به الحصة رأيته ينزول وقعتها طمثر الأخيّل^(١)
 وإذا يهب من المنام رأيته كرتوب كعب الساق ليس بئزمل^(٢)
 وإذا رميت به الفسجاج رأيته يهوى مخارمها هريّ الأجْدَل^(٣)
 صعب السكرية لا يرام جنبه ماضى العزيمة كالحُسام المصقل
 يحمى الصحاب إذا تكون كرية وإذا همّ نزلوا فأوى العيّل^(٤)

وكانت العرب تمدح في الرجل أن يكون جلدا صورا على المصيبة، لأن
 الجلد من آثار القوة والتماسك ومغالبة الزمن . فالاستسلام للجزع والحزن
 ضعف لا يجمل بالرجل القوى . يقول بعض بني قيس بن ثعلبة في وصف
 قومه بالتجلد .

ولا ترام وإن جلت مصيبتهم مع البكاة على من مات ييكونا
 ويقول عمرو بن معد يكرب :

كم من أخ لي صالح بؤأته يديّ لحدا
 ما إن جزعت ولا هلع...ت ولا يرد بكاي زندا
 ألبسته أنوابه وخلقت يوم خلقت جلدا
 أغني غناء الذاهية...ن أعد للأعداء عدا
 ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا

ويقول إبراهيم بن كنيف النباهي :

فإن تسكن الأيام فينا تبدلت بشخمي وبؤسى والحوادث تفعل
 فما لينت منا فناة صلية ولا ذللتنا للتي ليس تجمل

(١) الطمور الثوب ومرس طمر وثاب . الأخيل . المتكبر المحب بنفسه .

(٢) رتب رتوبا قام وانتصب . مرمل ضيف سمي بذلك لزمه في ثوبه وقعوده عن الحرب .

(٣) الأجْدَل الصقر .

(٤) العيّل جمع عائل وهو الفقير .

ولكن رحلناها نفوساً كريمةً تُحَمِّلُ مالا يستطيع فتحمل.
وقيننا بحسن الصبر منا نفوسنا فصحت لنا الأعراض والناس هزَل
وإنا لنجد الجاهلي يتغزل، فيصور صاحبه ولها زوج قد غلبه عليها، أو
يصورها وحوها حراس غلاظ شداد، لا يخلص إليها إلا بعد أعمال حيلة
وجهاد. حتى الحب لم يكن إلا نوعاً من المقاتلة والصراع، ورغبة في الظفر
والامتلاك.

يقول الأعشى :

وَمَصَابِ غَادِيَةٍ كَأَنَّ تَجَارَهَا نَشَرَتْ عَلَيْهِ بُرُودَهَا وَرَحَالَهَا
قَدِ بَتُّ رَائِدَهَا وَشَاةٍ مُحَاذِرٍ حَذَرَ أَيْقَلُ بَعِينَهُ أَغْفَالَهَا
فَظَلَّتْ أَرْعَاهَا وَظَلَّ يَحُوطُهَا حَتَّى دَنُوتِ إِذَا الظَّلَامُ دَنَاهَا
فَرَمِيتْ غَفْلَةً عَيْنَهُ عَنْ شَاتِهِ فَأَصْبَتْ حَبَّةً قَلْبَهَا وَطَحَالَهَا

لم يكن التمدح بالخير والميسر والنساء لما فيها من متع الجسم، ولكنه كان
عندهم مظهراً من مظاهر الفتوة والشباب — والشباب قوة، ولا امتلاك للذة
نشوة — كان العربي يتمدح بالخير لأنها، كما يقول عمرو بن كلثوم :

تَجُورُ بَنَى اللَّسْبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ إِذَا مَا ذَاقَهَا حَتَّى يَلِينَا
تَرَى اللَّحْزَ الشَّحِيجَ إِذَا أُمِرَّتْ عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيهَا مُهِينَا
إِذَا صَمَدَتْ مُحْمِيَاهَا أُرِيَا مِنَ الْفَتْيَانِ خَلَّتْ بِهِ جُنُونَا
أَوْ كَمَا يَقُولُ حَسَن :

ونشرها فتركنا ملوكاً وأُسْدَاءَ مَا يُنْهِنُنَا اللَّقَاءُ
فالعربي إذا تحدث عن لذاته ونغنى بها، رأيت في حديثه حماسة وقوة، هي
حماسة الفاتك القادر، وقوة المنتصر الظافر. يقول مجمع بن هلال :

وَخَيْلٍ كَأَسْرَابِ الْقَطَا قَدِ وَزَعَتْهَا لَهَا سَبَلٌ فِيهِ الْمَنِيَّةُ تَلْعُ
شَهِدْتُ وَغَنِمٌ قَدِ حَوِيَتْ وَلَذَةُ أَصْبَتْ. وَمَاذَا الْعَيْشُ إِلَّا التَّمَتُّعُ

ويقول الأعشى :

ولقد لبست العيش أجمع وارتديتُ من الإبرة
وأصبتُ لذات الشباب مُرفلاً ونَعَمْتُ ناره
ولقد شربت الراح أُسْقَى من إناء السطهر جَارَه

ويقول طرفة :

ألا أيها اللامي أحضِرِ الوَغَى وأن أشهدَ اللذات هل أنت مُخلدي
فإن كنتَ لاتسطيع دفع منيتي فدعني أبادِرُها بما ملكت يدي
فلولا ثلاث هن من حاجة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودى (١)
فمن سبق العاذلات بشربة كمِيت متى ما تمعل بالماء مُزبد
وكرى إذا نادى المضاف مُحسباً كسيد الغضا نبهته المتورّد (٢)
وتقصير يوم الدجن والدجر مُعجِبٌ بهكَنَة تحت الطراف المعمد (٣)

ويقول حسان بن ثابت :

ومسك بصداع الرأس من سُكْر ناديته وهو مغلوب ففقدانى (٤)
لما صحا وتراخى العيش قلت له
فأشرب من الخمر ما آتاك مشربُه
إن الحياة وإن الموت مثلان
واعلم بأن كل عيش صالح فإن
ويقول المرقس الأكبر :

ياخول ما يدريك رُبّت حرّة خدود كريمة حيهّا ونسائها
قد بُت مالکها وشارب رِيّة قبل الصبح كريمة بسبائها

(١) العود من بعده في مرضه أو يحضره عند موته . يقول إنه لا بالى متى يموت لولا حرصه على ثلاث خصال ، فصلها في الآيات التالية . وهي الخمر وإغاة المستغيث والنساء . وهذه الخصال الثلاث هي عنده لوازم الفارس وهم الفتى .

(٢) المضاف الذى أضافه المومم بإياديه مستعثا به . الخنب الفرس المعوجة الساقين . السيد الذئب والغضا شجر . المتورّد الذى يرد الماء .

(٣) الدجن الغم . بهكنة الضحكة التامة . الخدق . فهو في هذا اليوم اغيل بمثل هذه الحساء ، يقطع الوقت بمغازلتها تحت جباء مرفوع بالعمد . وكلما رجع عمود الحساء كان ذلك أضخم له وأدل على شرف صاحبه ، لأن بيوت السوقة والمقراء صغيرة لعدم لاصقة بالأرض .

(٤) مغلوب عليه الخمر . فدنى جعل همه فداء لى محاملة وتأديبا فقال جعلت فداك

لم يكن العربي يرى في اللذات محرماً ومباحاً . كل لذة فهي مبدولة للفاخر ، وإنما يفوز باللذة الجسور . فالفرق الأصيل بين حديث الجاهلي عن لذة ، وحديث العباسي عنها ، أنا نرى في الأول صورة الرجل المالك لها ، المتصرف فيها . بينما نرى في الثاني صورة الرجل الذي تملكه اللذة ، فيستسلم لها منقاداً .

فبينما يتسلى الجاهلي عن حبه كما يقول المسيب بن علس :
فَتَسْلُ حَاجَتَهَا إِذَا هِيَ أَعْرَضَتْ بِحَمِيصَةِ سُرُوحِ الْيَدَيْنِ وَسَاعِ
وكما يقول الأعشى :

فِيطَى تَمِيطَى بِصُلْبِ الْفُؤَادِ وَصُرُولِ حَبَالِ وَكَتَادِهَا
نجد العباسي وقد ذل وهان ، وكست حديثه ضراعة من لم يعد يملك أمره ،
كما يقول العباس بن الأحنف :

خَذُوا لِي مِمَّا جَرَعَتْ فِي زَجَاجَةٍ أَلَا إِنَّهَا لَوْ تَعْلَمُونَ طِيبِي
وَسِيرُوا فَإِنْ أَدْرَكْتُمْ بِي حُشَّاشَةً هَا فِي نَوَاحِي الصَّدْرِ وَجَسُ دَيْبِي
فَرُشُّوْا عَلَيَّ وَجْهِي أَفْقَ مِنْ بَلِيَّتِي يَثِيكُمُ ذُو الْعَرْشِ خَيْرُ مَثِيْبِ
وَلِنْ أَنْتُمْ جِئْتُمْ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَكُمْ وَيَبْنِي يَوْمَ لِلنَّوْنِ عَصِيْبِ
وَصَرْتُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى قَعْرِ حَفْرَةٍ حَلِيفَ صَفِيْحٍ مُطَبَّقٍ وَكُثِيْبِ
فُرُشُّوْا عَلَيَّ قَبْرِى مِنَ الْمَاءِ وَانْدَبُوا قَتِيْلَ كَعَّابٍ لَا قَتِيْلَ حُرُوبِ

ولم يكن السكرم مدحاً لأنه من آثار الرحمة والعطف ، ولكن لأنه مظهر السيادة والتفضل ، والقوة والاستعلاء . فالكريم هو القوى الذي يجود بما تجدى عليه السيوف والرماح . وهو لا يدخر المال ، لأنه لا يخشى الفقر ، ولا يشفق من المستقبل ، ما دام يستطيع أن ينزع الثروة حيث كانت ظالماً ومقتدرأ .

يقول الأعشى في مدح هذلة :

وفي كل عام أنتَ جاشمٌ غزوة تشد لأقصاهما عزمَ عزائك
مورثةً مالا وفي المجد رفعة لما ضاع فيها من قُروء نساك^(١)

ويقول في مدح إياس بن قبيصة :

وفي الحرب منه بلاء إذا عوانٌ توقدَّ أجذالها^(٢)
فأب له أضلاٌ جامل وأسلاب قتل وأنفالها
إلى بيت من يعتريه الندى إذا النفس أعجبها مالها

ويقول في مدح قيس بن معد يكرب :

وأبيض كالسيف يعطى الجزيل يجود ويغزو إذا ما عديم
تضيئفت يوماً على ناره من الجود في ماله أتمكم
ويقول المرقش الأكبر :

أموالنا نقي النفوس بها من كل ما يدنى إلى الذم
لا يسعد الله التلبب والغـ ارات إذ قال الخنيس نعم^(٣)
وقال سيرة^(٤).

أعيرتنا ألبانها ولحومها وذلك عار يا ابن رينة ظاهر
نحجاني بها أكفاءنا ونهنيها ونشرب من أثمانها ونقمار
وتكسبها في غير غدر أكفنا إذا عقدت يوم الحفاظ الدوائر^(٥)

(١) انقره الخيزر أو المدة بين الخيذين . يقول إن الغزو يودك مالا ومجداً يعوضك عن هجرانك نسائك في الحرب .

(٢) العوان من الحروب التي قوتل فيها مرة . أجذال جمع جذل بكسر الجيم وهو ما عظم من أصول الشجر .

(٣) يقول إن قيمة المال في أن ينفقه صاحبه فيما يكسبه الحد . ثم يقول بارك الله لنا في الحروب والغزوات التي تكسب منها هذا المال . نعم الجمال . يصيح الجيش حين يراها هذه نعم . فيغيرون عليها .

(٤) بلوغ الأرب ١ : ٣٠٠

(٥) يقول إنه يكسب هذه الجمال من الغارات — في غير غدر — وينفقها في الهبات وفي إكرام الضيف وفي الخمر والقرار .

ولذلك كان قبول الهبة مظهراً من مظاهر الضعف . فالقوى لا يستجدي رزقه ، ولكنه يغتصبه اغتصاباً . وهذا هو الأعشى يعير يزيد بن مسهر ما يجرى عليه ملوك العراق من رزق فيقول :

وذرننا وقوماً إن همو عمدوا لنا أبا ثابت واقعد فإنك ناعم
طعامُ العراق المستفيضُ الذي ترى وفي كل عام حلةٌ ودرهم
وكانت قوة البيان نظير قوة السنان . فالعربي يدفع بالهجم ، كما يدفع
بالطعنة النجلاء .

يقول طرفه :

ويصد عنك خيلة الرجل العريض مَوْضِحَةً من العظام^(١)
بحسام سيفك أو لسانك والكلمُ الأصيل كأرغب الكلم
ولم يزل الشاعر العربي عزيزاً في قومه منيعاً ما تغنى بالقوة . فإذا سأل
بشعره وقبل الهبات ، سقط عن منزلة السادة والرؤساء . وإنما كان يمدح
الرجل بسيادة الآباء ، وتالد الثراء ، لأن ذلك دليل القوة العريقة في دمه .
فليس يسود في قومه إلا الفانك الشجاع .

وكل ما يهجي به العربي فهو راجع إلى الضعف والخور : يهجي بغمول
النسب ، وبالبخل ، وبالفقر — يرعى المعز والشاء ، ولا يرعى الإبل .
ويركب الحمير ، ولا يركب الخيل . ويمتن نساءه في الرعي والسكد خارج البيت —
ويهجي بالجن والقعود عن الغزو ، وبذهاب الهية بين الناس — يجلس في نادي
القوم ، فلا يسمع صوته ولا يعتد برأيه — وبالقعود عن الثأر وقبول الدية ،
وبالعجز عن حماية الجار ، والتخلص إلى نساته في السلم أو الحرب ، والاعتماد
على حماية الأقربين من أبناء عمه وعشيرته ، والاشتغال بما ليس من شأن القوى
كالصناعة والزراعة والتجارة .

(١) مَوْضِحَةً عن العظم طعنة عميقة ناعذة تقطع اللحم حتى تصل إلى العظم .

فالحياة الجاهلية كانت تقوم على الكفاح الدائم ، والتنافس والتنازع ،
والمسكثرة بكل شيء حتى المصائب . وقد صور القرآن ذلك في أكثر من
موضع (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) (اعللوا أنما الحياة الدنيا لعب
ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر بالأموال والأولاد) .

كانت الحياة في ذلك الوقت صريحة واضحة ، تعترف بذلك القانون الأزلى
(البقاء للأصلح) . كانوا يمدون القوة ، لأنها السبيل الوحيد للحياة والكمال ،
ويحتقرون الضعف ، لأنه مظهر الانحلال ، وسبيل الموت والفناء . ولم يكن
في شعرهم وقوانينهم الأخلاقية هذا الرياء والخذاع الذى نصطنعه اليوم في
حياتنا ، فنحن نملأ الدنيا غناء بالرحمة والعدالة ، وحق الضعيف في الحياة .
نملأ الدنيا ضجيجاً بهذا النفاق المخدر ، في شعرنا ونثرنا وخطبنا وصحفنا ،
بينما تسير الحياة في طريقها الأزلى القديم ، لا تتحول عنه ولا تتحد . فالواقع
يكذب آدابنا ، ويسخر من قوانيننا الأخلاقية . أما الجاهليون ، فقد كان
شعرهم وقوانينهم الأخلاقية ومثلهم العليا صوراً صريحة للحياة ، ليس فيها
غش أو خداع .

أقدم صور الهجاء

المنافرات هي أقدم ما نعرف من صور هذا الفن عند العرب . والمنافرة المحاكمة من النفر ، لأن العرب كانوا إذا تنازع الرجلان منهم ، وادعى كل واحد أنه أعز من صاحبه ، تحاكما إلى عالم ، فمن فضل منهما قدم نفره عليه ، أى فضل نفره على نفره ^(١) . وقيل إنها سميت منافرة ، لأنهم كانوا يقولون عند المنافسة أنا أعز نفراً .

وربما وقعت المنافسة بين رجلين من أبناء القبيلة الواحدة ، يتنازعان الشرف والرياسة . كمنافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة ، ومنافرة هاشم ابن عبد مناف وأمية بن عبد شمس ، وربما كانت بين رجلين من قبيلتين يمثل كل منهما قبيلته ، فأيهما نفر على صاحبه كانت قبيلته أفضل ، كمنافرة جرير بن عبد الله البجلي وخالد بن أوطاة الكلبي .

وكان الرجلان إذا لجا بينهما الخصام ، وادعى كل منهما أنه أشرف من صاحبه ، تحدى أحدهما الآخر للمنافرة ، كما كان يفعل الناس في العصور الوسطى . حين يتحدى الرجل خصمه للبارزة . وقد يقوم الرجل التباه بحسبه ونسبه في مجمع من القوم ، فيزعم أنه أشرفهم وأعزهم بيتاً ، داعياً من ينكر عليه ذلك للمنافرة . روى صاحب العقد أن وفود العرب اجتمعت عند النعمان ، فأخرج إليهم بردى محرّق ، وقال ليقم أعز العرب قبيلة فيلبسهما . فقام عامر بن أحيمر ابن بهدلة فاتزر بأحدهما وتردى الآخر . فقال النعمان أنت أعز العرب قبيلة ؟ قال : العزة والعدد من العرب في معد ، ثم في نزار ، ثم في مضر ، ثم في خندف ، ثم في تميم ، ثم في سعد ، ثم في كعب ، ثم في عوف ، ثم في بهدلة . فمن أنكر هذا من العرب فلينافرنى . فسكت الناس ^(٢) .

(١) بلوغ الأرب : ١ : ٣٠١

(٢) بلوغ الأرب : ١ : ٢٨٨

(٣) مقصد الفريد : ٦ : ٨٠

وقعد رجل من بني غفار يقال له أبو معشر بن مكرز ، وكان غازيا منيعا في نفسه ، وكان بسوق عكاظ ، فمد رجله ثم قال :

نحن بنو مدركة بن خندف من يطعنوا في عينه لا يطرف
ومن يكونوا قومه يُغَطَّرَف كأنه لجة بحر مشرف
أنا والله أعز العرب . فمن زعم أنه أعز مني فليضربها بالسيف ^(١).

وكان المتنافران يضربان للنافرة موعدا ، ويتراضيان بينهما حكما من كهان العرب ، أو أشرفها المستنيرين المعروفين بالفصاحة والحكمة والعلم بأخبار العرب وأنسابهم . وكانا يضعان بين يدي الحكم جعلا يخاطران عليه ، من إبل أو غيره ، يتول بعد الحكم إلى النافر . وربما نحر النافر الإبل فأطعم الناس أنفة واستكبارا . وقد يكون في شرط المنافرة شيء آخر غير المال ، كما حدث في منافرة هاشم وأمية ، فقد تنافرا على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة وعلى جلاء عشر سنين . فلما نفر هاشم خرج أمية إلى الشام ، فأقام بها عشر سنين ^(٢) . وكانوا يضعون بين يدي الحكم رهنا من رجالهم وأبنائهم ، ضمانا لنوفاء بمثل هذه الشروط .

فإذا كان يوم المنافرة ، وافى كل منهم في قومه ، معهم شعراؤهم ، وقد خرجوا في أحسن زى ، وبدوا في آخر مظهر وأملته للعين ، مكاثرين بخيلهم وإبلهم وسلاحهم ، ينحرون ويضعمون ، وربما استعان أحدهما أو كلاهما ببعض مشاهير الشعراء من غير قومه . ويجلس الحكم في قبة قد ضربت عليه يسمع ويرى . فيبدأ أحدهما بتعديد مناقبه ومفاخر قومه ، وما هم من مواقف مشهورة ، مهاجما خصمه ، مشهرا بعيوبه ، معيرا بمثالب قومه ، في كلام مسجوع . ربما استحال بعد قليل إلى رجز . فإذا انتهى ، وقف خصمه فرد عليه . ونقض ما قال . ثم يتداول الشعراء الإنشاد متبادلين ، شاعر من هذا الطرف ، وشاعر من ذاك ،

(١) ابن الأثير ١ : ٣٥٩

(٢) النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم للقرى ص ٢١ .

يتملقون الحكم بمدحه ، ويظهرون مفاخر صاحبهم ومآثر قومه .

وقد اشتهرت عكاظ بمثل هذه المحافل . قال صاحب لسان العرب (قال الليث : سمي عكاظ عكاظا لأن العرب كانت تجتمع فيه فيعكظ بعضهم بعضاً بالفخار ، أى يدعك ، وعكظ فلان خصمه بالدد والحجج عكظا ... وقال غيره : عكظ الرجل دابته يعكظها عكظا إذا حبسها . وتعكظ القوم تعكظاً إذا تحبسوا ينظرون في أمورهم . قال وبه سميت عكاظ ... وحكى السهيلي : كانوا يتفاخرون في سوق عكاظ إذا اجتمعوا ، ويقال عاكظ الرجل صاحبه إذا فاخره وغلبه بالمفاخرة . فسميت عكاظ بذات . وعكاظ اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية . وكانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ في كل سنة ، ويتفاخرون فيها ، ويحضرها شعراؤهم ، ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ، ثم يتفرقون ... وقال الأصمعي عكاظ نخل في واد ، بينه وبين الطائف ليلة ، وبينه وبين مكة ثلاث ليال ، وبه كانت تقام سوق العرب ، بموضع منه يقال له الأثداء) .

المنافرة خليط من النثر والشعر كما رأينا . ولكنه نثر منمق ، يكاد يصل في جماله وموسيقاء وتوازي فقره وجمال صورته إلى درجة الشعر . بل هو في حقيقته شعر ، على ما بينا من مفهوم الشعر عند الجاهلين . وكانت الناحية البلاغية هي أبرز ظاهرة في هذه المجتمعات . فالحكم الأخير يتوقف إلى حد كبير على حسن العرض ، وبلاغة الصياغة ، وقدرة المنافر ومن في جانبه من الشعراء على التأثير في الحكم وفي جمهور النظارة .

فالمنافرة هي الصورة البدائية الساذجة لفن الهجاء . والجانب الهجائي منها يعتمد على المثالب الشخصية ، ويدور حول الفرد ، ولكنه لا يرتفع إلى الحياة في أفقها الواسع ، ودائرتها الصغيرة . وقد اعتبرناها صورة بدائية ساذجة ، لأنها لا تسمو من ناحيتها الأدبية إلى الخلق والابتكار ، ولكنها تعتمد على تقرير الواقع ، وصياغته في عبارة منقمة ، فهي هجاء شخصي في أحط صورة وأدنى درجاته . ثم هي لمافيها من عنصر الارتجال ، لا تسمو إلى مرتبة الفن الرفيع ، وليس فيها أثر

الجهد والحرص على التجويد ، ولكنها تعتمد في معظم الأحيان على حضور البداية وسرعه الرد ، وتصيد كل شاردة ، واتهز كل فرصة تبدر من الخصم . فهي تأخذ شكلها من الظروف المحيطة بها ، في هذا الحوار العنيف ، والنقاش الحاد القصير . ومعظم قيمتها الأدبية راجعة إلى ما تشتمل عليه من تصوير للقيم الأخلاقية والاجتماعية عند العرب في وضوح وفي صراحة .

وكان يحكم بين الناس في هذه المنازعات طائفة من سادة العرب يسمونهم الحكام . وكان لكل قبيلة حكم يرجعون إليه فيما ينشأ بينهم من خلاف ، وما يعوزهم من رأى ، في الحرب والسلم ^(١) .

وقد اشتهرت هذه الطائفة برجاحة العقل وفصاحة اللسان والشجاعة والنجدة . ورويت عنهم الأمثال والشعر الحكيم . وكانوا أعلم أهل زمانهم بأنساب الناس ومنازلهم . يقول خريث بن عتاب الشباني :

تعالوا أفاخركم أعياء وقطعس إلى المجد أدنى أم عشيرة حاتم
إلى حكم من قيس عيلان فيصل وآخر من حي ربيعة عالم ^(٢)
ويقول مسكين الدراعي ^(٣) :

كلانا شاعر من حي صدق ولكن الرُحى فوق الثفال
وحكم دغغلا وارحل إليه ولا ترح المطى من الكلال
تعال إلى بني الكواء يقضوا بعلمهم بأنساب الرجال
تعال إلى ابن مذعور شهاب ينبى بالسوافل والعوالى
وعند الكيس النسرى علم ولو أضحي بمنخرق الشمال

واشتهرت تميم وقيس بحكماهما ، فكانت العرب تلجأ إليهم في منازعاتها . فمن حكام تميم الأقرع بن حابس ، الذى قضى في منازعة جرير بن عبد الله

(١) بلوغ الأرب ١ : ٣٠٨ .

(٢) يقصد هرم بن قطبة ودغغلا .

(٣) البيان والبيان ١ : ٣٢٦ .

البجلي وخالد بن أرطاة الكلبي . وقد أدرك النبي وأسلم ، وهو من المؤلفـةـ قلوبهم . ومنهم أكرم بن صيفي ، وهو مشهور بأمثاله ، منها « ويل للشـجـي من الخلى ، ومنها « مقتل الرجل بين فكيه » ومنها « لم يهلك من مالك ما وعظك » ومنهم حاجب بن زرارة ، الذي رهن كسرى قوسه . ومن حكام قيس المشهورين هرم بن سنان الفزاري ، بمدوح زهير ، وهو الذي انتهى إليه الحكم في منافرة علقمة وعامر . ومنهم عامر بن الظرب العدواني ، يروى من أمثاله قوله « رب أكلة حرمت أكلات » وقوله « الرأي نائم والهوى يقظان » وقوله « رب زارع حاصد سواه » ومنهم غيلان بن سلمة النقي ، زعموا أنه كان يقسم نفسه بين ثلاثة أيام ، يوم يحكم بين الناس ، ويوم ينشد فيه شعره ، ويوم ينظر في جماله . وقد لجأ إليه عامر وعلقمة في منافرتهما فيمن لجأ إليه من الحكام .

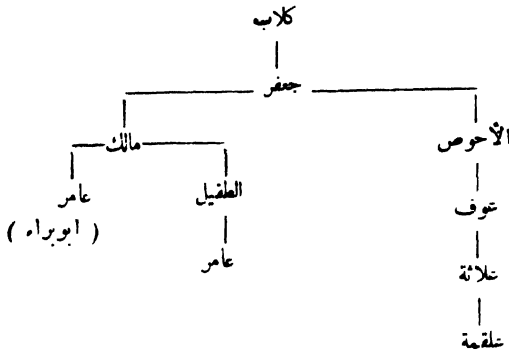
وكان المتنافرون ياجئون في بعض الأحيان إلى السكhan ، فيقضون بينهم بكلام مسجوع ، مثل قول الكاهن الخزاعي في منافرة هاشم وعبد شمس : « والقمر الباهر ، والسكراب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر . لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر » (١) . ونحن ننقل هنا مثلين للمنافرة ، أحدهما يصور المنافرة بين رجلين من قبيلة واحدة ، يتنازعان الشرف والرياسة ، وقد اخترنا لتصوير هذا النوع منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة . والمثل الآخر يصور المنافسة بين قبيلتين ، مثلتين في رجلين من ساداتهما ، وقد اخترنا له منافرة جرير بن عبد الله البجلي وخالد بن أرطاة الكلبي .

(٢) منافرة عامر وعلقمة

عامر وعلقمة كلاهما من كلاب بن عامر بن صعصعة . وهما يلتقيان عند الجد الثالث لعلقمة والجد الثاني لعامر . وقد كانت السيادة في بني كلاب خاصة ،

(١) بلوغ الادب ١ : ٣٠٨

(٢) الاغانى ٥ : ٥٥ - ثعلب (شرح ديوان الاعشى) ص ١٦٥ - بلوغ الادب ١ : ٢٨٧ .



وفي عامر بن صعصعة عامه، للأحوص جد علقمة. فلما مات الأحوص انتقلت السيادة إلى ابن أخيه عامر بن مالك، وهو أبو براء ملاعب الأسدنة. فلما أسن أبو براء تنازع عامر وعلقمة الرياسة، عامر يرى أنها يجب أن تنتقل إليه لأنها في عمه، ثم هو يرى نفسه أحسن بلاء في الحرب من علقمة. وعلقمة يرى أنها كانت في جده الأحوص، وأنها انتقلت إلى أبي براء بسببه، لأنه ابن أخيه. وشرى الشر بينهما حتى صار إلى المنافرة. تراجعا أول الأمر متفاخرين ينثر مسجوع، ثم تنافرا بخيرهما وأقربهما للخيرات على مائة من الإبل. وانحاز الأعشى وليد إلى عامر، والخطيئة وبعض بني الأحوص، وفيهم السندري، إلى علقمة. واحتكموا إلى خزيمة بن عمرو بن الرجيد، ثم إلى أبي سفيان بن حرب، ثم إلى أبي جهل بن هشام بن المغيرة، ثم إلى غيلان بن سلمة الثقفي، ثم حرملة بن الأشعر المري، وكلهم يتخرج من الحكم فلا يقول بينهما شيئاً، إلى أن صار الأمر إلى هرم بن سنان، فاحتال للأمر، واستدعى كلا من الخصمين على حدة، فكان يصور لكل واحد منها أن خصمه أفضل منه. فيتخيل أحدهما أنه سيفضل صاحبه ويرجوه أن لا يفعل، وأن يكتفي بالتسوية بينهما. فلما كان يوم الحكم قام هرم فسوى بينهما قائلاً (أتما كركبتى البعير الأدرم الفحل، يقعان الأرض معاً، وليس فيكما واحد إلا وفيه ما ليس في صاحبه، وكلاكما سيد كريم). وعمد بنو هرم وبنو أخيه إلى جزر كان قد

أوصاهم أن ينحروها إذا نطق بحكمه، فنحر بعضهم عشرة عن علقمة ، وخر بعضهم عشرة عن عامر ، وفرقوا بين الناس .

بدأت المنافرة حواراً عنيفاً بين عامر وعلقمة .

قال عامر : والله لآنا أكرم منك حسباً ، وأثبت منك نسباً ، وأطول منك قصباً .

قال علقمة : والله لآنا خير منك ليلاً ونهاراً .

قال عامر : والله لآنا أحب إلى نساءك أن أصبح فيهن منك .

قال علقمة : أنا فرك أنى لبر وأنك لفاجر ، وأنى لولود وأنك لعافر

وأنى لعف وأنك لعاهر ، وأنى لواف وأنك لغادر .

قال عامر : أنت رجل ولود وأنا رجل عقيم ، وقد وفيت لبنى عمرو

ابن تميم ، وقد زعموا أنى غدرت بهم ، وهم كاذبون . ولكنى أنا فرك أنى أنحر

منك للقاح ، وخير منك فى الصباح ، وأطعم منك فى سنة الشياح .

قال علقمة : أنت رجل تقاتل والناس يزعمون أنى جبان ، ولأن تلقى

العدو وأنا أمامك ، أعز ذلك من أن تلقاهم وأنا خلفك . وأنت رجل جواد

والناس يزعمون أنى بخيل ، ولست كذلك . وأنت تعطى العشيرة إذألمت .

ولكنى أنا فرك أنى خير منك أثراً ، وأحمد منك بصراً ، وأعز منك نفراً ،

وأشرح منك ذكراً .

قال عامر : أنت رجل ثار . وليس لبنى الأحوص فضل على بنى مالك

فى العدد . وبصرى ناقص وبصرى صحيح . ولكنى أنا فرك أنى أسن منك

سنة ، وأطول منك قمة ، وأحسن منك لمة ، وأجعد منك جُمّة ، وأسرع منك

جُمّة ، وأبعد منك همة .

قال علقمة : أنت رجل جسيم وأنا رجل قصيف . وأنت جميل وأنا

قبيح . ولكنى أنا فرك بآبائى وأعمامى .

قال عامر : أبأوك أعمامى . ولم أكن أنا فرك بهم ولا بمن ذكرت .

ولكنى أنا فرك أنى خير منك عقباً ، وأطعم منك جدباً .

قال علقمة : قد عرفت أن لك عقباً في العشيرة ، وقد أطعمت طيباً .
ولكني أنا فرك أني خير منك وأولى بالخيرات .
فنافره عامر على خيرهما وأقربهما للخيرات .
وقد عظم أمر هذه المنافرة ، فكانت أشهر ماجرى في الجاهلية من منافرات ،
لكثرة من اشترك فيها من الشعراء والحكام .
قال أحد بني الأحوص يؤيد علقمه ، موجهاً خطابه إلى أبي جهل بن هشام
ابن المغيرة حين احتكموا إليه :

يا القريش بينوا الكلاما
إنا رضىنا منكم الأحكاما
فبينوا إن كنتم حكاما
كان أبونا لهم إماما
وعبد عمرو منع النشاما
في يوم نفر معلم إعلاما
يحسن فيه الكر والإقداما
ودعاجاً أقدمه إقداما
لولا الذى أجشمهم إجماما
لاتخذتهم مذحج أنعاما
وقال ليبد حين احتكموا إلى هرم مؤيداً عامراً :
يا هرم وأنت أهل عدل
هل ينزعن حسبي وفضلى
هل يذهبن فضلهم بفضلى
أن نفر الأحوص يوماً قبلى
ليذهبن أهله بأهلى
لا تجمعن شكلهم وشكلى

ونسـل آباءهم ونسـلى
قد علـموا أنا كرام الطبل

وكان مما أجاب به قحافة بن عوف بن الأحوص :

نهـنـه إلـيـك الشـعـر بالـيـد
واصـدـد فـقـد يـنـفـعـك الصـدود
سـاد أبـونا قـبـل أن تـسـودوا
سـود دكم صـغـيرة زهـيد

وبرز السندرى متصدياً لتأييد علقمه، فقبل « من ذا » ، فقال :

أنا لمن أنكر صوتى السندرى

فإذا حمى الوطيس واحتدم النقاش، انتقلوا من الرجز إلى الشعر ، فينشد
لييد قصيدة من الطويل :

بلى إنـسا ما كان شـراً لـمـالك فلا زال فى الدنيا ملوماً ولأثماً

ثم ينشد الخطيئة قصيدتين. إحداهما من الطويل، والأخرى من البسيط، وهما :

ألا آل لىلى أزمعوا بقفول ولم ينظروا ذا حاجة لرحيل

٩ يا عام قد كنت ذا باع ومكرمة لو أن مسعاة من جاريته أأم

ويقبل الأعشى وقد انفض الناس، بعد أن سوى هرم بين المتأفرين، فيجدد

المعركة بقصيدتين، يزعم فيهما أن عامراً قد نفر على علقمة . إحداهما من الطويل :

لعمرى لئن أمسى من الحى شاخصاً لقد نال خيصاً من عفايرة خائصاً

والأخرى من السريع :

شاقك من قلة أطلالها بالشط فالوتر إلى حاجر

وهو بحر نادر من الشعر الجاهلى . بل هو غريب على شعر الأعشى

نفسه، لم يرو له فيه غير هذه القصيدة . ويروى صاحب الخزانة أن النبي قد

نهى عن روايتها^(١). وقد نسي الناس حكم هرم، وشاع بينهم قضاء الأعشى ،

وعظم وقعه على علقمة، حتى بكى من قوله :

يتيتون في المشتى ملاء بطوتكم وجاراتكم غرثى ييتن خمائصا
فكان يقول « قاتله الله ؟ أنحن كذلك ؟ » ١ .

منافرة مبرر البجلي ومالده الكلبى (١) .

كان سبب المنافسة أن كلباً أصابت رجلاً من بجيلة ، فوافوا به عكاظا .
فر بالبجلي رجل من قومه يأكل تمرأ ، فتناول الأسير من ذلك التمر شيئاً
ليتحرم به ، فغذبه الكلبى ، فكان بينه وبين البجلى نقاش حاد ، انطلق على أثره
يتنقل بين أحياء من قومه ، يستنفرهم لفك صاحبهم فلا ينهضون ، حتى انتهى
إلى جرير بن عبد الله البجلي ، من سراة قومه ووجهائهم المترفين — كان يتخذ
التياب المصبغة والقباب الحمر — فثار لنصرة الرجل ومعه رهطه ، حتى هجم
على منازل كلب بعكاظ ، فانتزع منهم الأسير .

قال جرير : زعمتم أن قومه لا يمنعونه .

قالت كلب : إن رجالنا خلوف .

قال جرير : لو كانوا لم يدفعوا عنكم شيئاً .

قالوا : كأنك تستطيل على قضاة . إن شئت قايسناكم المجد .

قال : ميعادنا من قابل سوق عكاظ .

فجمعت كلب وعلى رأسهم زعيمهم خالد بن أرطاة . وجمعت قسر وعلى

رأسهم سيدهم جرير بن عبد الله . ثم قام خالد فقال لجرير : ما تجعل ؟

قال جرير : الخطر في يدك

قال خالد : ألف ناقة حمراء في ألف ناقة حمراء .

قال جرير : ألف قينة عذراء في ألف قينة عذراء . وإن شئت فألف

أوقية صفراء لألف أوقية صفراء .

قال خالد : من لى بالوفاء ؟

قال جرير : كفيلك اللات والعزى وأساف نائلة ويعوق وذو الخلصة

ونسر . فمن عليك بالوفاء ؟

قال خالد : وددت ومناة وقلس ورضا .

قال جرير : لك بالوفاء سبعون غلاماً مُعَمَّاً بِخِلا ، يوضعون على أيدي
الأكفاء من أهل الله .

فوضعوا الرهن من بجيلة ومن كلب بين يدي عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ،
من أشراف قريش ، وحكموا الأقرع بن حابس .

قال الأقرع : ما عندك يا خالد ؟

قال : ننزل البراح ، ونطلعن بالرماح ، ونحن فتيان الصباح .

قال الأقرع : ما عندك يا جرير ؟

قال : نحن أهل الذهب الأصفر ، والأحمر المعتصر ، نخيف ولا نخاف ،
وننطمع ولا نستطمع . ونحن حى لقاح ، نطعم ما هبت الرياح . نطعم الشهر ،
ونضمن الدهر . ونحن الملوك لقسر .

وقام شاعر بجيلة يشيد بقومه ويتوسل إلى الحكم بما بين بجيلة ونزار من
قراة ، فكان مما قال :

يا أقرع بن حابس يا أقرع

إني أخوك فانظرن ما تصنع

إنك إن يصرع أخوك تصرع

إني أنا الداعي نزارا فاسمعوا

إلى بادخ من عزة ومفزع

به يضرب قادر وينفع

وأدفع الضيم غداً وأمنع

عز ألد شامخ لا يقمع

يتبعه الناس ولا يستتبّع

هل هو إلا ذنبٌ وأكرعُ

وزممعٌ مؤشّبٌ بمجمّع

وحسبٌ وغلٌ وأنفٌ أجدع

ولا يزالون في أخذ ورد ، وجذب وشد ، حتى تنتهى المنافرة بحكم الأقرع
لجرير ، حيث يقول : واللات والعزى ، لو فاخرت قيصر ملك الروم ، وكسرى
عظيم الفرس ، والنعمان ملك العرب ، لنفرتك عليهم .

الهجاء، الشخصى

إلى جانب هذا اللون الساذج من أنوان الهجاء، عرف الجاهليون ألواناً أخرى من الهجاء، هى الهجاء الشخصى والهجاء السياسى. ثم عرفوا بعد ذلك لونا آخر ظهر بظهور الإسلام، وما صحبه من حركة فكرية، يمكن أن نسميه الهجاء الدينى. أما الهجاء الشخصى فقد كان مثاره هذه المنازعات الفردية والخلافات التى لا بد أن تنشأ من احتكاك الناس وتعارض مصالحهم، فى بيئة تقوم على القتال والنزاع فى سبيل الحياة. ويميل الكثير من النقاد إلى الغض من قيمة هذا الفن فى جملته، واعتباره أخط أنواع الهجاء.

وربما لم يكن ذلك صحيحاً على إطلاقه. فقد استطاع كثير من الهجائين المتأخرين فى الأدب العربى، أن يفتنوا فى الهجاء الشخصى. وبياغوا به درجة ممتازة. ولكننا نلاحظ أن هذا الفن فى معظمه كان متخلفاً عند الجاهليين، على كثرة ما أنتج الشعراء فيه. فقد غلبت عليه العجلة التى أبعدته عن الروية والجهد الذى يبذله الفنان فى فنه، فكان تصويراً سريعاً حاراً لعاطفة الغضب، التى تنحرف بطبعها عما ينبغى للفن من أناة، وكان لذلك صورة خشنة مهوشة للتجربة، لم يحتزنها الحس الفنى، ليعيد عرضها بعد أن يستثيرها من مكمنها، وقد أضنى عليها من خياله وسحره.

وربما كان لهذا الشعر قيمته الكبيرة عند مؤرخى الأدب. لما فيه من تصوير للقيم الأخلاقية والاجتماعية فى ذلك العصر. ولكنه مع ذلك قليل الغناء عند طالبي اللذة الفنية، لا يجدون فيه ما يندشون من متعة. فالمشاركة فى الشعور بين القارئ والشاعر ضعيفه أو مفقودة، وهى من أكبر العناصر التى تقوم عليها المتعة الفنية. ثم هو بعد ذلك صورة مضطربة هائجة غير مهيبة للغضب، قليل الحظ من الخيال، فقير فى الصور، محدود المعانى.

فالهجاء هنا سجل ساذج لمعركة بين فردين يتشامتان، ترى فيه كل ألوان

العنف الذى يصحب مثل هذه الظاهرة. فيه الاستعلاء على الخصم بكل شئ. —
بالمال وبالأهل والحسب — وفيه السباب — المقذع فى كثير من الأحيان ،
والذى يتعرض لأغلظ العورات دون احتشام — وفيه التعيير والتهديد .
وأكثر ما نجد فيه نفراً كثيراً ، وتهويلاً من القدرة على البطش بالسيف ،
وبالشعر الذى يبقى ميسمه ، ويجرى على كل لسان. وحيثما قرأنا لم نجد إلا إعادة
وتكراراً لهذه المعانى ، لا يخرج الشعر عنها ولا يتجاوزها .

يقول المزرد بن ضرار الذيباني (أخو الشياخ) :

يهزون عرضي بالمغيب ودونه	لقرمهم مندوحة ومآكل ^(١)
على حين أن جربت واشتد جانبي	وأنسج منى رهبة من أناضل ^(٢)
وحاوزت رأس الأربعين فأصبحت	قناني لايلفني لها الدهر عادل
فقد علموا من سالف الدهر أننى	معن إذا جد الجراء ونابل ^(٣)
زعيم لمن قاذفته بأوابد	يفني بها السارى وتحدي الرواحل ^(٤)
مذكرة تلتفني كثيراً روايتها	ضواح لها في كل أرض أزامل ^(٥)
تسكنز فلا تزداد إلا استنارة	إذا رازت الشعر الشفاء العوامل ^(٦)
فمن أرمه منها بيت يلح به	كشامة وجه ليس للشام غاسل
كذلك جزأتى فى الهسدى وإن أقل	فلا البحر مزوح ولا الصوت ساحل ^(٧)

ومع ذلك. نعثر فى بعض الأحيان بشعر من هذا الباب، لا يخلو من بعض
المتعة الفنية ، مثل قول ذى الأصبع العدواني فى هجاء ابن عم له :

-
- (١) القرم الأكل بمقدم الفم . يقول قد كان لهم مندوحة ومنصرف عن أكل عرضي فى غيابي .
(٢) أنسج منه الذين يناضلوه صيرهم إلى أن ينبعوا كالكلاب .
(٣) المس المعترض فى كل شئ . والجراء الجرى . والنابل الحاذق بالنبل . يصف نفسه باللد فى
الخصومة والحذق باصابة الخصم .
(٤) الأوابد الوحوش وغرائب الكلام ، لأنه يشرذم فى كل مكان .
(٥) أزامل جمع أزل ، وهو كل صوت مختلط .
(٦) رازت الشفاء الشعر جربته . العوامل التواطىء بالشعر .
(٧) الهدى التهديد بالشعر ، يقصد المهاجمة . الصلح بجة الصوت . يقول إنه لا يكل ولا ينضب معينه .

حولى ابن عم على ما كان من خلق
 أزرى بنا أننا شالت نعمتنا
 يا عمرو إن لاندع شتمى ومنقصتى
 لاه ابن عمك لأفصلت فى حسب
 ولا تقوت عيالى يوم مَسْغَبَةٍ
 إني لعمرى ما بانى بذى غلَقْ
 ولا لسانى على الأدنى بمنطلق
 عَفْ نَدُوذْ إذا ما خدت من بلد
 عنى إليك فما أمى براعية
 كل أمرى راجع يوما لشيئته
 إني أبى أبى ذو محافظة
 لا يخرج القسر منى غيراً ما يسه
 وأنتم معشر زَيْدٌ على مائة
 فإن عرقم سبيل الرشد فانطلقوا
 ماذا على وإن كنتم ذوى كرم
 لو تشربون دمي لم يروى شاربكم
 يا عمرو لو كنت لى ألفيتى بشراً
 والله لو كرهت كفى مصاحفى

مختلفان فاقليه ويقلبنى^(١)
 نقالتى دونه بل خلته دونى
 أضربك حتى تقول الهامة اسقونى^(٢)
 عنى ولا أنت ديبانى فتخزونى
 ولا بنفسك فى العزاء تكفينى
 عن الصديق ولا خيرى بممنون
 بالفاحشات ولا فتكى بمأمون
 هوناً فلت بوقاف على الهون
 ترعى الخاض وما رأى بمغبون
 وإن تخالق أخلاقاً إلى حين
 وابن أبى أبى من أيين
 ولا ألين لمن لا يتغنى لىنى
 فأجمعوا أمركم كلاً فكيدونى
 وإن جهلتم سبيل الرشد فأتونى
 أن لا أحبكم إن لم تحبوني
 ولا دماؤكم جمعاً تروينى
 سحاً كريماً أجازى من يجازينى
 لقلت إذ كرهت قريى لها يئى

(١) أقله أكرهه وانقل الكراهية .

(٢) الهامة مائركاكت نوع العربى صاحبها أنه لا يزال يصيح من من القول فاسقون

اسقونى) حتى يزج

وربما أعوزت المعاييب الشاعر فاختلق الكذبة الغليظة والفرية المندية ، ثم لم يزل يكررها في شعره حتى تروج عند الناس وتسمر بها نواديهم . وذلك شر ما يخافه الناس من الشعراء .

أغار رجل من بني أسد على بني عبد الله بن غطفان ، فأخذ فيما غنم إبل زهير وراعيا يساراً ، فتهدده زهير في شعر يقول فيه :

يا حار لا أرمين منكم بداهية لم يلقها سوقه قبلى ولا ملك^(١)
 اردديساراً ولا تعنف عليه ولا تمنعك بعرضك إن الغادر المسعك^(٢)
 ولا تكوننن كأقوام علمتهم يأسوون ما عندهم حتى إذا نهكوا^(٣)
 طابت نفوسهم عن حق خصمهم بخافة الشر فارتدوا لما تركوا^(٤)
 تعلّمن ها لعمرك الله ذا قسما فاقدر بذرعك وانظر أين تنسلك^(٥)
 لئن حللت بحموى من بني أسد في دين عمرو وحالت بيننا فذاك^(٦)
 ليأتينك منى منطق قدع باق كما دنس القبضة الودك^(٧)

فلم يلتفت الرجل لقول زهير ولم يبال به . فاتهم زهير بني أسد بأنهم إنما يضنون بيسار راعي إبله لأن لنسأهم حاجة فيه ، مفصلاً في تصوير ما يكون بينه وبينهم من أدق الحركات الفاضحة ، وختم شعره بقوله^(٨) :

فأبلغ إن عرضت لهم رسولا بنى الصيداء إن نفع الجوار
 بأن الشعر ليس له مرَدُّ إذا ورد المياه به التجار

(١) يا حار يريد الحارث بن ورقاء الذي هجوه وتهدده .

(٢) المسعك المظل . يقول له اردد هذا الراعى ولا تمطل فالمطل عذر .

(٣) يقول له لا تكن كأقوام يحطون ثم لا يستطيعون المعنى في المظل فهم يرتدون لما تركوا إذا نهكهم الهجاء .

(٤) المردع صدر الخطو . يقول له قدر بحطوك ولا تكلف نفسك منى مالا تطيق .

(٥) يقول له لئن حللت في هذا المكان في ملك عمرو بن هند ولم تستطع يدى أن تنالك ليدركك هاتى . القبطية ثياب بيض من الكتان كانت تصنع في مصر . أودك الدهن . وهو أظفر في الثياب البيضاء ..

(٦) راجع الشعر في ديوان زهير ص ٣٠٠ ط دار الكتب المصرية .

فجزع الرجل ورد الإبل على زهير مخافة أن يذهب شعره في الناس .
وبعض هذا الهجاء الشخصي يتصل بالقبائل وما بينها من خصومات ،
فيكون الهجاء في ظاهره موجهاً لشخص ، وهو في حقيقته موجه للقبيلة ممثلة
في هذا الفرد الذي هو زعيمها أو شاعرها . وهنا يختلط الشتم والسباب بالتلميح
إلى أسباب الخصومة بين القبيلتين ، فيجد الهجاء بين يديه مادة خصبه تعينه على
المضي في قصيدته حتى تبلغ عشرات الآيات . فنحن نعرف قصيدة للأعشى
يهجو فيها جهنم يزيد على الستين بيتاً ^(١) . وكلا الشاعرين من قيس بن ثعلبة
البكرى . وقد اشتدت الخصومة بينهما فكان كل شاعر منهما يدافع عن قومه ،
ثم اتصل الهجاء بينهما فانتقل إلى شخصيهما ، ولكنه ظل مع ذلك يحمل آثار
الخصومة الأولى .

يقدم الأعشى لقصيدته بغزل يشير فيه إلى صاحبة غير مقصودة مشيراً
إليها : (تَيْيَا) .

أَلَا قُلْ لَتَيْيَا قِيلَ مِنْهَا اسْلَى تَحِيَّةً مُشْتَاقٍ إِلَيْهَا مُتِمِّمٌ
ولا يكاد يذهب في هذا الغزل إلى أكثر من خمسة أبيات ، ينتقل منها إلى
وصف الناقة ، فيشبهها بحمار وحشى ، يمضى في تصوير نشاطه على طريقة
الجاهليين ، فيطيل ، حتى تصل المقدمة إلى أربعة وعشرين بيتاً . فإذا فرغ
منها تخلص إلى الهجاء بقوله :

فَدَعْ ذَا وَلَكِنْ مَا تَرَى رَأَى كَاشِحٍ يَرَى يَنْسَامَ مِنْ جَهْلِهِ دَقٌّ مَنَشِمٍ
ثم هو يتجه إلى خصمه قائلاً : لستُ أعرف لنفسى ذنباً عند عُسْمَيْرٍ
ورهمته .

إذا ما رَأَى مَدْبَرَا شَامَ نَبْلَهُ وَيَرَى إِذَا أَدْبَرَتْ ظَهْرِي بِأَسْهَمِ

وإنما هي عداوة قد استخفكت (فاستأخِرْها أو تَقَدَّم) .

وكنْتُ إذا نفسُ الغريِّ نَزَتْ به صَقَعْتُ على العِزِّينِ منه بِمَيْسَمِ
ويقول مخاطبا جهنم — لئن خرقت الأرض فكننت في جُبٍّ ثمانين قامة
(وَرُقِيتْ أسبابُ السماءِ بسلم) .

ليستدرجَنك القولُ حتى تَهْرَهُ وتعلمَ أنيَّ عنك لستُ بملجَمِ
وتشرقُ بالقول الذي قد أذعته كما شرقتُ صَدْرُ القناةِ من الدَّمِ
وهو يعجب لسعد بن قيس أهل جهنم ، ولأهل الحرقين سعد وتيم ،
فهم ينفون عنه العلا والحسب ، كأنه ليس منهم ، وكأنه (نَزِيٍّ من إِيَاد
وترخُم) .

وقد رأى الأعشى أن الناس أقبلوا للشر هائجين .

وصيَحَ علينا بالسياط وبالقنا إلى غايةٍ مرفوعةٍ عند مَوَسِمِ
فدعا خلية الجنى مَسْحَلًا ، أما خصومه فقد دعوا جَهَنَّمَ — جَدْعًا
للّهجينِ المذمَّم — وهو يتهدد جهنم ، وينذره بالهزيمة ، قائلا : كيف تغلبنى
وأنت لا تفوقني حسبا ، ولا تبنى بيانا ؟

لئن جدَّ أسبابُ العداوة بيننا لَتَرْتَحِلَنَّ مني على ظهر شَيْهَمِ
وتركَبَ مني أن بلوتُ نَكِيشَتِي على نَشْرِ قد شاب ليس بتوأمِ
فما حسبي إن قِسْنَتَهُ بمَقْصَرِ ولا أنا إن جد الهجاء بمُفْجَمِ
ثم يشير إلى احتدام الشر بينهما ، وإلى مهاجرة كانت بينهما في حفل كبير ،
يدافع كل منهما عن قومه ويحتمي بهم في آن واحد .

وما زال إهداءُ الهَرَاجِرِ بيننا وتَرْقِيئُ أقوامِ الحَسِينِ ومَأْتَمِ
وأمرُ السَّيِّئِ حتى التقينا غَدِيَّةَ كلانا يَحَامِي عن ذِمَارٍ ويَحْتَمِي
تَرْكُنَا وحَلَى ذُو الهَرَادَةِ بيننا بأثْقَبِ نيرانِ العداوةِ تَرْتَمِي

ويقول إن هذه المهاجاة قد انتهت بسبقه ، بفضل ما حباه به صاحبه الجنى ،
 فولى خصمه ، وقد استحال لونه ، وكبا وجهه ، كاتما ظلى الوزر أو خُضِبَ
 بعِظْلَم^(١) — ثم يفخر بقومه ، ويذكر نعمهم وأيادهم على قوم جهنم .
 فهم أصحاب يوم فطيمة ، منعوا بنى شيبان أن يشربوا من العين ، وجبهوهم
 بالطعن حتى تولوا مدبرين . وهم أصحاب أيام حجر ، إذ يحرقون النخيل
 فتظل قائمة كأنها مآتم سود . وهم المنعمون على قوم جهنم بفك سيديهم ،
 إذ نلافهما يشتر من الموت بعد أن أسلما شر مُسْلِم . ويختم القصيدة بقوله :
 فذاك من أيامنا وبلائنا ونعمسى عليكم إن شكرتم لآ نُنعم
 فإن أتم لم تعرفوا ذاك فاسألوا أبا مالك أوسا تلوا رهط أشيم
 وكان لنا فضلا عليكم ومينة قديماً فما تدرون ما من منعم

الخطيئة

ظل هذا الفن في معظمه قليل الخطر من الناحية الفنية كما قدمنا حتى نبغ فيه شاعر كبير هو الخطيئة ، فارتفعت قيمته وعظم خطره ، فقد احترف هذا الشاعر الهجاء كما احترف المدح . ارتزق بالمدح عند الكريم الذي تهزه الأريحية ، وبالهجاء عند البخيل الذي يرضن بماله ، ولا يبذله للبواح . فأصبح الهجاء على يديه صناعة ، يقف عليها الشاعر جهده ، ويفتن فيها ما يجعل لها الأثر المرجو في الناس .

أحاطت بنشأة الخطيئة ظروف لا تحبب إليه الحياة ، ولا تعطف قلبه على الناس . فقد ولد لأمة ، حملت به من سيدها أوس بن مالك العبسي ، واضطرت أن تسكن ذلك عن سيدتها — وهي من بني ذهل بن شيان — فزعمت لها أنها إنما حملت به من أخيها الأقم ، ثم مات سيدها ، وأعتقتها سيدتها بعد أن زوجها رجلاً من بني عبس . وعند ذلك اعترفت بأنها إنما حملت من سيدها . فالخطيئة قد خرج إلى الدنيا يحمل أوزاراً لا يد له فيها ، وقذف به إلى الحياة ملعونا من الناس ، لا يجد عندهم حناناً ، ولا يلقي منهم إحساناً . وجه قبيح ، وجسم رث قبيح ، ونسب مغموز . ينتسب لذهل مطالباً بميراثه من الأقم ، فيردُّ مذموماً مدحوراً . فاذا انقلب إلى بني عبس ، وطالب بميراثه من أوس ، لم يكن نصيبه إلا السخرية والاستهزاء . فأى شيء ينتظر من رجل هذا شأنه إلا أن يكون كارهاً للدنيا ، ناقماً عن كل من فيها ، ؟ هو ناقم على أمه التي حملته شهوة ، ولفظته لعنة . وهو ناقم على هذا الأب المجهول ، الذي لم يورثه إلا عاراً باقياً ، ووصمة لازبة . وهو ناقم على الظروف ، التي جمعت عليه إلى كل هذا ، قبح المنظر ودمامة الخالقة . ورجل هذا شأنه ، لا يخرج له من ورطته إلا بأن يواجه الحياة في جرأة صفيقة ،

لا يبالي معها ما كان من أمره ، وأن يلتقي الناس بوجه جامد قد أعده لما يقولون ، وأن يكف عن نفسه أذى الناس بإيذائهم ، ويدفع تهجمهم عليه بسلاطته عليهم .

ليس عجيباً أن يكون الخطيئة مع هذا لثيماً كثير الشر ، بل العجب كل العجب أن يأتي خيراً فاضلاً ، ففضل الدنيا وإحسان الدهر ، لا يستطيع أن يغسل عاره ، أو يمحو وصمته . فهو رجل قد رسم له طريقة ، بين قوم لا يثنيهم عن الظلم إلا الظلم ، ولا يردهم عن العدوان إلا العدوان .

انصرف منذ نشأته إلى الشعر ، فكان راوية لزهير ، ولابنه كعب من بعده . حتى نبغ فيه . فكان جنته التي يستر بها عيوبه ، وسلاحه الذي يرهب به مباحيه . وعدا على الناس بالثتم ، ينال منهم قبل أن ينالوا منه ، لا يفرق بين أحد منهم — شريفهم ووضيعهم ، ومحسنهم وجاهلهم — وانتزع منهم رزقه بلسان سايط لا يبالي ما يقول ، فليس وراءه عرض برىء فيلوث ، أو حسب رفيع فيهدم . نخافه الناس . واتقوا أذاه بالإحسان ، وجعلوا أموالهم من دون نره .

احترف الخطيئة الهجاء . واتخذته تجارة ومعاشاً . ولم يرف في الدنيا رجلاً حقيقاً يحبه وولائه . فهو يهجوهم جميعاً ، حتى يحسنوا إليه فيكف . فإن عظم عطاء الكريم وأغرقه فيضته ، مدحه في شعر يحد ويسف بمقدار ما قدم من أجر . إن قل العطاء ، قال مثل شعره في عَيْيُنَةَ بْنِ النَّهَّاسِ الْعَجَلِي ، وهو من وجوه بكر بن وائل :

سُئِلْتُ فَلَمْ تَبْخُلْ وَلَمْ تُعْطِ طَائِلًا فسيان لاذِمٌ عَلَيْكَ وَلَا حَمْدُ
وَأَنْتَ أَمْرٌ لَا الْجُودَ مِنْكَ سَجِيَّةً فَتُعْطَى وَقَدْ يُعْذَرُ عَلَى النَّائِلِ الْوُجْدُ^(١)

(١) الوجد اليسار . يقول إن اليسار قد يعين الخيل على أن يخطي الناس . فهذا الرجل لم يعط لأن الكريم طمع فيه وسجية ، ولكن هان عليه أن يعطى لأن ماله كثير

وإن غمره الإحسان فأرضاه ، قال مثل قوله في آل شماس بن لؤى :
يسوسون أحلاماً بعيداً أُناتها وإن غضبوا جاء الحَفِيفَةُ والجِدُّ
أَقُولُ عليهم لا أبا لأبيكم من اللُّرْمِ أوسدوا المكان الذى سَدُّوا
أولئك قومٌ إن بَسَوْا أحسنوا البِنا وإن عاهدوا أو فووا وإن عقدوا شَدُّوا
وإن كانت النُّمى عليهم جَزَوْا بها وإن أنعموا لا كَدَّرَوْها ولا كَدُّوا
وإن قال مَرَلَاهُم على جَلِّ حَادِثٍ من الدهر رَدُّوا فَضْلَ أحلامكم رَدُّوا
لما استعطف الحطِيطَةُ عمر . بعد أن سجنه في هِجاء الزبرقان ، عفا عنه .

ثم قال له : إياك وهِجاء الناس . قال : إذآ يموت عيالى جوراً ، هذا مكسبى
ومنه معائى . وله في عمر قصيدة تصور ضيقه بهذا الحكم الصارم ، الذى
حرمه مرتزقه ، وأذهب هيبته بين الناس ، وقد اطمأنوا من شره ، وأمنوا
بهجاءه . وهو يسخر فيها من نظام بيت المال . يحرم عمر الشعراء ، ولا زرع لهم
ولا مال إلا ما يرتزقون به من شعر ، فهو أشأم عليهم من البسوس ، ويغدق
على العالج النازح . والعبد الأوكع ، والكاذب المحتال ، الذى يزعم له أن أمه
ماتت . وقد صدق ، ولكنها ماتت من عهد عاد ! وهو يسمى عمر ملكاً ،
لأنه لا يرى النبوة والخلافة إلا ملكاً ، ولا يفهم من الدين إلا أنه وسيلة
للسيطرة والسلطان ، كما سرى :

يأَيُّهَا الْمَلِكُ الذى أَمَسَتْ له بُصْرَى وَغَزَّةٌ سَهْلُهَا وَالْأَجْرَعُ
ومليكَدْها وقسيمُها عن أمره يُعْطَى بِأَمْرِكَ مَا تَشَاءُ وَيَمْنَعُ
أَشْكُو إِلَيْكَ فَأَشْتَكِي ذُرِّيَّةَ لَا يَشْبَعُونَ وَأُمَّهُمْ لَا تَشْبَعُ
كثُرُوا عَلَى فَمَا يَمُوتُ كَبِيرُهُمْ حَتَّى الْحَسَابِ وَلَا الصَّغِيرُ الْمُرْضَعُ
وَجَفَاءَ مَوْلَايَ الضَّئِينَ بِمَالِهِ وَوُلُوعِ نَفْسٍ مَهْمَا بَى مُودَعُ
وَالْحَرْفَةَ الْقَدْرَى وَأَنْ عَشِيرَنَا زَرَعُوا الْخُرُوثَ وَأَنَا لَا زَرَعُ
فَبُؤْسَتْ لِلشَّعْرَاءِ مَبْعَثٌ دَاحِسٍ أَوْ كَالْبَسُوسِ عَتَا لَهَا تَسْكَدَرُّغُ
وَمَدَّتْنِي شَتْمَ الْبَخِيلِ فَلَمْ يَخْفُ شَتْمِي وَأَصْبَحَ آمناً لَا يَفْزَعُ

وأخذت أطرار الكلام فلم تدع
 وبُعِثَتْ لِلدُّنْيَا تُجْمَعُ مَا هَا
 ومنعت نفسك فضائلاً ومنحتنا
 حتى يحىء إليك عِلْجٌ نازحٌ
 والعيلة الضعفاً ومن لا خيرة
 أم زعمت لهم! وماتت أمهم
 فلتوشكن وأنت تزعم أمهم
 شتماً يضُر ولا مديحاً ينفع
 ونضرُ جزيتَها ودأباً تجتمع
 أهل الفعّال فأنت خير مولع
 فيصيب عفوتها وعبد أو كع
 خير ومثلهم غناء أجمع
 في عهد عاد حين مات السبع
 أن يركبوك بثقلهم أو يرضعوا

سارعت القبائل والأشراف إلى إغداق النعم على الخطيئة، والتلطف إليه، قبل أن يسبقهم هجومه. نزل بنى مقلد بن يربوع وقد أقحمته السنة، فشى بعضهم إلى بعض، وقالوا: إن هذا الرجل لا يسلم أحد من لسانه، فتعالوا حتى نسأله عما يحب فنفعله، وعما يكره فنتجنبه. وقدم المدينة في سنة مجدبة، فجمعوا له مالا على أن ينصرف عنهم. وأقبل في ركب بنى عبس حتى قدم المدينة، فأقام مدة، ثم دخل على خالد بن سعيد بن العاص، فسأله فاعتذر إليه، وقال ما عندي شيء. فلم يعذ عليه الكلام، وخرج من عنده. فارتاب خالد، فبعث يسأل عنه. فأخبر أنه الخطيئة. فردّه. فأقبل الخطيئة فقعد لا يتكلم، فأراد خالد أن يستفتح الكلام، فقال. من أشعر الناس؟ قال: الذى يقول:

وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ ذَوْنِ عِضِهِ يَفِرُّهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشَّتْمَ يَشْتَمُ^(١)
 فقال خالد لبعض جلسائه: هذه بعض عقاربه، وأمر له بكسوة وحملا. فخرج بذلك من عنده.

وعظم شر الخطيئة، وذهب صيته في الهجاء، حتى اتقاه الشعراء. وقف مرة على حسان بن ثابت وهو ينشد — وحسان لا يعرفه — فقال حسان:

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى والخطيئة يصيب برده غرضين، فهو يحجب على سؤال الأمير بتفضيل

زهير، ثم هو يخوفه ويعرض به.

كيف تسمع يا أعرابي؟ قال: ما أسمعُ بأسا .

قال حسان: أما تسمعون إلى الأعرابي؟ ما كنتك أيها الرجل؟ قال: أبو مليكة . قال: ما كنتَ أهونَ علىَّ منك حينَ أكتنيت بامرأة، فما اسمك؟ قال: الخطيئة . فوقع اسمه من حسان موقع الصاعقة، فأطرق برأسه، ثم قال له: امض بسلام .

كان الخطيئة أعرابيا غليظا، كما تصوره هذه القصة، وكما يصوره شعره . وقد وصف القرآن الأعراب بقوله (الأعرابُ أشدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا، وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَصْلَحُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) وقد كان الخطيئة كذلك . كان فظا لم يرق قلبه لشيء، ولم يشرح صدره هذا الدين الجديد، لأنه يدعو إلى قانون أخلاق لا يعرفه، ولا يستطيع أن يسيغه . فهو لا يعرف من الحياة إلا القسوة والغلظة والعدوان . قست عليه الظروف، فقسا على الناس . وكان منافقا، لأنه يبيع نفسه لرغبة أو رهبة، كما وصف نفسه عند سعيد ابن العاص، حين سأله عن أشعر الناس، فقال: والله لجسبِكَ بي في رغبة أو رهبة، إذا رفعتُ إحدى رجلكي على الأخرى، ثم عريتُ في أثر القوافي، كما يمرى الفصيل وراء الإبل الصادرة .

كان هذا الرجل ملحدا بطبعه، وبحكم الظروف القاسية التي أحاطت به . فهو لا يستطيع أن يفهم أن في السماء عدلا، وأن في الأرض بشرا أطهارا . فهو غليظ القلب، لا يفهم من النبوة إلا أنها وسيلة للملك، يرثه الأبناء عن الآباء، ولا يرى الزكاة إلا مالا مفروضا لهؤلاء الملوك، يؤديه رعاياهم كارهين .

ولكنه منافق، يظهر الخضوع إذا لم يكن منه بد . وقد تعود دائما أن يخضع للقوة . فسكت حين قوى أمر النبي، ودخل فيما دخل فيه الناس . فلما مات النبي، وارتدت العرب، جهر بكفره، وراح يحرض الناس على الامتناع عن الزكاة، ويذم هذه القبائل التي ذلت بإعطائها من عبس وطىء

ودودان ، ويدعو الناس للخروج على أبي بكر . يقول : زعم محمد أنه نبي ، وقد أطعناه ، وأدينا له الزكاة ، فما بال أبي بكر ؟ أى طاعة له علينا ؟ وكأئنا توهم الحطيئة أن لأبي بكر ابنا اسمه بكر ، فزعم أنه سيورثه الملك من بعده ، (وتلك لعمر الله قاصمة الظهر !) .

ألا كلُّ أرْمَاحٍ قِصَارٍ أَذِلَّةٍ
فَدَاءُ لَأَرْمَاحِ رُكُوزٍ عَلَى النِّعَمِ (١)
فإن الذى أَعْطَيْتُمُوهُ أَوْ مَنَعْتُمُوهُ
لَكَائِشٌ أَوْ أَخْلَى خَلْفَ بَنِي فِهْرٍ (٢)
فَبَاسَتْ بَنَى عَبَسَ وَأَفْسَأَ طِيءٌ
وَبَاسَتْ بَنَى دُودَانَ حَاشَا بَنَى نَصْرٍ (٣)
أطعنا رسولَ الله إذ كان بيننا
فيا عجا ما بالَ دينِ أبي بَكْرٍ؟ (٤)
ليورثها بَكْرًا إذا مات بعده؟
فذلك وبَيِّتِ الله قَاصِمَةُ الظَّهْرِ
فَدَى ابْنَى ذِيانِ أُمَى وَخَالَتِ
عَشِيَّةَ يُحْدِى بِالرَّمَحِ أَبُو بَكْرٍ
أَبْوَاغِيرَ ضَرْبِ يَجْشَمِ الْهَامِ وَسَطْلَه
وطعنًا كَأَفْوَاةِ الْمَذِيقَةِ الْخُمْرِ (٥)
فقوموا ولا تعطوا اللئامَ مَقَادَةَ
وقوموا وإن كان القيامُ على الجَمْرِ

(١) ماء معروف .

(٢) بنو فهر هم قريش . وهو هو فريش نفسه جدمه إذا كبر .

(٣) هؤلاء قد أعطوا الزكاة . نصر بن معين من بنى أسد وهم من المانعين الزكاة .

(٤) الدين طاعة .

(٥) المرقمة أحر . يقصد بها القرب . يشبه الطعن بها لعدة تدفق الدم منه .

وقد دخل الخطيئة بعد ذلك في الإسلام ، حين استتب الأمر في الجزيرة ، ولكنه ظل في قرارته كافراً بعيداً عن الإيمان ، فهو يصر على رأيه في الخلافة ولا يراها إلا ملكاً . وهو يحسد عمر هذا الملك العريض ، الذي تجي إليه ثمراته وأمواله ، فيتصرف فيها كيف شاء .

يأَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي أُمِسَّتْ لَهُ بَصَرِي وَغَزَةُ سَهْلَيْهَا وَالْأَجْرَعُ وَمَلِكُهَا وَقَسِيمُهَا عَنْ أَمْرِه يُعْطَى بِأَمْرِكَ مَا تَشَاءُ وَيَمْنَعُ وَهُوَ إِذَا مَدَحَ عَمْرٌ . لَمْ يَرِ فِيهِ إِلَّا مَا يَرَى الْجَاهِلِي فِي مَدُوحِهِ ، فَهُوَ أَوْفَى قَرِيشَ جَبَالًا

وَأَطْلَبَتْهُمْ فِي النَّدَى بَسْطُهُ وَأَفْضَلَتْهُمْ حِينَ عَدَّوْا مَقَالًا يمدحه بشعر غث ، ليس عليه مسحة من الصدق ، بيد أنه صريح في الضيق بهذا العهد ، الذي حرم الشعراء ما كانوا يتمتعون به من حرية في القول ، ونفوذ بين الناس .

فَبِعِثْتُ لِلشُّعْرَاءِ مَبْعَثَ دَا حَسَّ أَوْ كَالْبَسُوسِ عِقَالَهَا تَكْوَعُ وَبِعِثْتُ لِلدُّنْيَا تَجْمَعُ مَالَهَا وَتَصْرُ جَزِيَّتَهَا وَدَابَّاتِجْمَعِ وَالْخَطِيئَةُ يَدَافِعُ عَنْ الْوَلِيدِ بْنِ عَقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ حِينَ حُدَّ عُثْمَانُ فِي الْخُرَى وَعَزَلَهُ ، وَقَدْ شَهِدُوا عَلَيْهِ أَنَّهُ صَلَّى بِالنَّاسِ ثَمَلًا ، ثُمَّ التَفْتُ إِلَيْهِمْ وَقَدْ تَمَّتِ الصَّلَاةُ ، فَقَالَ : أَأَزِيدُكُمْ ؟ وَهُوَ لَا يَرَى عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ بَأْسًا ، فَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْتَكْثِرَ لَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ ، وَهُوَ إِنْ عَزَلَ ، فَلَيْسَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ مِنْ ضَيْرٍ ، مَا دَامَ لَمْ يَرُدُّ إِلَى عَوَزٍ أَوْ فَقْرٍ .

شَهِدَ الْخَطِيئَةُ يَوْمَ يَلْقَى رَبَّهُ أَنْ الْوَلِيدَ أَحَقُّ بِالْعَذْرِ نَادَى وَقَدْ تَمَّتْ صَلَاتُهُمْ أَأَزِيدُكُمْ ؟ ثَمَلًا وَمَا يَدْرِي لِيَزِيدَهُمْ خَيْرًا ، وَلَوْ قَبَلُوا لَقَرَنْتَ بَيْنَ الشَّقْفِ وَالْوَتْرِ زَادَتْ صَلَاتُهُمْ عَلَى الْعَشْرِ فَابَوْا أَبَا وَهَبٍ وَلَوْ فَعَلُوا خَلَعُوا عَنَّا نَكَ إِذْ جَرَيْتَ وَلَوْ تَرَكَوْا عَنَّا نَكَ لَمْ تَزَلْ تَجْرِي

ورأوا شمائل ما جِدْ أنفُ يُعْطَى على الميسورِ والميسر
فنزعتَ مكذوباً عليكَ ولم تَرَدِّدْ إلى عَوَزٍ ولا فقْر
وقد ظل هجاء الخطيئة يحمل بعض آثار المنافرة ، فهو يعتمد على التفضيل
والمقارنة . يدخل بين الرجلين المتنافسين ، فيمدح أحدهما ويعرض بالآخر .
فيمتلىء الأول زهواً ، ويغلى الآخر حقداً . فتثور الفتنة بين الرجلين .
وتتغري العداوة بين الحيين . وهذا أسلوب بالغ الأثر في نفس العربي ،
لأنه بطبعه مفاخر مكثر ، ولأنه يبذل أتمن ما عنده لحسن الأحداث وطيب
الذكر ، ولأن الشعر يؤلمه من وجهين . وهو في نفس الوقت شديد الخطر
في بث الشر ، وإيقاظ الفتنة بين الناس . لذلك نهى عنه عمر ، وسماه الإقذاع .
قال للخطيئة حين أخرجه من السجن : إياك وهجاء الناس . قال : إذأ يموت
عيالى جوعاً ، هذا مكسبي ومنه معاتى . قال : فأياك والمقذع من القول .
قال : وما المقذع ؟ قال : أن تتخار بين الناس ، فتقول فلان خير من
فلان ، وآل فلان خير من آل فلان . قال : فأنت والله أهجى منى .

كان بين بغيض بن شماس بن لائى ، وبين الزبرقان بن بدر ،
ما يكون بين أبناء العم من تحاسد وتنافس . فلقي الزبرقان الخطيئة ، وقد
خرج بأهله في سنة مجدبة ، فبعث به إلى بيته ليقم فيه ريثما يعود ، وكان في طريقه
إلى عمر ، ليؤدى إليه صدقات قومه ، فأقام الخطيئة في بيته حيناً وهو غائب ،
لا يجد من زوجته كبير عناية ، فقد هان عليها ولم تكترث به ، لما رأت من
رثائته وسوء حاله . فما سمع بذلك بنو أنف الناقة — وهم بيت سعد قوم
بغريض — اغتتموا الفرصة ، فأرسلوا إليه يغرونه بجوارهم ، ولم يزالوا به
يطمعونه ، حتى رحل إليهم ، فأغدقوا عليه حتى مال إليهم ، ومدحهم معسراً حتى
بالزبرقان . فلما عاد هذا من سفرته ، ووجد الخطيئة قد انتقل إلى جوار بغيض ،
ولم يجد إلى عودته سبيلاً ، شكاه إلى عمر ، فغير الخطيئة بين الحيين ، فاختار
بنو أنف الناقة . وتتابع قصائده فيه . مشيراً إلى غصب الزبرقان وقومه ،

متعجباً من أمرهم ، فهو لم يبدأهم العدوان ، وإنما مدح ناساً أكرموه ، فأروا ذلك هجاء .

ولما أن مدحتُ القوم قلمتُ هَجَوْتُ ما يَحِلُّ لكَ الهجاء
فلم أَشْتِمَ لَكُمْ نسباً ولكن حَدَوْتُ بُحَيْثُ يَسْتَمَعُ الحِداءُ
ولم يزل يشتد على الزبرقان ، حتى شكاه إلى عمر ، فسجنه لإغرائه العداوة
بين الحيين . وكانت القصيدة التي سجنه فيها :

عَلَامَ كَلَفَتْني بَجْدَ ابنِ عمكم والعِيسُ تُخْرِجُ من أعلام أو طاس
وهو يقول فيها للزبرقان : ما ذنب بَغِيضٍ في بَاسٍ لَئِله فأغاثه ؟
لقد توددت إليكم متلطفاً ، كما يتلطف الخالب إلى الناقة ، يمسح ضرعها
مهدئاً روعها بإبساسه ، فلم تَدْرِوا . وانتظرت خيركم ، كما ينتظر الضيفُ
مجيءَ الإبل الصادرة عن الماء إلى الخنفس ، فطال ما انتظرت ، ولم أجد إلا
زهداً فيما أردت أن أكسوكم من مدح ، فأنا كالمقيم بين أرْماس ، تهزني
كلابكم وتجرحني بأنياب وأضراس ، ليس لجراحي منكم آسى ، فأرحتُ
نفسى باليأس من نوالكم (ولا ترى طارداً للحرِّ كالِياس) ، ثم هو يفتخر
بإحاطته بأنساب القوم :

أنا ابنُ بَجْدِهَا عَلِماً وَتَجَرِبَةً فَسَلَّ يَسْعَدِ تَجِدْنِي أَعْلَمُ الناس
ويأتى بعد ذلك البيت المشهور ، الذي عظم وقعه على الزبرقان .

دَعِ المكارم لا تَرْحَلْ لِبَغْيِهَا واقْعُدْ فإنك أنت الطَّاعِمُ الكاسى
ثم يمضى في المفاضلة بين الحيين

سِرى أَمَامُ فَإِنَّ الأَكْثَرِينَ حِصَى
مَنْ يَفْضَلُ الخَيْرَ لا يَعدِمُ جَرَّازِيَه
والأكرمين أبا من آل شماس
لا يَذْهَبُ العُرفُ بين الله والناس
من آل لَآئِ صَفَاةُ أَصْلُهَا راسى
مَجْداً تليداً وَنَبْلاً غيرَ أنْكَاس
قد ناضلوك فأبدوا من كَنائهم

وسكت الخطيئة على مضض . ثم استأنف شعره في بغض وفي الزرقان ،
على هذا الأسلوب في المفاضلة ، بعدموت عمر . وهو يعير الزرقان قتل عمر ،
ويقول زعمت أنك عزيز ، تريد أن تمنع الناس أن يجودوا بما لهم ، فقد كان
أولى بك أن تمنع صاحبك أن يقتل . . .

أَتَحْضُرُ قَوْماً أَنْ يَجُودُوا بِمَا لَهُمْ ؟ فَهَلَّا قَتَلِ الْهَرَمْزَانِ تَحَاصِرُهُ ؟
ثم يمضي في المفاضلة بين الحين على أسلوبه القديم :

فإن تك ذا عزٍّ حديث فإنهم ذوو إرثٍ مجدى لم تخشهم زوافره ^(١)
وإن تك ذا شاء كثير فإنهم دوو جامل لا يهدأ الليل سامرُه
وإن تك ذا قرمٍ أزبٍ فإنهم يلاقى لهم قرمٌ هجان أباعره ^(٢)
قروا جارك العين لما تركته وقلص عن بردِ الشراب مشافره ^(٣)

وخصلة أخرى . أتاحت لهجاء الخطيئة قوة وذيوعا ، وهى براعته
فى خلق الصور وابتكارها . وهذه موهبة نبغ فيها جرير من بعد ، وامتاز فيها
امتيازاً ظاهراً . فالخطيئة له بصيرة الهجاء الأصيل . فى الاهتداء إلى وجه
الشبه بين موضوع هجائه . وبين أشع النص . وأبعثها على الضحك ، وأدعاها
للزراية . انظر إلى هذا الرجل العنسى الخال . قبح وجهه ، حتى كأنه القرد ،
تروم عنده الحاجة ، فيكلح ويعبس . ايزيد وجهه قبحاً على قبح ، ثم هو يعطى
آخر الأمر عن يد صاغرا :

أبلغ بنى عيسى بأن نجسهم لؤم وأن أباهم كاهنجرس
يعلى الخسيصة راغباً من رامها بالضم بعد تكلح وتعبس

(١) الزاوية من البيت ركة ومن الرجل شعره رأصاده الذين يعزهم .

(٢) الربب فى الابن كثرة شعر لوجه والعتير وهو لا يكون فى كرامها . إبل هجان وهجان
يعنى كرام .

(٣) العيمة بفتح هاء شوية اللب والمعتل على غرد الشراب مشافره يقول صيفه هؤلاء
الناس وهو فى أسوأ حال من شدة البرد قد تقاضت ثماده والعرب تمدح بالكرم فى الشتاء خاصة لأنه
وقت الجدد ، يجرس فيه الناس على ما قدم

ثم انظر إليه، كيف صورهم بعد ذلك في قصيدة أخرى. رجال كالتيسوس، ونساء نماجين، كأنهن الآن دخل في أنفها الذباب، فهي تلوى رءوسها، وتذهب لوجهها نافرة، تنعر نعيراً قبيحاً.

لهم كفءٌ مثل التيسوس ونسوة نماجين مثل الآنثى النعيرات وانظر إلى وصفه لهذين الرجلين البخيلين، كيف يهربان من يغيهما، كأن أحدهما ضب عجوز، قد اتخذ جحراً في أرض صلبة، فإذا أحس الحارث أتقاه بذنبه (١)

حَمَدْتُ إلهي أَنَّنِي لم أَجِدْ كما
من الجوع مأوى أو من الخوف مهرباً
ضَيْبَانِ حَيَّيَّانِ فِي آمِنِ السَكْدَى
إِذَا مَا أَحَسَّ حَارِثَ اللَّيْلِ ذَنْباً

ثم انظر إلى هذا العبسي الذي يسوده قومه عليهم، وكأنه خصياً كبش ضخم، أُطلق هاملاً لا راعي له، ثم يقول إن أمه غلبت أباه عليه، فأشبهها دونه، ومن يدري من أين أتت به، فقد تجيء الأم بولدها من كل وجه.

لَقَدْ ذَهَبَتْ خِيَرَاتُ قَوْمٍ يَسُودُهُمْ
قَدَامَةُ خَصِيَا فَنَبَلِيٍّ مُهْمَلٍ (٢)
مَمَتَ قَلُوصاً بِالْمَطَالِي وَلَمْ يَكُنْ
بِنَايِكَ مِنْهَا غَيْرُ تَرْبٍ وَجَنْدَلٍ (٣)
وَعَرَّتْ عَلَيْكَ الْفَحْلَ سُدَاءُ جَوْنَةً (٤)

وقد تنجّل الأرحام من كل منجّل

(١) الحارث هو الذي يحترش الضباب أى يصيدها. وذلك بأن يحرك شيئاً عند فم جحر الضب فيظنه الضب أمي تدخل عليه فيخرج بذنبه فيمتلخه الحارث. وإنما يخرج بذنبه قبل رأسه.

(٢) الفنبل السكبش الضخم (٣) المطال موضع. القلوص الناقة الصغيرة

(٤) الفحل الذكر بقصد أباه. غزه غلبه. يقول إن أمه — وهى أمة سوداء — قد غلبت عليه

فأشبهها من دون أبيه. ومن يدري من أبوه ؟

والخطيئة بعد هذا من أكثر الناس توفقا لاختيار ألفاظه في أهاجيه ، لها رنين يوحى بالسخرية ، ويستفز للضحك في بعض الأحيان . انظر إلى ألفاظه في الآيات السابقة ، يشبه العبسي بالقرد ، فيختار للقرد لفظ (هجرس) ويشبهه تارة أخرى بالكبش ، فيختار له لفظ (فَنَبَلِي) وانظر إلى الألفاظ مجتمعة في هذا البيت (قَدَامَةُ خَصِيَّافَنَبَلِيٍّ مَهْمَلٍ) كيف تتصور من رنين الألفاظ وحدها شيئا هائلا ، ولكن لا غناء فيه ، جَعَجَعَةَ ولا طحن . ثم انظر أخيرا إلى هذه الغنم المخصية ، قد نبت الشعر على لحيتها ، فهي قيئة هزيلة ، كأن أحدها السهم الصغير يُجْعَلُ على رأسه الطين ، فيلعب به الصبيان ، يأخذها الرجل الذليل دية أخيه القليل . انظر إلى هذه الصورة كيف كساها الخطيئة لفظا ساخرا ، يملأ الاستخفاف رنين ألفاظه .

أخو المرءِ يُؤْتَى دونه ثم يُتَّقَى
بزُبِّ اللَّحَى جُرْدُ الخُصَى كالجَمَامِيحِ

الهجاء السياسى

نقصد بالهجاء السياسى ، الهجاء الذى يقوم على العصية للوطن ، فيهاجم كل مايؤذيه أو يهدد كيانه ، فالشاعر هنا يعبر عن جماعة هو أحدها ، ولا يكاد يحس شخصيته إلا فى حدود هذه المجموعة ، التى يرتبط مصيره بها كل الارتباط ، فهو يفنى فيها وجوده ، ويتجرد من نزاعاته وأهوائه ، ليحس بأحاسيسهم ، ويرى بأعينهم ، ويسمع بأذانهم . فشخصية الفرد هنا ضئيلة نخيلة ، لا تكاد تحس لها أثرا . والدولة أو الوطن شئ حى ، له وجود قوى ، وكيان ظاهر ملموس .

والوطن عند الجاهلين لا يصور حدوداً جغرافية معينة ، كما تتصور اليوم من هذه الكلمة . ولكنه يصور جماعة من الناس ، تربطهم أواصر من النسب ، صحبة أو مزعومة ، قد انبنت عليها حياتهم ، فعاشوا فى حدود هذا التصور الصحيح أو المزعوم ، وقد ارتبطت مصالحهم ، متضامين فى الخير والشر ، يداً واحدة على كل من عاداهم . وعلى هذه الأنساب ، قامت أحلافهم وحروبهم منذ عهد بعيد ، فاستقرت فى نفوسهم على مر الأيام ، وازدادوا بها إيماناً ، وقد صيرها الدم المسفوك والجهد المبذول شيئاً واقعاً ، وحقيقة مقررة .

كان الوطن إذن هو العصية . وهذه العصية هى القانون الوحيد الذى انبنت عليه حياتهم . ينصر الرجل منهم أخاه ويتعصب له ، ظالماً أو مظلوماً .

لا يسألون أخاهم حين يَشُدُّهُمْ فى النسابات على ما قال برهانا

الرجل وأخوه يدٌ واحدة على ابن العم ، وأبناء العم الأدنون يدٌ واحدة

على ابن العم البعيد ، وأبناء العمومة جميعاً يدٌ على المهاجم من الغرباء .

من أجل ذلك ، كان مفهوم العصية مرناً يتغير بتغير الظروف . فقد يضيق

حتى لا يشمل إلا البيت من البيوت ، أو البطن من البطون . وقد يتسع حتى

يضم القبيلة أو الشعب . فالأعشى مثلاً شاعر بكرى . إذا وقع بأس بكر بينهم فهو يمثل بيته من بنى سعد بن ضبيعة ، ثم بنى قيس بن ثعلبة ، يهاجم من آذاهم بمكرهه ، ويتغنى بمدحهم والإشادة بفضلهم . فإذا جمعت المحنة بين هذه البطون فى حرب كبيرة ، كحرب ذى قار ، حين يهاجم الفرس بكرا ، كان الصوت المعبر عن بكر بل عن وائل جميعاً ، متناسياً ما كان بين بطونهم من حزازات وأحقاد . وقد تأخذ العصبية بعد هذا شكلاً أعم ، فتكون بين اليمنية والعدنانية ، كالذى كان فى يوم خزاز ، حين اجتمعت ، مَعْدُ كلها على كليب وائل ، واجتمعت اليمنية إلى سَلَمَةَ بن الحرث بن عمرو بن آكل المُرَّار ، فسار إلى جموع نزار ، ثائراً لأخوته حجر وشراحيل ومُحَرِّق وشرحيل .

ولدينا من هذا الهجاء السياسى صور شتى ، من هجاء يصور ما بين القبائل من منازعات ومنافسات ، إلى هجاء يصور ما بين هذه القبائل ، وبين الملوك الذين يحاولون بين الحين والحين بسط نفوذهم ، فيفرضون عليهم الإتاوات ، مثل بنى آكل المرار ، وبنى الحارث بن معاوية ، الذين ساد منهم قيس بن معديكرب أبو الأشعث ، ومثل المناذرة والغساسنة . ولون ثالث من هذا الهجاء ، يصور ما صحب نشأة الدين الجديد الذى ظهر فى الجزيرة ، من قتال وكفاح فى سبيل نشره وإقراره .

وهذه الأنواع على اختلافها ، تشترك فى معظم مظاهرها . فالغضب والحماسة يختلطان فيها ويتداخلان ، حتى يصعب تخلص أحدهما من الآخر ، فلا يستطيع قارئ هذا الهجاء أن يقول ها هنا حماسة ، وها هنا غضب ، ولكنه واجد شعراً يفيض كل بيت من أبياته ، بل كل كلمة من كلماته ، بالغضب والحماسة أقوى ما يكونان .

فالشاعر إذا تعرض لتصوير العداء بين حزبه وبين عدوه ، صوره من جانبيه ، الجانب القوى ، والجانب الضعيف ، فتطغى عليه الحماسة حين يصور قوة حزبه مفتخراً ، ثم يغلبه الغضب حين يتجه إلى عدوه ناقماً متهدداً . ولكنه

في حماسته لا يبرأ من الغضب ، ولا هو في غضبه يخلو من حماسة .
والقارئ هذه الألوان من الهجاء ، لا يجد فيها الحقد الدفين ، والقرص
الحنفي . ولكنه يجد غضبا صريحا غير مقنع ، هو صورة من صحرائهم السافرة ،
ومثلهم الصريحة الواضحة ،

انظر إلى هذا الشاعر الضبي — عبد الله بن عَنَمَة — كيف صور ما بين
قومه بنى السيد (وهم مالك الضبي) وبين أبناء عمومتهم بنى زيد (وهم من
ذهل بن مالك الضبي) . يبدأ الشاعر مستخفا بالقوم ، فيقول :

إن بدا زيد في نفوس أبناء عمومته من بنى كوز ومرهوب شيئا خطيرا ،
فما نراه نحن خطيرا . ثم يلتفت إليهم قائلا : إن تسألوا الحق نعطيكم
ما تسألون غير مكابرين ، والدرع في حقيقته ، والسيف في قرابه . فإن أبيتم ،
فإننا لا نقبل الذل ، ولا نرضى الضيم ، فدونه شرب السم . فاتهموا يا بنى زيد
خييرا لكم ، ولا تخوضوا فينا . ازجروا حماركم أن يرتع بروصتنا ، فنحن
جديرون أن نرُدَّه مُضَبَّقا عليه ، مفتول القيد ، أشدَّ ما يكون الفتل ،
وإنه إذن لأشأم عليكم من داحس . فإن دعوتكم قومكم من ذهل أن يغضبوا
لكم ، فنحن نغضب لزعة . وإنكم لتعلمون أننا أكثر عددا وأعز نفرا .

ما إن تَرَى السَّيِّدَ زَيْدًا فى نفوسهم
كما يراء بنو كوزٍ ومرهوب
إن تسألوا الحقَّ نعطِ الحقَّ سائله
والدرعُ مُحَقَّبَةٌ والسيفُ مَقْرُوبٌ
وإن أبيتم فإننا معشرٌ أنفُ
لا نَطْعَمُ الذَّلَّ إن الشَّمَّ مَشْرُوبٌ
فازجرْ حمارك أن يرتع بروصتنا
إذا بُردَ وقيدُ العَيْرِ مَكْرُوبٌ

ولا يكونَنَّ كَجَرَى دَاحِسٍ لَكُمْ
 فِي غُطْفَانِ غَدَاةِ الشَّعْبِ عُرْقُوبٌ^(١)
 إِنَّ يَدْعُ زَيْدٌ بَنِي ذَهْلٍ مُغَضَّبَةً
 نَغْضَبُ لَزُرْعَةٍ إِنْ الْقَبِصُ مَحْسُوبٌ

وظاهرة أخرى يتميز بها هذا الضرب من الهجاء ، هي الاعتماد الكبير على التاريخ والأنساب . فترى الشاعر هنا أشبه بالمؤرخ . لأنه يصور مجد قبيلته ، معدداً أيامهم ، بما يبعث فيهم الزهو والحماسة . ويؤرخ ضعف أعدائهم ، معيراً هزائهم ، بما يوقع في نفوسهم أخزي والصغار ، ويجمع إلى هذا وذاك ، تاريخ الرجال من القبيلتين ، بما يلبس قبيلته الفخر . ويكسو أعداءهم العار . ولذلك كان لابد للشاعر المتصدي لهذا القصد ، أن يلم بالأخبار والأنساب إلماً حسناً . وهذا هو حسان ، يتصدى للدفاع عن الإسلام ، فيدله النبي على أبي بكر ، يستعين به فيما يحتاج إليه منها . وما يصور قيمة الأنساب وخطرها وشدة اهتمام الناس بها ، هذه القصة التي يرويها صاحب العقد في لقاء أبي بكر لدغفل ، وما كان بينهما من ملاحاة في الأنساب . وهي قصة طريفة ، تقدم لنا لونا جديداً من الهجاء الذي يعتمد على الأنساب ، وهو قريب الشبه بما رأيناه في المناقرة^(٢) . قال صاحب العقد ، بعد أن روى سنده عن علي بن أبي طالب : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على القبائل ، خرج مرة وأنا معه وأبو بكر ، حتى رفَعْنَا إلى مجلس من مجالس العرب ، فتقدم أبو بكر فسلم — وكان أبو بكر مقدما في كل^(٣) خَبَرٍ ، وكان رجلا نسابة .

(١) كان النزاع بين عيس وذيان بسبب رهان على الخيل . راهن قيس بن زهير العبسي على داحس والبراء وراهن حذيفة بن بدر الفزاري (من دبان) على الخطار والختفاء . ثم إن حذيفة حدى قيساً فأرصد في طريق خيله من صدها وبذلك كسب الزهان فكاو ذلك سبب الحرب . الشعب هو شعب الحيس . عرقوب اسم فرس .

(٢) القبص بكسر القاف وسكون الباء العدد الكثير . يقصد أنهم أكثر منهم عدداً .

(٣) العقد الفريد ٣ : ٢٧٤ . (٤) يقصد أنه كان عالماً بالأنساب وأخبار الناس .

فقال : ممن القوم ؟

قالوا : من ربيعة .

قال : وأى ربيعة أنتم ؟ أمن هامتها أم من لهازما ؟

قالوا : من هامتها العظمى .

قال : وأى هامتها العظمى أنتم ؟

قالوا : ذهل الأكبر .

قال أبو بكر : فنكم عوف بن محلم الذى يقال فيه لا حرّاً إلا بوادى عوف ؟

قالوا : لا .

قال : فنكم بسطام ذو اللواء ومنتهى الأحياء ؟

قالوا : لا .

قال : فنكم جساس بن مرة الحامى الذمار ، والمانع الجار ؟

قالوا : لا .

قال : فنكم الحوافزان قاتل الملوكة وسالها أنفسها ؟

قالوا : لا .

قال : فنكم المزدلف صاحب العمامة الفردية ؟

قالوا : لا .

قال : فنكم أخوال الملوكة من كندة ؟

قالوا : لا .

قال : فنكم أصهار الملوكة من لخم ؟

قالوا : لا .

قال أبو بكر : فلستم ذهلاً الأكبر أنتم ذهل الأصغر .

فقام إليه غلام من شيان ، حين بَقَلَ وجهه ، يقال له دغفل ، فقال :

إنَّ على سائِلنا أن نَسْأله والعِيبُ لا تَعْرِفُهُ أَوْ تَحْمِلُهُ

يا هذا إنك قد سألنا فأخبرناك ، ولم نكتمك شيئاً ، فمن الرجل ؟

قال أبو بكر . من قريش .

قال : بنخ . بنخ . أهل الشرف والرياسة . فمن أى قريش أنت ؟

قال : من ولد تيم بن مرة .

قال : أمكنت والله الراى من صفا الشجرة . أفنكم قصى بن كلاب ، الذى

جمع القبائل فسمى مُجَمَّعا ؟

قال : لا .

قال : أفنكم هاشم الذى هشم الثريد لقومه ، ورجال مكة مُسنِتُون عجاف ؟

قال : لا .

قال : فنكم شَيْبَةَ الحَمْد عبد المطلب ، مطعم طير السماء ، الذى

وجهه كالقمر فى الليلة الظلماء ؟

قال : لا .

قال : فمن أهل الإفاضة بالناس أنت ؟

قال : لا .

قال : فمن أهل الندوة أنت ؟

قال : لا .

قال : فمن أهل الرفادة أنت ؟

قال : لا .

قال : فمن أهل الحجابة أنت ؟

قال : لا .

قال : فمن أهل السقاية أنت ؟

قال : لا .

فاجتذب أبو بكر زمام الناقة ، ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال الغلام .

صَادَفَ دَرءُ السَّيْلِ دَرءَ أَيْدٍ فَعَفَ يَهْبِضُهُ حِيناً وَحِيناً يَصْدَعُهُ

فتبسم النبي عليه السلام .

قال على : وقعت يا أبا بكر من الأعرابي على بَاقِعَةٍ

قال : أجل .

قال : مامن طامة إلا وفوقها أخرى ، والبلاء موكل بالمنطق ، والحديث .

ذو شجون .

ومن أجمل الشعر الذي يصور هذه الظاهرة في الهجاء السياسي الذي يعتمد على التاريخ والأنساب مطولة الحارث بن حنظلة ، التي أنشدها بين يدي عمرو ابن هند ، حين رُفِعَ إليه ما بين تغلب وبكر من خلاف . ونحن نلخص هذه القصيدة الرائعة ، ونترك للقارئ الرجوع إلى النص في مصادره .

يبدأ الحارث قصيدته بذكر صاحبه أسما ، فقد آذنته بالبن ، بعد عهد لها يبرقه شماء ، وما كان مقامها مملولا ، ولا مرغوبا عنه . يذكرها الشاعر في أسى هادئ ، متنقلا بين الأماكن التي كانت تحملها ، فإذا هاجته الذكرى بكى ، وإن كان يعلم أن البكاء لا يرد فائتا ، ثم لا يلبث أن ينصرف إلى ناقتة ، يستعين بها على الهم ، فيشبهها وهي تسرع به في الصحراء بالنعامة قد أفرعها القناص ، والظلام مقبل عليها ، ويصف الغبار الذي تثيره خلفها ، وقدار ترفع في الفضاء لسرعتها ، ثم بدأ يتساقط على الأرض إذ بدعت عنه . وهو يستغرق في هذه المقدمة أربعة عشر بيتا ، ينتقل بعدها إلى غرض قصيدته ، وما بين قومه وبين الأرقام — وهم بعض بطون تغلب — من عداء .

وهو لا يهاجم الأرقام بادية الأمر . بل يتلطف في شبه عتاب ، ثم يشتد ذلك العتاب فيصبح تقريعا ، ثم تعييرا ، ثم مهاجمة عنيفة .

يقول : إنكم تخلطون البرى منا بذى الذنب حتى ما ينفع البرى براءته وكأن كل صاحب جريرة مولى لنا نحن عنه مسئولون . ثم يصفهم وقد استعدوا للقتال ، فأجمعوا أمرهم بليل ، ثم أصبحوا ولهم جلبه وضوء . من مُتَنَادٍ ومن مُجِيبٍ ومن تَضْهَالٍ خَيْلٍ خَلَالَ ذَاكَ رَغَاءٍ

ثم هم لا يزالون يغرون بهم الملك عمروا ، ويطنون أنهم غافلون . ومن قَبْلُ ما قد وشى بهم الأعداء ، فلم يضرهم ذلك شيئا ، وظلوا على الشَّيْءِ والبغض ، تمنعهم حصون وعزة قعساء ، لا يزالون أن تَبْيَضَّ عيونُ الناس غيظا وحسدا . فهم كالجبل الراسخ الضارب في السماء ، تنشق عنه السحب ، وقد بدا مكفهرًا ، لانثال منه أحداث الدهر وإن جلت وعظمت .

ويتجه بعد ذلك إلى تغلب قائلا : أَيُّمَّا خُطَّةٍ أَرَدْتُمْ فَأَذُوها إِلَيْنَا ، يَتَشَاوَرُ فِيهَا أَشْرَافُنَا وَأَشْرَافُكُمْ ، فنحن معكم فيما تريدون . إن نبشتم ما بين « مَلْحَةٍ » و « الصَّاقِبِ » ، حيث كانت المعارك ، وجدتم من قتلانا أحياء أخذ بئارهم ، ووجدتم من قتلناكم أمواتا لم يثأر لهم . أو استقصيتُم أمرنا وأمركم ، فكنتُم كالنَّاقِشِ الذي يستخرج الشَّوْكَ ، فقد يَجْشِمُ الناس النَّقْشَ ^(١) على ما فيه من ألم ، بغية الشفاء . أو سكتُم عنا ، فكنا كمن أغمض عينا في جفنها أقذاء ..

أو منعم أن تجيبوا إلى شيء مما تُسألون ، فمن فيما نعلمون له علينا فضل أو علاء ؟ ويعرض الشاعر بعد هذا قوة قومه ، فيصورهم في تاريخهم الطويل ، وأيامهم المظفرة ، أروع تصوير . يقول :

هل علمتم أيام يُنتَهَبُ النَّا	سُ غَوَاراً لكل حَيٍّ غَوَا
إذ رفعا "جِمال من سَعَفِ	بَحْرَيْنِ حَتَّى نَهَاها الحِمْسَاءُ
ثم مِلْنَا على تَمِيمٍ فَأَحْرَمَ	نَا وَفِينَا بَنَاتُ قَوْمِ إِمَاءُ
لَا يُقِيمُ العَزِيزُ بِالْبَلَدِ السَّمِ	لِ وَلَا يَنْفَعُ الذَّلِيلُ النَّجَاءُ
ليس يُنْجِي الذي يُوَاتِلُ مِنَّا	رَأْسُ طَوْدٍ وَحَرَّةٍ رَجَلَاءُ
ويختم ذلك الفخر القوي بقوله	

فَلَمْ كُنَّا بِذَلِكَ النَّاسِ حَتَّى مَلِكِ الْمُنْذِرِينَ مَاءِ السَّمَاءِ

ولم يشأ الشاعر أن يمر بالمنذر ، من غير أن يستميل إليه ابنه عمرو بن

(١) النمش استخراج الشوك من الجسم إذا دخلت فيه .

هند ، بالثناء عليه ، فوصفه بأنه (مَلِكٌ أَضْرَعُ الْبَرِّيَّةِ لَا يَسُوجِدُ فِيهَا لِمَا لَدَيْهِ كِفَاءً) .

ثم عاد الشاعر إلى التغليين ، يهددهم وينذرهم سوء عاقبة طغيانهم وعدوانهم ، وتناسيهم ما تعاقدوا عليه في ذى الجاز ، وما قُتِّمَ فيه من عقود وكُفْلَاء ، حذر الجور والتعدي . ثم هم بعد ذلك ينقضون ما عاهدوا عليه . ومن عَجَبٍ أَنْ تَنْقُضَ الْأَهْوَاءُ مَا سُجِّلَ فِي الصُّحُفِ !

وجرى الحارث بعد هذا على تعييرهم . فسلك لذلك طريقاً يسلكه كثير من الناس حين يتلاحزون ويغير بعضهم بعضاً . فهو يقول لهم : أتلموننا ذنوب قوم كذا ... أم قوم كذا ... أم كذا . ؟ ويمضى معدداً القبائل التي قهرتهم ، وهو يقول : ما ذنبنا فيما فعل هؤلاء .. يلطمونكم فلا تستطيعون لأنفسكم دفعا ، ولا أتم تنصرون ، ثم تتجنون علينا ، كأن لهم الغشيم وعلينا الجزاء . إن تلموننا هذه الذنوب فعننا ما تفعلون وظلماً ، كما يُذَبِّحُ الظَّيِّ عَتِيرَةً (١) بدل الشاة وما هو بالمنذور .

ويعود إلى سابق تعييره ، فيذكرهم هزيمة تميم لهم ، ويصف الواقعة ، ويضبط مكانها ، ويحدد عدد المغيرين ، وما كان من محاولة تغلب نيل ثأرهم ، ورجوعهم خائينين ، ثم إطلال الغلّاق دماءهم وإهدارها .

وتمانون من تميم بأيديهم فما ح صدورهن القصاء
لم يحلوا بنى رزاح ببرقاء نطاً ع لهم عليهم ذُعَاء (٢)
تركوهم مثل حبين وآبوا بنهاب يصم منه الحداء
ثم جاءوا يسترجعون فلم تثر جع لهم شامة ولا ينضاء
ثم قاموا منهم بقاصمة الظنهر ولا ينبرد الغليل الماء

(١) العتيرة ذبيحة تذبح للاصنام في رجب . وقد كان الرجل ينذر إن بلغ الله غم مائه أن يذبح منها واحدة للاصنام . ثم ربما ضفت نفسه بها ، فأخذ ظييا فذبحه مكان الشاة الواجبة عليه
(٢) برقاء نطاع اسم مكان : يعيرهم أنهم أحلوا عارم هؤلاء القوم بذلك المكان .

ثم خيلُ من بعد ذلك مع الفَلاق لا رَاقَةَ ولا إِبْقاءُ
 ما أصابوا من تغلبى فَسَطَطُوا لهُ عليه إذا أُصِيبَ العَفَاءُ
 ويختم الحارث قصيدته بمحاولة ناجحة لاستمالة الملك إلى جانب قومه ،
 فيتجه إلى بنى تغلب قائلا: يا مبلغا عنا الوشاية عمرا ! كفاك فعمرو يعرفنا ،
 ولنا عنده من المكرمات وحسن السيرة ما يملأ نفسه اطمئنانا إلينا . ثم
 يذكر الملك بوفاء قومه له ولأجداده ، فيقول إن لنا عنده من الخير آيات
 ثلاثاً فى كلهن القضاء .

أولها — مساعدتنا للملك الحيرى عند غارة اليمين . إذ جَبَّهْنَاهُمْ بطعن
 يندفع الدم من آثاره اندفاع الماء من أفواه القرب ، حتى ولوا هارين ،
 تَدَمَّى كلُّهُمْ مُهْم على أعقابهم .
 وقد وصف جيش اليمين بآفته كان يجمع طوائف مختلفة ، (لكل حى لواء) ،
 أحاطت كلها برئيس يَمْنَى ، برز من بينهم كأنه هضبة عالية ، ومع الجيش
 جمع من النساء الكريمات ، اللاتي لا يأمرهن رجل . وإنما تحكم فيهن كريمة
 من بينهن — ومن بعد ذلك هزمنا حُجْر بن أم قَطَّام السكندى ، حين
 سار لغزو امرىء القيس الثانى — جد عمرو بن هند — يقود كتيبة فارسية
 قد علا دروعها الصدا ، فأنهلنا الرماح من أجسامهم ، كما تتحرك الدلاء فى البئر
 صاعدة هابطة .

وثانى هذه الآيات فَسَكَّنَا أغلال امرىء القيس (أخى الملك) ، وإنقاذه
 بعد أن طال حبسه والعناء . وقتلنا ملك غسان قَدَوْدًا بالمنذر بن ماء السماء ،
 وأسرنا من بنى آكل المُسرَّار تسعة أملاك أسلابهم أغلاء ، وهزيمتنا الجَوْن
 حين خف لإنقاذهم يقود جيشا من الأوس .

وثالث هذه الآيات ما بيننا وبين الملك من قرابة . فنحن ولدنا الملك عمرا
 من أم أناس الشيبانية جدته لأمه . وهذه القرابة حقيقة أن توجب له علينا
 الإخلاص والوفاء .

وبهذه الخاتمة الرائعة يختم الحارث قصيدته ، وقد ضمن أنه ترك في الملك أثراً عظيماً ، وعطفه على قومه .

وللشاعر هنا صفتان بارزتان . فهو محام يتولى الدفاع عن قومه ، في أسلوب خطابي رائع ، يجمع بين التأثير والإقناع . ثم هو مؤرخ قصاص ، قد وعى التاريخ والأنساب ، وأحاط بهما أدق إحاطة .

وأروع ما في القصيدة سهولتها التي تصور طبعاً شعرياً سمحاً صافياً ، وألفاظها التي تجمع بين قوة التعبير والإيجاز المثير ، وترتيبها الذي يصور إلى جانب القدرة الشعرية موهبة خطابية ممتازة .

وأقوى ما يكون هذا اللون من الهجاء ، حين يهاجم الملوك والدول الكبيرة ، التي تحاول بسط سلطانها على من جاورها من القبائل . لأن الشعر يبدو في مثل هذه المواطن ، معبراً عن عاطفة إنسانية ، أعم وأشمل مما نجد في ذلك الهجاء ، الذي يصور نزاعاً بين القبائل ، هو قريب من النزاع الفردي . فهو شعر يصور الحرية ومقاومة الطغيان ، ويستند إلى عاطفة إنسانية دائمة ، تجد من يتجاوب معها ويتأثر بها في كل عصر ومكان . أما ذاك ، فشعر يقوم على منفعة الفرد ، وكل ما يستند إليه من المثل . هو القوة المطلقة ، التي تجعل صاحبها محقاً في كل ما يأتي وما تنال يده .

ومعظم هذا الهجاء في القبائل القريبة من العراق . وهو شعر نادر ، يصور إباء هذه الجماعات لظلم المناذرة ، وما يفرضون عليهم من إتاوات غير عادلة . والعربي بطبعه ينفر من السلطان المنظم ، ويأبى أن ينزل على حكم المُحْتَـسِـكَم ونحن نقدم بعض مختارات من هذا الشعر :

قال جابر بن حُـنَـسَى التغلبي ، يصور ما آل إليه قومه من ذل ، وقد فرق بينهم الشر ، بعد أن كانوا يدا واحدة ، وهدم بنيانهم ، بعد أن كان متيناً مشيداً . صاروا إلى قبول الديات ، وكانوا ينزلون الثغر المَخُوف ، فتواضع لهم مَخَارِمُهُ . وهو يصور فيما يصور من الذل الذي لحق قومه ، هذه الإتاوات

التي يؤدونها كارهين لجباة المناذرة ، ويتهددهم مينا قوة قومه وجلدهم
على الحروب :

لَتَغْلِبَ أَبْكَى إِذَا ثَارَتْ رِمَاحُهَا
غَوَاثِلُ شَرٍّ يَبْنِيهَا مُتَشَكِّمٌ*
وكانوا هم البانين قبل اختلافهم
وَمَنْ لَا يَشِدُّ بِنْيَانَهُ يَهْدَمُ
بِحَى كَكُوئِلِ السَّفِينَةِ أَمْرُهُمْ
إِلَى سَلَفٍ عَادٍ إِذَا احْتَلَّ مُرْزَمٌ^(١)
إِذَا نَزَلُوا الشَّغَرَا لَخُوفٍ تَوَاضَعَتْ
مَخَارِمْهُ وَاحْتَلَهُ ذُو الْمَقْدَمِ^(٢)
أَنِفَتْ لَهُمْ مِنْ عَقْلٍ قَيْسٍ وَمَرُئِدٍ
إِذَا وَرَدُوا مَاءَ وَرْمُحِ ابْنِ هَرْمِ^(٣)
وَيَوْمَا لَدَى الْحَشَارِ مَنْ يَلْبِسُ حَقَّهُ
يُزْبِرُزُ وَيُنْزَعُ ثَوْبُهُ وَيُلْطَمُ^(٤)
وَفِي كُلِّ أَسْوَاقِ الْعِرَاقِ إِنَاوَةٌ
وَفِي كُلِّ مَا بَاعَ أَمْرٌ مَكْسُ دِرْهَمٍ
وَقَيْظُ الْعِرَاقِ مِنْ أَفَاعٍ وَغَدَّةٌ^(٥)
وَرَعَى إِذَا مَا أَكَلُوا مُوَحِّمٌ

(١) كُوئِلُ السَّفِينَةِ ذَنْبُهَا الَّذِي تُوْجِهُ بِهِ (الدفة) يَقُولُ لِمَنْ يَقِيمُونَ أُمُورَ النَّاسِ كَمَا يَقِيمُ السَّكَّانُ السَّفِينَةَ . مُرْزَمٌ عَلَى صِيغَةِ اسْمِ الْفَاعِلِ مِنَ الرِّزْمَةِ ثَلَاثُ فَتَحَاتٍ وَهِيَ الْجَلْبَةُ وَالضَّجَّةُ .

(٢) الْحَارِمُ جَمْعُ حَرَمٍ وَهِيَ الطَّرِيقُ الرَّوْعَةُ فِي الْجِبَالِ .

(٣) رَمَحُ بْنُ هَرْمٍ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ وَالْعَقْلُ الدِّبْيَةُ . يَتَأَلَّمُ لِأَنَّ قَوْمَهُ صَارُوا مِنْ أَدْلٍ بِحَيْثُ لَا بِأَحْذُونَ نَارَ قَتْلَامٍ وَلَكِنَّهُمْ يَقْبَلُونَ دِيَارَهُمْ مِنَ الْإِبِلِ فَيُغِيرُونَ بِهَا حِينَ تَرْدُ الْمَاءِ .

(٤) الْخُشَارُ الْجَانِبُ الَّذِي يَجْمَعُ الضَّرَائِبَ . يَلْوِي يَحْمِلُ . لَابِزَةُ السُّوقِ الشَّدِيدُ وَالِدَفْعُ الْعَنِيفُ .

(٥) الْغَدَّةُ طَاعُونُ الْإِبِلِ . أَكَلُوا كَثْرًا كَثُومٌ . مُوَحِّمٌ وَيْلٌ خَيْرٌ مَرَى .

ألا تستحي منا ملوك وتثقي
نُعاطي الملوك السلم وما قصدوا بنا
وكان أزرنا الموت من ذى تحية
وقد زعمت بهراء أن رماحنا
فيوم الكدلاب قد أزلت رماحنا
لينز عن أرماعنا فأزاله
تناوله بالرح ثم اتنى له
وكان مُعاديننا تهرُّ كلابه
وعمرؤبن هند قد صقعننا جبينه
يرى الناس منا جلد أسود سالخ
وقال يزيد بن الحذاق الشنئى — وهو شاعر من عبد القيس — يهدد
النعمان ، ويتهمة بالخيانة والخداع ، وبأنه يضرهم لهم الشر . ويقول إنه قد
ركب أنوفهم جهلا منه وغرورا . ويستخف به قائلا ها نحن أولاء ننتظر
ما تستطيع أن تفعل بنا :

أعددت سبحة بعد ما قرحت
لن تجمعوا ودى ومعتبى
نُعمان إنك عائن خدع
فاذا بدا لك نسخت أنلتنا

وليسنت شكاة حازم جلد^(١)
أو يجمع السيفان في غمد^(٢)
يخني ضميرك غير ما تبدي
فعلينكها إن كنت ذا حر^(٣)

(١) أسف دنا . مأثم إنهم .

(٢) الشقاء الطويلة من الحيل . الصلدم الصلبة .

(٣) الأسود العظيم من الحيات . الضرغام والضمير الأسد .

(٤) سبحة اسم فرسة . فرحت تحت أسنانها فى الحامسة من عمرها . الفكك السلاح .

(٥) المنة المودة والمعادة . (٦) الحرد القصد والتعمد .

يَا بِي لَنَا أَنَا ذَوُو أَنْفٍ وَأُصُولُنَا مِنْ مَحْتَدِ الْمَجْدِ
 إِنْ تَغْزُ بِالْخِرْقَاءِ أُسْرَتْنَا تَلْقَى الْكِتَابِ دُونَنَا تَرْدِي^(١)
 أَحْبَبْنَا لِحِمَا عَلَى وَضَمٍّ أَمْ خَلَّتْنَا فِي الْبَاسِ لَا تُجْدِي
 وَمَكَّرْتَ مُغْتَلِبًا نَحْنُ تَنَا وَالْمَكْرُ مِنْكَ عِلَامَةُ الْعَمْدِ^(٢)
 وَهَزَزْتَ سَيْفَكَ كَيْ تَحَارِبَنَا فَانْظُرْ بِسَيْفِكَ مَنْ بِهِ تَرْدِي
 وَأَرَدْتَ خُطَّةَ حَازِمٍ بَطْلٍ حَيْرَانَ أَوْ بَقَّةُ الَّذِي يُسْدِي
 وَلَقَدْ أَضَاءَ لَكَ الطَّرِيقُ وَأَنْهَجْتَ سَبِيلُ الْمَسَالِكِ وَالْهَدَى يُعْدِي^(٣)

وقال أيضاً يهجو النعمان ، وقد آلى أن يغزوه . يقول له : تحلل من
 قسمك ، فما أظنك قادراً على البر به . ثم يتهدهه قائلاً : أقيموا عنا صدوركم ،
 فلستنا ملاحين أذلاء ، نعطي المَكُوسَ من يطلبها ، وإن لنا من القوة
 ما يردك عما تريد بنا من ظلم :

أَلَا هَلْ أَنَا هَلْ أَنْشَكَةُ حَارِمٍ لَدَيْ وَأُنْقِي قَدْ صَنَعْتَ الشَّمَمَوْسَا^(٤)
 وَدَاوَيْتُهَا حَتَّى شَتَّتْ حَبَشِيَّةَ كَانَ عَلَيْهَا سُنْدُسًا وَسَدُسَا^(٥)
 قَصَرْنَا عَلَيْهَا بِالْمَقِيطِ لِقَاحِنَا رِبَاعِيَّةَ وَبَازِلًا وَسَدِيسَا^(٦)
 فَاضْتَكَيْتِ الرَّبْلَ تَنْزُو إِذَا نَزَتْ عَلَى رِبْذَاتٍ يَغْتَسِلِينَ خُنُوسَا^(٧)

(١) أراد بالخرقاء الخطة الخرقاء أو الصفة الخرقاء بقصد الجهل والتهور . الرديان أسرع من المشي
 وأقل من الجري .

(٢) الخنة الأنثى .

(٣) أنهت وضحت . يعدى يعين ويقوى . يقول قد وصحتك خفيقتنا فاتبع الحق يذكرك على طريقك

(٤) الشموس اسم فرس آخر له . وصنعته أحسن القيام عليه .

(٥) مداواة الفرس علاجها وتضميرها .

(٦) اللقاح جمع لقوح وهي الناقة الحلوب يقول . إنه كان يكرم هذه الفرس لأنه كان يدها للقتال .

مكان يسبقها لبن هذه الأبل . الرباعية والبازل والسديس اسماء للابل في أطوارها المختلفة .

(٧) أضت رجعت . يقصد بالتييس هنا . ذكر الظباء والربل نبت يرباه . تنزو تثب . ريبذات خفيفات

يعنى فوائم الفرس . خنوساً تخفى من جربها أى تخفية فلا تنزل كل جدها .

نُعِدُّ لِيَوْمِ الرَّوْعِ زَعْفًا مُفَاضَةً
 دِلَاصًا وَذَا غَرْبٍ أَحَدٌ ضُرُوسًا^(١)
 نَجِيدٌ عَلَيْهَا الْبَرْقُ فِي كُلِّ مَا زَرِقَ
 إِذَا شَهِدَ الْجَمْعُ الْكَثِيفُ خَيْسًا^(٢)
 تَحُلُّ أَيْتَ الْمُتَعْنِ مِنْ قَوْلِ أَتَمِّمِ
 عَلَى مَالِنَا لِيُقَسِّمَنَّ خُمُوسًا
 إِذَا مَا قَطَعْنَا رَمْلَةً وَعَدَّابَهَا
 فَإِنَّ لَنَا أَمْرًا أَحَدٌ غُمُوسًا^(٣)
 أَقِيمُوا بَنِي النُّعْمَانِ عَنَّا صُدُورَكُمْ
 وَإِنْ لَا تُثْقِمُوا كَارِهِينَ الرُّوسَا
 أَكَلْتُ لَيْسِمٍ مِنْكُمْ وَمَعَايَجَ
 يَعْدُ عَلَيْنَا غَارَةٌ نَخْبُوسًا^(٤)
 أَلَا ابْنَ الْمُعَلَّى خَلَّتْنَا وَحَسِبْنَا
 صَرَارِي نَعْطِي الْمَاكِسِينَ مَكْنُوسًا^(٥)
 فَإِنْ تَبَعَّشُوا عَيْنًا تَمَنَّى لِقَاءَنَا
 تَجِدُ حَوْلَ أَيْتَانِ الْجَمِيعِ جُلُوسًا

(١) الرِّوْعُ الدُّرْعُ الثَّيْبَةُ . مُفَاضَةٌ وَاسِعَةٌ . دِلَاصٌ مِهْلَةٌ . غَرْبٌ كُلُّ شَيْءٍ حَدٍّ وَبِقَصْدٍ بَدَى
 غَرْبُ السَّيْفِ . الْأَحَدُ الْخَفِيفُ . الضُّرُوسُ الشُّرْسُ الْمَيِّءُ الْخَلْقُ يَصِفُ السَّيْفَ بِذَلِكَ .

(٢) الْبَرْقُ السَّلْبُ .

(٣) الْعِدَابُ الْخَيْلُ مِنَ الرَّمْلِ . أَخَذَ شَدِيدًا . غُمُوسٌ غَامِصٌ .

(٤) الْعِلْجُ الْأَعْجَمِيُّ الَّذِي لَيْسَ عَرَبِيًّا . وَالْمَعْلُوحُ مُشْتَقٌّ مِنْهُ . وَمَنْ لَيْسَ خَالِصٌ الْعَرَبِيَّةَ . يَتَمَّ الْمُنَادَرَةُ
 بِأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَرَبِيًّا خُلَاصًا لِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ مِنَ وَلَانِهِمُ لِلْفَرَسِ . الْخُمُوسُ بَعْضُ الْخَاءِ الْعَظِيمِ .

(٥) صَرَارِي مَزْحُونٌ . الْمَاكِسُ الْخَافِي . الْمَكْنُوسُ الْبُضْرَانُ .

وقال المُتَلَمِّسُ يهجو المتأذرة — وهو من ضبيعة بن ربيعة —

يبدأ قصيدته بذكر الموت، وأنه حتم على كل حي، فمن العجز أن يقبل الناس
الضيم مخافة موت هم صائرون إليه على كل حال . وهو يتهم بالنعمان، قائلاً:
«هَلُمَّ فَقَدْ تَزَعَرْتَ زُرُوعُنَا، وَأَخْصَبْتَ أَرْضُنَا، لِلذَّبَابِ وَالزَّنَائِيرِ فِيهَا طِينٌ .
هَلُمَّ إِنْ اسْتَطَعْتَ فَاغْزِنَا . إِنَّكَ إِذْنٌ وَاجِدٌ مَنْ يَرِدُكَ . فَنَحْنُ نَقَابِلُ الْوُدِّ بِالْوُدِّ ،
وَلَكِنْ فِينَا إِبَاءٌ وَشِمَاسٌ عَلَى الظَّالِمِ الْغَاشِمِ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَرْءَ رَهْنٌ مَنِيَّةٌ

صَرِيحٌ لَعَا فِي الطَّيْرِ أَنَّ سَوْفَ يُرْمَسُ^(١)

فَلَا تَقْبَلَنَّ ضَيْمَهُ مَخَافَةَ مِيتَةٍ

وَمُوتَنَّ بِهَا حُرّاً وَجِلْدَكَ أَمَاسٌ^(٢)

فَإِنَّ طَلَبَ الْأَوْتَارِ مَا حَزَّ أَنْفَهُ

قَصِيرٌ وَخَاضَ الْمَوْتَ بِالسَّيْفِ يَنْهَسُ^(٣)

نَعَامَةٌ لَمَّا صَرَّعَ الْقَوْمَ رَهْطُهُ

تَبَيَّنَ فِي أَثْوَابِهِ كَيْفَ يَلْبَسُ

وَمَا النَّاسُ إِلَّا مَا رَأَوْا وَتَحَدَّثُوا

وَمَا الْعَجْزُ إِلَّا أَنْ يُضَامُوا فَيَجْلِسُوا

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْجَوْنَ أَصْبَحَ رَاسِيَا

تُطِيفُ بِهِ الْأَيَّامُ مَا يَتَأَيَّسُ^(٤)

(١) صريح لعافى الطير يموت في معركة فتترك جثته للطيور والسباع .

(٢) جلده أُمس أراد وأنت برىء من العار . ولم يرد بالطلع أنه برىء من الجراح .

(٣) قصير هو صاحب جذبة الأبرش يشير إلى قصته مع الزباء الرومية . وكان قد جدد أنفه .
وتوصل إلى خدمتها حتى أخذ بثأره . يهس رجل من بني فزارة كان يهوق وكان يلقب (نعامه) قتل
له سبعة إخوة فجعل يلبس القميص مكان السراويل والسراويل مكان القميص حتى توصل إلى أن طلب
بهداء إخوته .

(٤) الجون حصن بالجماعة يقال إنه من بناء طم وحديس وهم من العرب البائدة . مايتأيس لايلين .
يقول إن قومه في حصن حصين . ويقول إن هذا الحصن قد استعصى على تبع لماغزى المدن والقرى .
والصفيح الحجارة العراض .

عَصَى تَبَعًا أَيَّامَ أَهْلِكَتِ الْقُرَى
يُطَانُ عَلَيْهِ بِالضَفِيعِ وَيُكَاسُ
هَلُمَّ إِلَيْهَا قَدْ أَثِيرَتْ زُرُوعُهَا
وَعَادَتْ عَلَيْهَا الْمُنْجَنُونَ تَكْدَسُ (١)
وَذَاكَ أَوَانُ الْعَرِضِ جُنَّ ذُبَابُهُ
زَنَائِيرُهُ وَالْأَزْرَقُ الْمُتَلَمَّسُ (٢)
يَكُونُ نَذِيرٌ مِنْ وَرَائِ جُنَّةٍ
وَيَنْصُرُنِي مِنْهُ جَلِيٌّ وَأَحْمَسُ (٣)
وَجَمْعُ بَنِي قُرَّانٍ فَاعْرَضْ عَلَيْهِمْ
فَإِنْ يَقْبَلُوا هَاتَا أَلْتِي نَحْنُ نُؤَبْسُ (٤)
فَإِنْ تُقْبَلُوا بِالْوَدِّ تُقْبَلُ بِمَثَلِهِ
وِإِلَّا فَإِنَّا نَحْنُ آبِي وَأَشْمَسُ
وَإِنْ يَكْ عَنَا فِي حَجِيبٍ تَتَأَقَّلُ
فَقَدْ كَانَ مِنْهُ مَقْسَبٌ مَا يُعْرَسُ (٥)
وَقَالَ أَيْضًا يَتَهَدَّدُ عَمْرُو بْنُ هَنْدٍ ، وَيَسْخَرُ مَا يَزْعَمُ لِنَفْسِهِ مِنْ حَقُونٍ
عَلَى النَّاسِ :

أَلَاكَ السَّدِيرُ وَبَارِقُ وَمَرَّابِضُ وَلَكَ السَّخُورَاتُ (٦)
وَالْقَنْصَرُ ذُو الشَّرَفَاتِ مِنْ سِنْدَادٍ وَالنَّخْلُ الْمُبَسَّقُ

(١) المنجنون الدواب التي يستعمل في رى الأرض . تكدس يركب بعضها بعضها في الدوران .

(٢) العرض من أودية العجاة . جن ذبابة كثر ونشط . رأبيره بدل من الذباب وكذلك الأزرق المتلمس وهو يشير به إلى نوع آخر من الدباب .

(٣) جلي وأحمس طلون من قومه ضيعة بن ربيعة . ونذير هو ابن هنت بن وهب .

(٤) الأيس القهر . يقول اعرض هذه الخطة لشكركم إلى قومنا إياها على نبي قران وانظروا هل يقبلونها .

(٥) الماتب زهاء ثلاثمائة من الخيل . التمريس نزل آخر الليل . بقول إنهم لا يستطيعون حتى يدركوا نازهم .

(٦) السدير وبارق والخورق بنايات مشهورة . ومرابض موضع بنو أحي الحيرة كان مكانا للتمزج .

وَالْعَمْرُ ذُو الْأَحْسَاءِ وَالسَّلْدَاتُ مِنْ صَاعٍ وَدَيْسَقٍ^(١)
وَالْتَغْلِيَّةُ كَالْهَيْلِ وَالْبَدْوُ مِنْ عَانٍ وَمُطَلَقٍ
وَتَظَلُّ فِي ذَوَامَةِ الْمَوْلودِ يُظْلَمُهَا تَحَرَّقُ^(٢)
فَلَنْ نَعِشَ فَلْتَسْلُفَنَّ أَرْمَاحُنَا مِنْكَ الْمُخَنَّقُ
أَبَقْتُ لَنَا الْآيَامَ وَالْأَزْبَاتُ وَالْعَانِي الْمُرْهَقُ
جُرْدَا بِأُطْنَابِ الْبَيْوَاتِ نُعَلُّ مِنْ حَلَبٍ وَتُغْبِقُ
وَمُثَقَفَاتٍ ذُبْلًا خَصْدَا أَسْنَتْهَا تَأَلَّقُ
وَالْبَيْضَ وَالزَّغْفَ الْمَضَّاعَفَ سَرْدُهُ حَاتِقٌ مُوْتَقٍ^(٣)
وَصَوَارِمًا نَعَصَى بِهَا فِيهَا لَنَا حِصْنٌ وَمَلَزَقٌ^(٤)
وَمَحَلَّةٌ زَوْرَاءُ فِي حَافَتِهَا الْعِقْبَانُ تَخْفِقُ
وَإِذَا فَزَعْتَ رَأَيْنَا حَلَقًا وَعَادِيَّةً وَزَرْدَقٍ^(٥)
مَا لِلْيُوثِ وَأَنْتَ جَا مَعَهَا بِرَأْيِكَ لَا تَفَرِّقُ
وَالْظَلْمُ مَرْبُوطٌ بِأَفْسَانِيَةِ الْبُيُوتِ أَغْرَ أَبْلَاقُ
وَقَالَ أَيْضًا ، وَقَدْ طَرَدَهُ عَمَرُو وَنَذَرَ دَمَهُ :

أَطْرَدْتَنِي حَذَرَ الْهَجَاءِ وَلَا وَاللَّاتِ وَالْأَنْصَابِ لَا تَبْلُ^(٦)
وَرَهَنْتَنِي هِنْدًا وَعِرْضُكَ فِي صُحُفٍ نَاسُوحٍ كَأَنَّهَا خِلَلٌ^(٧)

(١) العمر موضع . الحسى الأرض المسلة التى يستنق بها الماء . الديسق بعض الآنية .

(٢) الدوامه لعبة لصبيان العرب يرمون بها على الأرض بالخيوط فتدوم أى تدور وهى التى لسمها اليوم (النعلة) تحرق تلهب عيظا يقول عمرو . لك كل هذا الملك العريض ويلهبك الغضب فى أنفه شئ ؟

(٣) الزغف الدروع اللينة . السرد المتتابع النسيج حلقتين . حلقتين .

(٤) نعصى بها نتخذها بحيلة المعصى . ملزق ملحق .

(٥) العادية قوم يعدون على أرجلهم ، يقول لنا وسان ورجانة . الزردق بالفارسية صف وصف ما هنا .

(٦) طردتنى صيرتنى طريدا : لا تثل لا تتجو والماضى وأل نجا .

(٧) هند أم الملك عمرو . الخلل جمع خلة بكسر الخاء وهو نقش يكون فى بطانة السيف .

شَرُّ المَلُوكِ وَشَرُّهَا حَسْبًا
الْغَدْرُ وَالْآفَاتُ شَيْئُهُ
فَافْهَمُ فَعُرْقُوبٌ لَهُ مِثْلُ
بِشْرِ الْفَحْوَلةِ حِينَ جُدَّتْهُمْ
عُرْكُ الرِّهَانِ وَبِشْ مَا بَخَلُوا
أَعْنَى اخْتِوَالَةٍ وَالْعَمُومِ فَهَمُ
كَالطَّبْنِ لَيْسَ لِبَيْتِهِ حَوْلٌ^(١)

وقال طرفة بن العبد ، وهو من شيان البكرى

فَلَيْتَ لَنَا مَكَانَ الْمَذَكِ عَمُرٍ وَ
رَغُورًا حَوْلَ قُبَّتِنَا تَخُورُ^(٢)
مِنَ الزِّمِرَاتِ أَسْبَلَ قَادِمَاهَا
وَضَرَّتْهَا مِرْكَنَةٌ تَدُورُ^(٣)
يُشَارِكُنَا لَنَا رَخْلَانِ فِيهَا
وَتَعْلُوهَا الْكِبَاشُ فَا تَنْوُرُ^(٤)
لَعَمْرُكَ إِنْ قَابُوسَ بْنَ هَنْدٍ
لَيْخَلِطُ مَلِكُهُ نَوَكٌ كَثِيرُ^(٥)
قَسَمَتِ الدَّهْرَ فِي زَمَنِ رَخِيٍّ
كَذَاكَ الْحُكْمُ يَقْصِدُ أَوْ يَجُورُ
لَنَا يَوْمٌ وَلِلْكَرْوَانِ يَوْمٌ
تَطَارِدُهُنَ بِالْحَدَبِ الصَّقُورُ^(٦)
فَأَمَّا يَوْمُهُنَ فَيَوْمُ نَحْسٍ
وَقِفُوهَا مَا نَحُلُّ وَمَا نَسِيرُ
وَأَمَّا يَوْمُنَا فَنُظَلُّ رَكْبًا

وقال الحارث بن ظالم الذبياني ، وهو من أشراف بني مرة وساداتهم .
وكان فاتكا شجاعا ، فتك بخالد بن جعفر بن كلاب بن ربيعة وهو نازل على

(١) العن بكسر الطاء وفتحها لعبة للعرب .

(٢) الرعوث كل مرضعة . يقصد هنا النجعة كما يظهر ذلك من الآيات التالية . يقول ليت لنا مكان عمرو بن هند نجعة تحمى علينا .

(٣) الزمر وزن كفف القليل الشعر والصوف . الضرة الضرع أو أصل الثدي . القادم من الأطباء والصنوبر الخلفان المتقدمان وأصله للآفة جعله للشاة . أسبل طال وكل .

(٤) الرخل على وزن كفف الأثني من أولاد الصنن تفاركن في لبنها . نارت نفرت من الفعل : يصف في هذا البيت وفي البيت السابق النجعة التي تصور أنها ستقوم مقام عمرو بن هند في ملكه . يقول إن نجعة هذه صفتها تمنى عنه بل هي خير منه .

(٥) النوك الخلق . (٦) الحذب الموج والزلل والغلظ المرتفع من الأرض .

النعمان ، وقتك بابن النعمان ، وكان في حجر أخته سلى بنت ظالم المرى . وهو هنا يخاطب النعمان ، متشمتا في قتل ابنه ، مهدداً بقتله هو نفسه ، ويذكر أنه قد فعل ذلك نائراً لجيران له ، أصابهم منه شر في إبلهم وفي أنفسهم .

قَفَا فَاسْمَعَا أَخْبِرْكَ إِذْ سَأَلْتُمَا
مُحَارِبُ مَوْلَاهُ وَشَكْلَانُ نَادِمُ ^(١)
فَأَقْسَمُ لَوْلَا مِنْ تَعْرِضُ دُونَهُ
لَخَالَطَهُ صَافِي الْحَدِيدَةِ صَارِمُ ^(٢)
حَسِبْتُ أَبَا قَابُوسَ أَنَّكَ سَالِمُ
وَلَمَّا تُصِبُ ذُلًّا وَأَنْتُكَ رَاغِمُ
فَإِنَّ تَكَ أَذْوَادُ أَصْبَنَ وَصِيَّةُ
فَهَذَا ابْنُ سَلَى رَأْسَهُ مُتَّفَقِمُ ^(٣)
عَلَوْتُ بِذِي الْحَيَاتِ مَفْرَقَ رَأْسِهِ
وَهَلْ يَرُكَبُ الْمَكْرُوهَ إِلَّا الْأَكَارِمُ
فَنَكْتُ بِهِ كَمَا فَتَكْتُ بِخَالِدِ
وَكُنْ سِلَاحِي تَجْتَوِيهِ الْجَمَاحُ
أَخْصِي حِمَارِ بَاتٍ يَكْدُمُ نَجْمَةَ !
أَتَأْكُلُ جِيرَانِي وَجَارَكَ سَالِمُ ؟
بَدَأْتُ بِهِذَى ثُمَّ أَتْنِي بِهِذَى
وَنَالِيَةً تَبْيِضُ مِنْهَا الْمُتَقَادِمُ

(١) محارب مولاة يقصد نفسه لأنه قتل ابن الملك . وشكلان نادم يعني الملك لأنه فقد ولده .

(٢) يقول لولا ما يتحجب به الملك من حرس لقتله .

(٣) الذود الجماعة من الابل يشيع إلى ما كان من انتهاب إبل جارة له . متفاقم غير ملتئم . ابن سلى يعني به ابن الملك لأنه كان في حجر سنان بن أبي حارثة وسلى زوجة سنان .

(٤) يكدم يعض . نجمة واحدة النجم وهو الثبت الذي لا ساق له . يخاطب النعمان ياخصي حمارا أأأكل مال جيراني ثم أترك جارك سالما ؟ .

الأعشى

شهرة الأعشى في عالم الشعر والنقد تقوم على تفوقه في الخمر . وجملة
المشهوره في ذلك « امرؤ القيس إذا ركب ، والنابعة إذا رهب ، وزهير إذا
رغب ، والأعشى إذا طرب » . ولكننا نتحدث عنه هنا بوصفه أكبر هجاء
سياسى ظهر في العصر الجاهلى .

صور القدماء الأعشى في قصصهم رحالة يجوب بشعره الآفاق باحثا عن
يشتري مديحه . وقالوا إنه أول من تنكسب بشعره . قال صاحب العمدة :
وكانت العرب لا تنكسب بالشعر . وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاكه ،
ومكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر إعظاما لها حتى
نشأ النابغة الذبياني ، فمدح الملوكة ، وقبل الصلة على الشعر . . . ، وتنكسب
زهير بن أبى سلمى يسيرا مع هرم بن سنان ، فلما جاء الأعشى جعل الشعر
متجرا يتجر به نحو البلدان ، وقصد حتى ملك العجم ، فأثابه وأجزل عطيته ،
علما بقدر ما يقول عند العرب ، واقتداء بهم فيه . على أن شعره لم يحسن
عنده حين فسر له ، بل استهجنه واستخف به ، ولكن احتذى فعل الملوكة
ملوك العرب — وأكثر العلماء يقولون إنه أول من مدح بشعره .) وهذه
صورة ، على ما فيها من صدق ، تضلل الباحث في تصور هذا الشاعر الكبير
على حقيقته . فمن الحق أن الأعشى كان صاحب لذة وخمر ، ولكنه كان يذهب
في ذلك مذهب فتیان العرب ، الذين يهجمون على اللذة قبل أن يهجم عليهم
الموت ، لا يرون فيها محرما ومباحا ، وإنما هى عندهم مبذولة لمن يستطيع أن
ينالها ، وليس ينالها إلا القوي الجريء . ومن الحق أن الأعشى قدم مدح بعض
الأشراف من غير قومه ونال عطاءهم — مدح قيس بن معد يكرب ، وهو
أبو الأشعث بن قيس ، وكان من أشراف كنده وملوكها ؛ ومدح إياس بن
قيصة الطائي . وكان عامل كسرى على عين التمر وما والاها إلى الخيرة ، وقد

ملك الحيرة بن وفاة المنذر وملك ابنه النعمان ، ثم عاد إلى ملكها بعد النعمان ، إلى أن قدم عليه خالد بن الوليد سنة ١٢ هـ — وأم أبياس ربعة من شيان بن ثعلبة ، ومدح سلامة ذافائش ، وهو من سادة اليمن ، ومدح الأسود بن المنذر ، أخا النعمان ، في مطولته المشهورة « ما بكاء الكبير بالاطلال » . ولكن كل ذلك لم يفقده صفته السياسية الأصلية في الدفاع عن قومه ، فكان صوتهم القوي الذي خلد يوم ذى قار ، وكان بعد ذلك لسان قومه فيما ينشب بينهم وبين جيرانهم من منازعات .

لم يحفظ لنا التاريخ شيئا عن نشأة الأعشى أو شبابه . وكل ما نعرفه أن أباه يسمى قبيل أجوع ، سمي بذلك لأنه دخل غارا يستظل فيه من الحر ، فوَقعت - سخره - عظيمة من الجبل فسدت فم الغار ، فمات فيه جوعا . ونحن لا نعرف متى مات أبوه ، وهل تركه ناشئا أم رجلا ، ولكن نعرف أن قبيلة الأعشى — قيس من ثعلبة البكرى — كانت مشهورة بكثرة شعرها وشعرائها . يروى عن حسان أنه سئل : من أشعر الناس ؟ فقال . أشاعر بعينه أم قبيلة ؟ قالوا : بل قبيلة . قال — الزُرْقُ من بني قيس بن ثعلبة . ويروى هذا الحديث عن غير حسان . وكان عبد الملك بن مروان يقول : إذا أردتم الشعر الجيد ، فعليكم بالزُرْق من بني قيس بن ثعلبة ، وبأصحاب النخل من يثرب ، وأصحاب السعف من هذيل . ونعرف أن الأعشى قداصل بخاله المسيَّب بن علس — وهو معدود في الشعراء المُقَلِّين — يروى شعره حتى نبغ ، واحتل من قبيلته مكانا ممتازا ، ثم ذاع صيته في أنحاء الجزيرة العربية حتى أصبح مسموع الصوت ، مرهوب الجانب ، من الذين يحسب الناس لشعرهم حسابا ، حتى لقد فزعت قريش حين علموا بمقدمه على النبي في المدينة — وهم متهادنون في صالح الحديبية سنة ٦ هـ — فجمعوا له من ما لهم مائة ناقة حمراء ، على أن يعود من عامه .

كانت خلائق الأعشى خلائق الفتيان في الجاهلية . روي أن بعض ولاية :
 الإمامة مر بمنزله في منفوحة ، وزار قبره فرآه رطباً . فلما سأل عن علة ذلك ، -
 أخبر أن الفتيان ينادمون ، فيجعلون قبره مجلس رجل منهم ، فإذا صار إليه
 القدح صبوه عليه ، وذلك لقوله « أَرَجِعْ إلى الإمامة فأشبع من الأطيين
 الزنا والخمر » وكان صاحب لذة يرى القعود عنها عجزاً لا يليق بالفتاك الجري .
 ومن أجل ذلك نراه في غزلة لا يقيم على صاحبة ، بل يغلب عليه أن يكتفى
 بالإشارة إلى هذه صاحبة أو الحليلة بقوله « تيا » أو « جارتنا » . وهو ولوع
 بتصوير هذه صاحبة مخوفة بالمصاعب والأخطار ، وكأنه يرى الكفاج في
 سبيل الوصول إليها ، والظفر بها آخر الأمر ، جزءاً أصيلاً من لذته . فهو
 لا يرى العيش إلا مغامرة في سبيل الظفر باللذة ، تغتصب من الدهر اغتصاباً .

ألم تَنْهَ نفسك عما بها	بلى عادها بعض أطراها ^(١)
لجارتنا إذ رأت لمتى	تقول لك الويل أنى بها
فإن تعهدني ولي لمة	فإن الحوادث ألوى بها ^(٢)
وقبلك ساعيت في رب رب	إذا نام سامر رقاها ^(٣)
تُنازعني إذ خلعت بردها	مفضلة غير جلبها ^(٤)
فلما التقينا على بابها	ومدت إلى بأسابها
بذلنا لها حكمها عندنا	وجادت بحكمي لا لشي بها
فطوراً تكون مهاداً لنا	وطوراً أكون فيغلى بها
على كل حال لها حالة	وكل إلا جاري يجري بها
وكأس شربت على لذة	وأخرى تداويت منها بها

(١) أطراها أحزانها .

(٢) اللة ما جاوز شعبة الأذن من الشعر . أنوى ها ذهب ها .

(٣) الرب القطيع من بقر النوحش يشبه به النساء . المساعة الفجور ، وكان الأمام يساعين في .

الجاهلية وفلان يساعى الامام يزانيه .

(٤) مفضلة مبتذلة لابة جلبها ما اشرا لجسمها لاشي . تحته .

لكي يعلم الناس أنى أمرؤ^١ أتيت^٢ المعيشة من بابها
ويقول :

فقد أشرب الراح قد تعلية — من يوم المقيم ويوم الظعن^٣
وأشرب بالريف حتى يقا^٤ ل قد طال بالريف ما قد دجن^(١)
وأقررت عني من الغانيا ت إما نكاحاً وإما زنا^٥
ويقول :

وقد غدوت^٦ إلى الخانوت يتبعني
شاو^٧ مشل^٨ شاول^٩ شاشل^{١٠} شول^(٢)
في فية^{١١} كسيوف الهند قد علموا
أن ليس يدفع عن ذى الحيلة أخيل^{١٢}
نازعهم قضب^{١٣} الرنحان^{١٤} مكننا^{١٥}
وقهوة^{١٦} مزة^{١٧} راووقها^{١٨} خضل^(٣)
لا يستفيقون منها وهى راهنة
إلا بهات^{١٩} وإن علوا^{٢٠} وإن نهلوا^(٤)
يسعى بها ذو زجاجات له نطف^{٢١}
مقاصص^{٢٢} أسفل السرير^{٢٣} مغممل^(٥)
ومستجيب^{٢٤} تحال^{٢٥} الصنج^{٢٦} يسمعه^{٢٧}
إذا ترجع^{٢٨} فيه القبنة^{٢٩} الفضل^(٦)

(١) دجن ورحن ثبت وأقاله .

(٢) شاو شواء يشوى اللحم . مشل سواق من شل الابل طردها وسافها . شول نشول ينشل اللحم من القدر إلى القوم حاذق . لهنك شتلل خفيف . شول يحمل الشيء .

(٣) القهوة الخمر . الراووق الوعاء الذى تروق فيه الخمر . خضل دائم الندى لكثرة استعمه .

(٤) النهل اشرب الأول والعلل الشرب الثانى . بقول إنهم لا يتوقفون عن الشراب مها شربوا إلا ربنا يقولون للسائق دهات !

(٥) النعمة الزاوة العظيمة . مغممل يعدم ويعمل فى نشاط .

(٦) المستجيب العود يجب الصنج أى يشاكله . الصنج دوائر رفاق من نحاس يعفق بأحداها على الأخرى وهى كالتى تكون أبداى الزافات (الساجات) . الفضل التى تنفضل أى تبذل فتبلس ثوبا واحدا كما تكون فى خلقتها .

من كل ذلك يوم قد هوت به

وفي التجارب طولُ اللهو والغزل

وهذا الحرص على اللذة ، قد جعل الأعشى في حاجة دائمة إلى المال ، يستجلبه من كل وجه . فلم يكن المال في نظره إلا طاقة مخزنة — على حد تعبير العلماء — يمكن تحويلها إلى ألوان من اللذة . فالحرص على جمعه يصور حرصا على اللذة . لا يكاد يجتمع إليه شيء منه ، حتى يستنزفه في لذته ، واذة من يجتمع إليه من صحبه ورفاقه . ثم يعاود الرحلة في سبيل الحصول عليه من جديد .

رحل الأعشى إلى الأشراف يمدحهم ، وألحف عليهم بالسؤال ، وصرح بذلك في شعره تصریحا حمل مؤرخي الأدب على أن يعتبروه أول من سأل بشعره فهو يقول لقيس بن معد يكرب في أول قصيدة مدحه بها :

فَإِنَّكَ بَعْدَ مَدِّ قَطَعْتَ الْقَرْنَ	فَإِنِّي أَمْرُؤُ
وَكُنْتُ أَمْرًا زَمَنًا بِالْعِرَاقِ	وَكُنْتُ أَمْرًا زَمَنًا بِالْعِرَاقِ
وَحَوْلَى بَكْرٍ وَأَشْيَاعُهَا	وَحَوْلَى بَكْرٍ وَأَشْيَاعُهَا
وَنُبِّئْتُ قَيْسًا وَلَمْ أَبَاهُ	وَنُبِّئْتُ قَيْسًا وَلَمْ أَبَاهُ
فَجَحْتُكَ مُرْتَادَ مَا خَبَرُوا	فَجَحْتُكَ مُرْتَادَ مَا خَبَرُوا
فَلَا تَحْزَنْ مَنِيَّ نَدَاكَ الْجَزِيلَ	فَلَا تَحْزَنْ مَنِيَّ نَدَاكَ الْجَزِيلَ
فَإِنِّي أَمْرًا قَبْلَكُمْ لَمْ أَهَنْ	فَإِنِّي أَمْرًا قَبْلَكُمْ لَمْ أَهَنْ

وهو يعترف في شعره بهذا الحرص على جمع المال ، ولا يرى فيه بأسا :
 وَقَدْ طُفْتُ لِلَّالِ آفَاةً
 أُنِيتُ النَّجَاشِيَّ فِي أَرْضِهِ
 فَنَجَرَانٍ فَالَسَرَوْ مِنْ حَمِيرٍ
 عُدْمَانٍ فَمَمَسَ فَأَوْرِيشْلِمَ
 وَأَرْضَ النَّيْطِ وَأَرْضَ الْعَجَمِ
 فَأَيَّ مَرَامٍ لَهُ لَمْ أُرْمَ

ولكن كل هذه الخصال ، لم تفقد الأعشى إخلاصه لقومه وعشيرته ، ولم تغلب على صفته الأصلية ، التي جملت منه شاعر بكر ، بل شاعر ربيعة ، فضل أولا وآخرها شاعر السياسة ، الذي يعبر عن رأى القبيلة الرسمى ؛

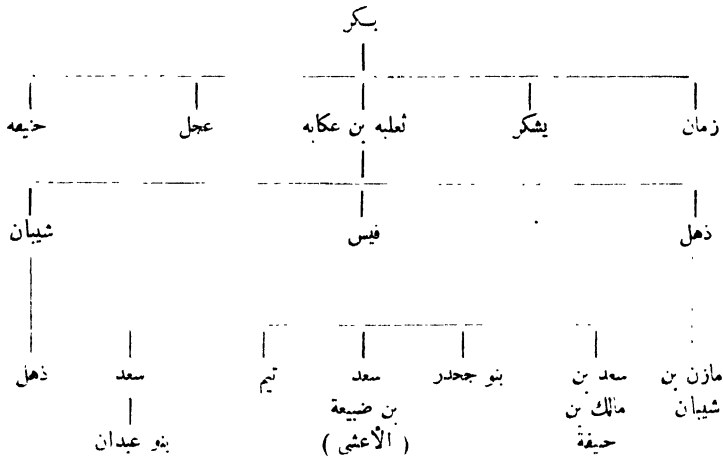
يسجل ما بينها وبين جيرانها من حلف ، منميا روابط الود والإخاء ، ويؤرخ وقائعها ، مخلدا مجدها وبطولاتها في شعر رائع ، ويهاجم من تحدته نفسه بالنيل منها أو مهاجمتها ، مصغرا من شأنه ، مهددا بقوة قومه .

وقد عد النقاد الأعشى فيمن رفع بشعره ووضع . والواقع أن الدارس لمدائحه وحماسته ، يجدها من أروع الشعر الجاهلي تصويرا لبُشُل العربية ، في دقة واضحة ، وقوة صادقة . والدارس لأهاجيه ، يجدها من أشد الشعر وقعا على العدو ، لما فيها من سلب لهذه المثل . وكل أهاجي الأعشى متصلة بسياسة القبيلة ومصالحها . فهو يمدح للكسب ، حين لا يتعارض ذلك مع وفائه لعصبيته ، ولكنه يهجو مخلصا بدافع من الوطنية . ومن هنا كان وجه الخلاف الكبير بينه وبين الخطيئة ، الذي كان يتكسب بالمدح والهجاء كليهما ، ولا يصدر فيهما إلا عن الشره في جمع المال ، وكأنه ينتقم لنفسه من المجتمع الذي ظلمه . فبينما يبدو الأعشى في هجائه بطلا سياسيا ، وزعيا وطنيا ، يبدو الخطيئة ساخطا على الدنيا ، ناقما على الناس ، ساخرا بكل القيم الإنسانية والمعايير الأخلاقية .

لم يكن الأعشى موتورا ولا ساخطا على الناس كالخطيئة . فهو رجل قد أمتع نفسه من اللذات ، ورضى عن الدنيا ، وعن مكانه منها ، فأخذ بأحسن ما فيها ، وقد علم أن الموت نهاية كل حي . وكانت له شخصية قوية واضحة ، جعلت منه شاعرا ممتازا في التغنى بلذته ، ومحاميا ناجحا يحتل المكان الأول في الدفاع عن قبيلته . وكان فيه وفاء لقومه وعصبيته ، وسم شعره السياسي بروح وطنية صادقة .

ويبلغ الأعشى قمة مجده السياسي ، حين يقف للدفاع عن بكر ، بل عن وائل جميعا ، في يوم ذي قار . وذو قار موضع قرب الكوفة — بينها وبين واسط — كانت فيه واقعة مشهورة بين الفرس وبكر حوالى سنة ٥٢ هـ . وقد انتصرت فيه بكر . وكان هذا النصر عظيما ملا العرب زهوا ، فأنشوا فيه

الشعر الكثير . وقد اختلف الرواة في سبب هذا اليوم . فقيل إن كسرى لما حبس النعمان بساباط ، حتى مات قبيل الإسلام ، غضب له العرب ، وكان قتله سبب ذى قار . وقالوا إنه كان لحبس قيس بن مسعود الشيباني ، وكان قد ضمن قومه عند كسرى — بعد قتل النعمان — أن لا يغيروا على السواد ، فنيكثوا بعهدهم ، فحق كسرى عليه ، واستدعاه فقال له غررتني من قومك ، وأمر به فحبس بساباط . وقالوا إنه كان لوديعة أودعها النعمان قبل موته عند هانئ بن مسعود الشيباني ، فلما طلبها منه كسرى امتنع عليه .^(١)



ومن أروع ما قال الأعشى في هذا اليوم قصيدة أنشأها قبل الحرب ، يتهدد فيها الفرس ، ويستفز قومه للقتال وإياء الضيم .

أَنسَوَى وَقَصَّرَ لَيْلَةَ لِيُزَوِّدَا وَمَضَى وَأَخْلَفَ مِنْ قَتْسَيْلَةَ مَوْعِدَا
وَالْقَصِيدَةَ فِي جَمَلَتِهَا اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ بَيْتًا . بدأها الشاعر بذكر صاحبه .
فهو قد تخلف ليلة لينزود منها فأخلفته ، ومضت الليلة ، ومضى هو لحاجته ،

(١) راجع في ذلك الأغاني ٢٠ : ١٣٢ . نقائص جرير والفرزدق (طبع أوروبا) ص ٦٣٨ ،

وأصبح حبلها خلقا ، وكان يظن أن ما بينه وبينها لن ينقطع . وهو قد شاب
فهجرته الغواني ، لأنهن لا يصلن من فقد الشباب ، وقد يصابن الأمر . ثم
هو يتحسر على شبابه الضائع ، أيام كانت لِمَتَّه سوداء ، وأيام كان يعيش
في لهو وعبث لا ينقطع ، إذ يسعى إلى صواحيبه في الليل ، يبتغي عندهن
دَيْنَه ، وقد مَظَلَّنه في النهار . وقد ألم الفقر بالأعشى حتى ساء حاله .

فسأله صاحبه : ما لجسمك يسوء من رآه ؟ وما لثيابك قد بليت ؟

أذْ لَكْتَ نَفْسُكَ بَعْدَ تَكْثُرِ مَةِ لَهَا أَمْ كُنْتَ ذَا عَوَزٍ وَمَنْتَظَرَا غَدَا ؟
أَمْ غَابَ رَبُّكَ فَاعْتَرَتْكَ كَخْصَاصَةٌ فَلَعَلَّ رَبَّكَ أَنْ يَعُودَ مُؤَيَّدَا ؟

فيجيبها :

رَبِّي كَرِيْمٌ لَا يَكْدُرُ نَعْمَةٌ وَإِذَا يَنْشَدُ بِالْمَهَارِقِ أَنْشَدَا^(١)
ثم ينتقل بعد ذلك إلى الناقة . فيشبهها بحار الوحش ، وبالنعام ، وبالبرج
فإذا فرغ منها ، بدأ الجزء الذي يهمننا من القصيدة بقوله :

مَنْ مُبْلَغٌ كَسْرَى إِذَا مَا جَاءَهُ عَنِ مَالِكٍ مُخْشِشَاتٍ شُرْدَا^(٢)
ونفهم من هذا الجزء أن كسرى قد سجن الأسود أخا الخوفزان (وأبو
عبيدة يقول إنه كان في يد كسرى في رُهْنٍ قيس بن مسعود) ، وأنه كان
لا يزال يطلب إلى بكر الرُهْنِ ، حتى يَكْفُفَهُمْ بذلك عن مهاجمة السواد .
والأعشى يخاطبه قائلا إنهم لن يعطوه رُهْنًا ليفسدهم كمن قد أفسد . ولأن
يرهنه نَعْشٌ بنيه ، ولأن ترهنه السماء الفرقد ، أقرب إليه من أن يرهنوه
أبناءهم . وهو يطلب إليه أن ينزل إليهم الأسود من سجنه — وكأنه كان
مسجونًا في جبل أو هضبة عالية — فإن لم يفعل ، فليس يدينهم إلا الحرب ،

(١) المهارق جمع مرق بضم الميم وفتح الراء وهو الصحيفة . أى إذا نوبت بما في الكتب أجاب .
وكان الأعشى نصراني أو كان صاحبه الذي يسأله نصراني أو متدين بأحدى الكتب الهاوية .
(٢) المالك جمع مألوك بضم اللام وهى الرسالة . غنصات منضبات . شرد تأتي كل مكان .

يضرمونها بين عانة والفرات ، لمن بغى وتمردا ، كأنما حشَّ الغُواة بها
حريقاً مُوقَداً .

ثم يهاجم الأعشى قبيلة إباد ، التي كان يضطرها موقعها من الحدود إلى
مألاة الفرس ، فهو يقول : خربت بيوت هؤلاء الأنباط ! لكنهم
لا يلقون بعدك من يقيم أمرهم ويتعهدهم ويعمر أرضهم ! ثم يتجه إلى
كسرى قائلاً : أظننتنا كيأباد حرّائين ، قد اتخذوا (تكريت) داراً ، فهم
ينتظرون حباً أن يُحصَد ، خاملين لا عمل لهم ، فهم يقطعون وقتهم في
معالجة قُمُل قد انتشر في أجسادهم ، وقد أوثقوا في السلاسل ،
وغُلِّقتْ دونهم الأبواب ؟ ليس هذا شأن بكر . فإنما نحن بدوٌ ، لنا
نَعَمٌ كالغضاب ، لا يطردها مَرُوعٌ من مغير أو مهاجم . ولكننا رهن
سيوفنا ، ضمنت أعجازها قُدُورَنا أن تفرغ ، وضمنت ضروعها لنا اللبن
صريحاً خالصاً .

فإذا وصل الشاعر إلى هذا الحد فقارب الانتهاء . اتجه إلى كسرى وقد
بلغ منه الهياج أشده ، فخم قصيدته بقوله :

فأقعدُ عليك التاجَ مُعْتَصِياً به لا تَطْلُبَنَّ سِوَا مَنَّا فَتَعَبِّدا
فأعمرُ جدِّك لو رأيتَ مُقامَنَا لرأيتَ مَنَّا مَنظَرًا ومُؤَيِّدا
في عارضٍ من وائلٍ إن تلقه يومَ الهِياجِ يَكُنْ مَسِيرُكَ أنكدَا
وترى الجيادَ الجُرْدَ حولَ بيوتنا مَوْفُوقَةً وترى الوَشِيجَ مُسْتَدَا (١)

وللأعشى بعد ذلك جولات سياسية ، فيما كان ينشأ بين فروع بكر وقبائلها
من منازعات . وهو يسير في ذلك على مبدأ عربي واضح : ينصر أخاه ، ثم
أبناء عمه ، الأذن فالأبعد . فهو يشيد بشيبان ، ويخلد مجدها في يوم ذى قار

فإذا وقع خلاف بين بعض بطونها ، وبعض بطون قيس بن ثعلبة ، تعصب يزيد بن مسهر الشيباني -- أحد زعماء بكر يوم ذى قار -- لقومه من شيان ، وأخذ الأعشى جانب قيس بن ثعلبة ، وهاجم يزيد فى قصيدته المشهورة

وَدَّعْ هُرَيْرَةَ إِنْ الرَّكْبَ مُرْتَحِلٌ

وهل تُحْلِقُ وَدَاعاً أَهْهَا الرَّجُلُ

وقصة هذه القصيدة أن رجلاً من بنى كعب بن سعد (أحد بيوت قيس بن ثعلبة) اسمه ضُبَيْع ، قتل رجلاً من بنى همام (أحد بيوت ذهل بن شيان) اسمه زاهر بن سيار ، فلما نهض بنو سيار للأخذ بثأر زاهر ، تعصب لهم يزيد بن مسهر الشيباني ، ونهاهم أن يقتلوا به ضبيعا لأنه لا يعد له . وحضهم على أن يأخذوا به أحد أشرف بنى سعد . فلما بلغ ذلك الأعشى حمى لقومه ، وهجا يزيد طالبا إليه أن يخلى بين الحيين ، فإنه إن أعان بنى سيار ، لم يكن لبنى قيس بن ثعلبة بدٌّ من التدخل لنصرة بنى كعب .

يبدأ الأعشى قصيدته بوصف صاحبه هريرة ، فهى بيضاء ، غزيرة الشعر ، دقيقة الخصر ، ثقيلة الأرداف ، ضخمة الخلق ، لينة القوام ، كأنها السحابة فى بطن سيرها ووقارها ، عَفَّةٌ لا تسترق السمع للجار ، وَهَنَانَةٌ يكاد يصعرها -- لولا تشدها -- إذا تقوم إلى جارتها الكسل ، وهى عبقة يضوع المسك منها فيملاً المكان ، وليست روضة من رياض الحزن ^(١) مُعْشِبَةٌ جاد عليها المطر ، وأشرفت عليها الشمس ، فانعكست على جداولها المحفوفة بالنبات ، بأطيب منها نثر رائحة ، ولا بأحسن منها إذ دنا الأضل ^(٢) .

وقا. صدّت عنه صاحبه جهلا بقدره ، فهو يعجب لذلك ، ويقول :

حَبْلَ مَنْ تَصْلِينَ إِنْ قَطَعْتَنِي ؟ وَمَنْ أَحَقُّ مِنِّي بِهَذَا الْوَصْلِ ؟

(١) الحزن يفتح الحاء الأرض الفليضة ، والرياض فيها أنضر وأحسن رونقا .

(٢) الأمل جمع أصيل وهو وقت غروب الشمس . وانما تفرح رائحة الأزهار ويهدأ الكون .

فتكون الرياض أجمل ماتكون فى مثل هذا الوقت ، حين تخف حوارة الشمس المحرقة ويداعب النسيم الأزهار .

أَنْ رَأَتْ رَجُلًا أَعْنَى أَضْرَبَهُ

رَيْبُ الْمَسُونِ وَدَهْرٌ مَفْنَدٌ خَبِيلٌ (١)

إن ترينا حفاة لا نعال لنا ، فكذلك ما نحى ونتعل . ومع ما ترين بي
من أثر الضر :

فقد أحالَسُ رَبَّ البيت غفلته وقد يحاذِرُ مني ثم ما يَسِلُّ

وقد أقود الصبي يوماً فَيَتَّبِعُنِي وقد يصاحِبُنِي ذُو الشَّرَّةِ الغَزَلُ

ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف السحاب وقد امتلأ بالماء ، واتصلت
أجزاءه ، ولمع البرق في حافاتِه كأنه الشَّعَلُ ، فيقول إن اللهو والخمر لم
يلهيَّاه عن مراقبة هذا العارض ، وعن لَفَتِ صحبه من الشَّرْبِ إليه . إذ
يناديهم قائلاً : شيموا ! ثم يعود فيعجب لأمره وأمرهم قائلاً : وكيف يَشِيمُ
الشارِبُ انْتِئَلُ ؟ وهم لا يزالون في حُدُسٍ وتخمين ، كلٌّ يذكر الأرض
التي يترقع أن هذا العارض سيصيبها بمائه ، وكأنه قد أصابها ، فاهتزت وربت
وأنبئت من كل زوج بهيج .

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى وصف مجلس الخمر . فقد يغدو إلى الخانوت
يتبعه غلام خفيف نشط ، وقد يجلس إلى فتية كسيوف الهند مضاء ، قد
أرساوا أنفسهم في لذاتها ، لأنهم يعلمون أن لَيْسَ يَدْفَعُ عَنْ ذِي
الحَيَاةِ الحِيلُ ، يطوف عليهم ساق نشيط ، شمَّر أسفل قيصه ، وعلق
بأذنيه الشُّطَفَ ، وقد تناثرت قُضْبُ الرِّيحَانِ ، يتنازعها الشَّرْبُ ، وهم
يتناقون كئوساً لا تحف ، لأنهم لا يتوقفون عن الشرب إلا ريثما ينادون :
هات ! وقد ماجت الخانة بنساء ضخام ، كأن على أردافهن قِرباً ترتج بما
فيها ، يحرون ذبول الرِّيطِ ، ونشط القيَّان للغناء على نغات العود
وجَرَسِ الصَّنَجِ .

فإذا فرغ الشاعر من هذه المقدمة الطويلة ، التي تستغرق أربعة وأربعين
بيتاً ، اتجه إلى خصمه فبدأه بقوله :

أَبْلَغَ يَزِيدَ بْنِ شِيَّانَ مَا لُكَّةَ - أَمَا ثَبَيْتَ أَمَانَتَكَ تَأْتِكُ
وهو يقول له : أقصر عن نحت أثلتنا ، فليست ضارها أبد الدهر ،
وإربع على نفسك ، فليست إلا كوعل أحق ، ينطح صخرة ليفلقها ، فلم
يضرها وأوهى قرنه . على أنك تثير رهط مسعود وإخوته ، وتغريهم بنا ،
وما أظنك تغضب لهم أو تخوض معهم قتالا إن جد الجد ، وشبت الحرب ،
والثمس عندك النصر . فأنت تلقىهم طعاما لرماحنا ، فتردهم ثم تعزل .
لَا تَقْعَدَنَّ وَقَدْ أَكَلَتْهَا حَظَبًا تَعُوذُ مِنْ شَرِّهَا يَوْمًا وَتَبْتَلِ
ويعدد له بعد ذلك القبائل التي عادوها من قبل فقهروها ، فيذكر أهل
كهف من بني سعد بن مالك ، والجاشرية من إباد ، وأسد بن ربيعة ، وقشير
بن كعب بن ربيعة . فيقول له : سَلَسْتُمْ يَخْبُرُوكِ كَيْفَ وَجَدُوا بِلَانًا
في القتال .

إِنَّمَا نَقَاتْلُهُمْ ثُمَّ تُمَتُّ نَقَاتْلَهُمْ عند اللقاء . وهم جاروا . وهم جوارا
ثم يتجه إلى شيان (قبيلة يزيد) ، وقد تزايد غضبه ، فيقول : زعمت أننا
لسنا لكم بأكفاء ، وأننا لا نهض لقتالكم ! بل نحن نقتلكم حتى يخر عميد
القوم ، فلا تجد حوله غير نساء قد ثكلن أبناءهن ، يدفعن عنه بأكفهن .
ولن ينهاكم عما أتم فيه من بغي كالطعن الجانف ، يغرر في علاجه البريت
والفُئُل .

ويشير الأعشى إلى ما كان من إغراء يزيد لهذا البيت من شيان . ونهيم
عن قتل ضبيع بظاهر ، فيقول : لئن قتلتم سيدا لم يكن مقاربا لقتيلكم
(لَنَقَاتِلَنَّ مِثْلَهُ مِنْكُمْ فَدَمَتَشِلْ) ، ونختم القصيدة بقوله :
قَدْ نَطَقْنَا الْعَيْرَ فِي مَسْكُونٍ فَإِلَيْهِ
وقد يشيط على أرماحنا البطل (١)

(١) العير حمار الوحش والغائل عرق يجري من الجوف إلى الفخذ . يهبط ملك . يقول إنهم
جروا بمواضع العير . يضربون العير في هذا الموضع الخفي الذي فلا يخطئون الإصابة .

ثم يتفاهم الشر بين شيبان وقيس بن ثعلبة ، فينشيء الأعشى قصيدة أخرى .
أعنف من السابقة ، يبدأها بقوله :

هُرَيْرَةٌ وَدَّعْنَهَا وَإِنْ لَامَ لَانِمُ غَدَاةَ غَدٍ أَمَنتَ لِلْبَيْنِ وَاجِمُ
وهو يقول بعد أن يتغزل في ستة أبيات :

رَأَيْتُ بَنِي شَيْبَانَ يَظْهَرُ مِنْهُمْ لِقَوْمِي عَمْدًا نَغْصَةً وَمَظَالِمُ
ثم يذكرهم بمن ذاق عداوتهم من القبائل فلم يصبر عليها ، معددا أسماءهم .
ويقول : إنا على عهدكم بنا لم تتغير ولم نضعف ، فقيم الطمع ؟ ثم يهددهم قائلا :
إِنْ كُمْ لَنْ تَنْتَهُوا حَتَّى تَكْسِرَ بَيْنَنَا (رِمَاحَ بَأْيْدِي شُجْعَةٍ وَقَوَائِمُ) ،
وحتى يبيت القوم وقوفاً وراء الظُّعْنِ ، والخيـل تحتمهم ، يقولون « نَوْرٌ
صَبِيحٌ ! » وَاللَّيْلُ عَاتِمٌ . لن تنتهوا حتى يكون بيننا مثل هذا القتال
الغنيف ، أَوْ تَكْسِرُونَ مِنْ حَدِّكُمْ (فَإِنَّمَا يَهْمُ لَعَيْنَيْهِ مِنَ
الْشَرِّ هَاتِمُ) .

ثم يصف شجاعة قومه ، فيقول ليزيد : إِنْكَ إِنْ لَقِيتَنَا لَقِيتَ بَنَا قَوْمًا
لَا يَجْبُنُونَ ، حِينَ تَكُونُ الْجَاغِمُ أَهْدَافَ السِّیُوفِ . إِنْ أَبْنَاءَنَا لَيَغْتَدُونَ
الْبَأْسَ ، كَمَا يَعْتَدِي الْمَاءُ الظَّمَاءُ . . . ويصف نفور يزيد منه حين يلقاه ،
وما يجد في وجهه من بغض ، قائلا :

يَزِيدُ يَغْضُ السَّطْرَ عَنِّي كَأَنَّمَا
زَوَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَلَى الْمَحَاجِمِ
فَلَا يَنْبَسِطُ مِنْ بَيْنَ عَيْنِكَ مَا انْزَوَى

وَلَا تَلْفَنِي إِلَّا وَأَنْفُكَ رَاغِمُ

ثم يخاطبه قائلا : لئن جد بيننا التقاطع ، لَتُقْتَلَ مَخْلُفًا أَمْوَالُكَ . .
وليندبك النساء ناثحات معولات ، (يَقُلْنَ حَرَامٌ مَا أَحِلَّ رَبُّنَا) . .
وهذا الشطر أبلغ ما يكون في حكاية تحسر النساء ، وتصوير حزنهن العاجز .
الضعيف . وبلغ هجم الأعشى ليزيد غاية حين يقول :

أَبَا ثَابِتٍ لَا تَغْلَقَنَّكَ رَمَاحُنَا أَبَا ثَابِتٍ أَقْصِرْ وَعَرِّضْكَ سَالِمَ
وَذَرْنَا وَقَوْمًا إِنْ هُوَ عَمَدُوا لَنَا أَبَا ثَابِتٍ وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ نَاعِمَ
طَعَامِ الْعِرَاقِ الْمُسْتَفِيزِ الَّذِي تَرَى وَفِي كُلِّ عَامٍ حَالَةً وَدِرَاهِمَ
وَيَنْتَمِ قَصِيدَتُهُ بِإِعَادَةِ التَّهْدِيدِ ، مَتَهَمًا يَزِيدُ بِأَنَّهُ يَغْرِى بِهِمْ رَهْطَ سِيَارِ ،
ثُمَّ يَزْعُمُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ بَرِيءٌ . وَيَقُولُ إِنْ هَذَا الصَّنِيعَ لَا يَنْتَهَى إِلَّا بِقِتَالِ
شَدِيدٍ عَنِيفٍ ، تَسْبِي فِيهِ النِّسَاءَ فَيَكْفُرُ . عِنْدَ بَنَاتِ عَمَّهِنَّ مِنْ رَهْطِ قَيْسٍ
كَالْتَأَمِّفَاتِ الْخَوَادِمِ .

* * *

فَإِذَا وَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَ بَطُونِ قَوْمِهِ — قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ — كَانَ الشَّاعِرُ
رَفِيقًا ، يَحَاوِلُ أَنْ يَذْكُرَهُمُ الرِّحْمَ وَحَقُوقَ الْقَرَابَةِ ، وَمَا يَنْبَغِي لِحِمٍّ مِنْ وَفَاءٍ .
يَخْتَلِفُ بَنُو عَبْدِانَ مَعَ قَوْمِهِ (سَعْدُ بْنُ ضَيْيْنَةَ) فَيَعَانِيهِمْ مَبْقِيَا عَلَيْهِمْ
فِي قَصِيدَتِهِ :

كُنِّي بِالَّذِي تُؤَلِّقُهُ لَوْ تَجَنَّبَا شِفَاءً لُسُقْمٍ بَعْدَ مَا كَانَ أَشْنَبَا
نَرَى الشَّاعِرَ حَرِيصًا عَلَى صِدَاقَتِهِمْ حِينَ يَقُولُ :

فَأَبْلِغْ بَنِي سَعْدِ بْنِ قَيْسٍ بِأَنِّي عَتَبْتُ فَلِمَ لَمْ أَجِدْ لِي مَعْتَبَا
صَرَمْتُ وَلَمْ أَصْرِمْكُمْ وَكَصَارِمِ أَخٌ قَدْ طَوَى كَشْنَحًا وَأَبٌ لِي ذَهَبَا

وَهُوَ يَبْكُتُهُمْ لِنَاسِيهِمْ مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قَوْمِهِ مِنْ نَسَبٍ :
إِلَى مَعْشَرٍ لَا يُعْرِفُ الرُّدَّ بَيْنَهُمْ وَلَا النَّسَبَ الْمَعْرُوفَ إِلَّا تَنْسَبَا
وَلَكِنَّهُمْ مَهْمَا يَخْطِئُوا فَهْمَ قَوْمِهِ ، لَا يَكُونُ مَعَ عَدُوِّهِمْ عَلَيْهِمْ أَبَدًا .
فَإِخْلَاصُهُ لِعَصِيَّتِهِ يَأْبَى إِلَّا أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُمْ يَدَهُ وَبَلْسَانَهُ :

فَإِنْ أَنَا عَنكُمْ لَا أَصَالِحُ عَدُوِّكُمْ وَلَا أُغْطِيهِ إِلَّا جَدًّا لَا وَمِخْرَبَا
وَلِإِنْ أَدْنُ مِنْكُمْ لَا أَكُنْ ذَاتَ مِيمَةٍ يَرَى بَيْنَكُمْ مِنْهَا إِلَّا جَالِدًا مُثْقَبًا (١)

(١) التَّيْمَةُ الْمَقْرَاضُ الَّذِي يَقْلَعُ بِهِ الْحَدِيدَ وَالْفَضَّةَ . يَقُولُ إِنْ بَدَدْتُ عَنْكُمْ لَمْ أَصَالِحْ عَنْكُمْ وَلَمْ يَجِدْ
مَنِي إِلَّا الْخَصُومَةَ وَإِنْ دَنَوْتُ مِنْكُمْ لَمْ أَتَقِبْ جُلْدَكُمْ بِقَارِصِ الْكَلَامِ .

سَيَنْبَحُ كُلِّي جَهْدَهُ مِنْ وَرَائِكُمْ وَأُغْنِي عِيَالِي عَنْكُمْ أَنْ أُؤَنِّبَا
وَأُدْفَعُ عَنْ أَعْرَاضِكُمْ وَأُعِيرَكُمْ لِسَانًا كَمِقْرَاضِ الْخَفَاجِيِّ مِلْحَبَا
هَنَالِكَ لَا تَجْزُونَنِي عِنْدَ ذَاكُمْ وَلَكِنْ سَيَجْزِيَنِي إِلَهُهُ فَيُغْفِبَا
ثَنَانِي عَلَيْكُمْ بِالْمَغِيبِ وَلَنَانِي أَرَانِي إِذَا صَارَ الْوَلَاءُ تَحَزُّبَا
أَكُونُ أَمْرًا مِنْكُمْ عَلَى مَا يَنْبُوكُمْ وَلَنْ يَرِنِي أَعْدَاؤُكُمْ قَرْنَ أَعْضَبَا

* * *

فَإِذَا تَمَادَى بَنُو عَبْدِانَ ، وَأَغْرَوْا جَهَنَامَ بِهَجَاءِ بَنِي سَعْدِ بْنِ ضَبِيْعَةٍ ، كَانَ
الْأَعَشَى أَكْثَرَ عُنْفًا فِي قَصِيدَتِهِ :

يَا الْقَيْسَ لِمَا لَقِينَا الْعَامَا أَلِعَبْدِ أَعْرَاضَنَا أَمْ عَلَى مَا
لَيْسَ عَنْ بَغْضَةٍ خُذَافٍ وَلَكِنْ كَانَ جَهْلًا بِذَلِكَ وَعُرَامَا
وَهُوَ يَبْدَأُ قَصِيدَتَهُ بِقَوْلِهِ : يَا الْقَيْسَ ، فَكَأَنَّهُ يَنْشُدُهُمُ الْجَدَّ الَّذِي يَجْمَعُهُمْ
وَأِيَّاهُمْ فِي النَّسَبِ ، ثُمَّ يَحَاوُلُ أَنْ يَصُورَ لَهُمْ بَغِيهَ عَلَى قَوْمِهِ ، الَّذِينَ لَمْ يَهْتَكُوا
لَهُمْ حِجَابًا ، وَلَمْ يُجِلِّدُوا لَهُمْ حَرَامَا .

لَمْ نَطَّأْكُمْ يَوْمًا بِظُلْمٍ وَلَمْ نَنْهَتْكُمْ حِجَابًا وَلَمْ نُحِلِّ حَرَامَا
يَا بَنِي الْمَنْذَرِ بْنِ عَبْدَا نَوَالِيطُنَةُ يَوْمًا قَدْتَا فَنُ الْأَحْلَامَا
لَمْ أَمْرْتُمْ عَبْدَا لِيَهْجُوا قَوْمَا ظَالِمِهِمْ مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ كَرَامَا
يَقُولُ لَهُمْ : قَدْ ذَهَبَتِ الْبِطْنَةُ بِأَحْلَامِكُمْ ، حَتَّى أَتَحْتَمُ أَعْرَاضَنَا لِعَبْدِ .

ثُمَّ يَمْنَى بَعْدَ ذَلِكَ مُعَدِّدًا نَعَمَ قَوْمِهِ عَلَى بَنِي عَبْدِانَ ، بِمَا أَسَدُوا إِلَيْهِمْ يَوْمَ
كَحْجَرٍ مِنْ نَعَمِي ، إِذْ يُضَرِّمُونَ النَّارَ ، فَاتَحْنِي النَّخْلُ الْبَاسِقُ ، وَصَارَ أَسْوَدَ
كَالْتَوَقِ الْعِجَافِ ، بَيْنَ قَائِمٍ وَمُضْطَرِعٍ . وَيَوْمَ الْعَيْنِ — وَهُوَ يَوْمُ قُطَيْمَةِ —
إِذَا أَغَارَ عَلَيْهِمْ بَنُو شِيَانَ ، فَغَدَا عَلَيْهِمْ قَوْمُ الْأَعَشَى مَهْطَعِينَ ، إِسْرَاعَ
الْعَطَاشِ إِلَى الْمَاءِ .

بِرِجَالٍ كَالْأَسَدِ حَرَّبَهَا الزَّجَرُ وَخَيْلٍ مَا تُنْكِرُ الْإِقْدَامَا
فَقَتْلُوهُمُ أَوَّلَ النَّهَارِ ، وَلَمْ يَكُونُوا إِلَّا كَمَا يَجْمَعُ الرَّاعِي أَغْنَامَهُ ، وَقَدْ تَخِيلَ
الْمَطَرُ مَقْبَلًا ، فَخَافَ عَلَيْهَا أَنْ يَفْرِقَهَا . ثُمَّ وَلَّوْا (كَمَا يَطْنَحِرُ الْجَنْتَوْبُ
الْجَهَامَا) . وَيَخْتَمُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

ذَاكَ مَنْ جَبَلَكُمْ لَنَا وَعَلَيْكُمْ نِعْمَةً لَوْ شَكَرْتُمْ الْإِنْعَامَا
ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى الْفَخْرِ بِقَوْمِهِ . فَهَمْ مَسَامِيحٌ ، يَتَبَهَوْنَ عَلَى السَّيِّدِ الَّذِي
يَتَفَوَّقُ عَلَى صَحْبِهِ وَيُذْهِمُ بِالْإِطْعَامِ فِي الشِّتَاءِ الْقَارِسَ الْبَرْدَ ، حِينَ يَقَعُ الدِّخَانُ
مِنَ الْأَنْفِ مَوْقِعَ الْبُخُورِ ، إِذْ يَضْرِبُ قَوْمَهُ الْقِدَاحُ عَلَى النَّيْبِ حِينَ
يَكْرَهُ يَسْرُهُنَّ . وَهُمْ أَصْحَابُ الْقَبَابِ كَأَنَّهَا الْمَضَابِ ، وَالْخَيْلَ وَالصِّعَادَ ،
الْمُطَارِدُونَ عَنْ أُخْرَى الْحَيِّ إِذَا اشْتَدَّتْ الْحَرْبُ ، وَكَشَفَتْ الْعِذَارَى عَنِ
السَّاقِ وَالْخُلْخَالِ .

• • •

وَأَخِيرَ مَا يُمَثِّلُ هَذَا اللَّوْنُ الَّذِي يَتَرَاوَحُ بَيْنَ الْعُنفِ وَاللَّيْنِ ، وَيَجْمَعُ بَيْنَ
الْغَضَبِ وَالْحَيْنِ ، وَالْإِبَاءِ وَالْوَفَاءِ ، قَصِيدَتُهُ فِي بَنِي جَحْدَرِ بْنِ قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ:
لَمِيشَاءَ دَارٍ فَدَتَعَفَّتْ رُسُومُهَا عَسَتْهَا نَضِيزَاتُ النَّصْبِ فَسَيْلُهَا
يَقْدُمُ لِلْقَصِيدَةِ بِأَرْبَعَةِ آيَاتٍ ، يَقِفُ فِيهَا بِأَطْلَالِ صَاحِبَتِهِ مِيشَاءَ ، ثُمَّ
يَتَخَلَّصُ إِلَى غَرَضِهِ ، مُتَعَجِّبًا مِنْ أَمْرِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَفْتَخِرُونَ عَلَيْهِمْ ،
وَكَاثِمِهِمْ لَيْسُوا مِنْهُمْ :

وَإِنِّي عَدَاتِي عَنْكَ لَوْ تَعْلَمِينِيهِ مَوَازِي لَمْ يُنْزِلْ سِوَايَ جَلِيلُهَا
مَصَارِعُ إِخْوَانٍ وَفَخْرُ قَبِيلَةٍ عَلَيْنَا كَأَنَّا لَيْسَ مِنَّا قَبِيلُهَا
ثُمَّ يَمْضِي مُنَاقَشًا فِي رَفْقٍ ، قَائِلًا : تَعَالَوْ نَتَعَاطَ الْحَقَّ بَيْنَنَا ، حَتَّى تَعْرِفُوا
أَيْنَا الْمَلُومَ ، فَالْعَلَمُ عِنْدَ ذَوِي النَّهْيِ (كَالْبَلَقَاءِ بِأَدْحُجُّوْهَا) . وَلَا يَلْبَثُ
أَنْ يَثُورَ فِتْرَتُهُ الشَّدَّةُ ، وَيَقُولُ : فَإِنْ لَمْ تَقْبَلُوا فِشَانَكُمْ وَمَا تَرِيدُونَ ، وَلَقَدْ كُنْتُ

الهَجَّيْنِمَ ومازن ، فعندنا شَيْنَان ، وهم سادة العشيرة وحُكَّامُهَا . إن دعوتهم يوما أنجدوني بكَرَادِيسَ وَرِعالٍ كأنها الجراد ، لها جَلَبَةٌ حين تنقض على العدو منيرة عَجَاجَا . ويعود الشاعر إلى هدوئه ، مناقشا نقاش الذى يريد أن يلزم خصمه الحجة ، فيقول : أَتُحَدِّثُونَ لَنَا أَنْفُسَكُمْ مَا تَحْرَمُونَ عَلَيْنَا ؟ جَارَنَكُمْ حَرَامَ عَلَيْنَا ، وَجَارَتَنَا حِلًّا لَكُمْ !! .

فَإِنْ كَانَ هَذَا حُكْمَكُمْ فِي قَبِيلَةٍ فَإِنْ رَضِيتُ هَذَا فَقَلَّ قَلِيلُهَا ويعود الشاعر إلى شدته ، فيحلف برب الساجدين عشية ، وما صك ناقوس النصارى أَيْلُهَا ^(١) ، أنه لا يصالحهم حتى ييؤموا بمثل جنائهم وبغيهم ، ويصرخوا (صَرَخَةً حَبْلِي يَسْرَتَهَا قَبُولُهَا) . ويقول : إن ذاك الذى يسعى للقتل ظلما ، تحدّثه نفسه أنا لسنا بذى عز ، ولسنا بأكفاء له ، لِيَبْدُ جَهْلَةً لَا تُغْتَفَرُ . أخبركم حُمُرَانُ أن بناتنا سيهزأن إن لم ترفع العير إلينا الميرة ؟ فَعِيرَكُمْ أَذَل . وأرضكم على ما تعلمون من الجَذَبِ وَالْمَحَلِّ !! فَإِنْ تَمْنَعُوا مِنَّا الْمَشَقَّرَ وَالصَّفَا ، فَتَخِلْ الْخَطُّ جَمًّا ، وَخَمْرَ دَرْنَى يَحْطُّ إِلَيْنَا كُلَّ عَشِيَةٍ . وَإِنَّمَا لَنَا كُلُّونَ دَمِ الْفَصِيدِ ، وَإِنَّا لَنَغْذُو أَوْلَادَنَا الشَّحْمَ وَاللَّبَنَ . وَيَحْتَمُّ قَصِيدَتُهُ بِقَوْلِهِ :

أَبَا الْمَوْتِ خَشَّتْنِي عِبَادُ وَإِنَّمَا رَأَيْتُ مَنَاءِ النَّاسِ يَسْعَى دَلِيلُهَا
فَمَا مَيِّتَةٌ إِنْ مِثْلُهَا غَيْرَ عَاجِزٍ بَعَارٍ إِذَا مَا غَالَتِ النَّفْسُ غَوْلُهَا

ولعل من الخير ، أن أثبت النص الكامل للقصائد التى لخصتها فى حديثى السابق عن الأعشى ، لأن الديوان بطبعته الكاملة المروية عن ثعلب بشرحه غير ميسرة لكثير من القراء .

(١) الأيل : المعنى الذى يقرع بها الناقوس فى الكنائس .

قصيدة الأعشى في هجاء كسرى والفرس قيل يوم ذى قار

أَتَوَى وقصرٌ ليلة ليُزوداً ومضى وأخلف من قُتَيْلَةٍ موعداً
ومضى لحاجته وأصبح جلها خَلَةً أو كان يظن أن لن يُنكَدَا (١)
وأرى الغواني حين شبت هجرني أن لا أكون لمن ملى أمرَداً
إن الغواني لا يواصلن امرأ فقد الشباب وقد يصلن الأمردا
بل ليت شعري هل أعودن ناشأً منى ز من أحل بُرقة أنقدا (٢)
إذ لميتي سوداء أتبع ظانها دَدَا قُعود غواية أجرى دَدَا (٣)
يلوينني ديني النهار وأقضى ديني إذا وقد الثعاس الرقدا (٤)
هل تذكرين العهد يابنة مالك أيام تر تبع الستار فثهمدا (٥)
أيام أمحك المودة كلها منى وأرعى بالمت المعهدا
قالت قُتَيْلَة ما جسمك سائداً وأرى ثيابك باليات همدا (٦)
أذلت نفسك بعد تَكْرِمَة لها أم كنت ذا عوزٍ ومنتظرا غدا
أم غاب ربك فاعترتك خصاصةً فلعل ربك أن يعود مؤيدا (٧)

(١) نكد الماء على الباء للجول نؤف . وناق نكداء لا لن بها .

(٢) يطلق العرب البرقة بضم الباء على كل أرض غلبة وبرقة أشد إحدى برق وهي كرهة العرب تقيف على المائة .

(٣) الددن والدد اللهب واللب والبعث .

(٤) يلويني يطلني . يقول إن له حقاً على صاحباته بما بينه وبينهن من ود ومن صلات . ولكنهن يحلن حقه إذا طالب به نهاراً ولا يقبلن أدائهن والزفاه به إلا ليلاً حين ينام الناس . وقد الثعاس الرقدا حصرهم وأكثهم وأثقلهم .

(٥) الستار وهمد مواضع . ارتفع وترجع أقام في المكان وقت الربيع يرعى إليه ما أقيمت الأرض من كلال وعقب .

(٦) سافه يسوء من رآه . (٧) الخصاصة الفقر . به ولي نمته .

ربي كريم لا يكدر نعمة
 وشملة حرف كان فتودها
 وكأنها ذو جدة غب السرى
 أو صعلة بالقارتين تروحت
 يتجاربان ومحسبان إضاعة
 طوراً تكون أمامه فتفوته
 وعذافر سدس تخال محاله
 وإذا يلوث لغمه بسديسه
 وكأنه هقل يبارى هقلة
 أمسى بذى العجلان يقر وروضة
 أذهبت به بمهامه جهولة
 وإذا ناشد بالمهراق أنشدا (١)
 جللته جون السرة حفيدا (٢)
 أو قارح تلو نحاص جردا (٣)
 ربداء تتبع الظليم الأربدا (٤)
 مكث العشاء وإن يغيا يفقدا
 ويفوتها طوراً إذا ما خودا
 برجا تشيده النيط القرمدا (٥)
 ثنى فهب هبابه وتريدا (٦)
 رمداء في خيط نقا تق أرمداء (٧)
 خضراء أنضرت نبثها فترأدا (٨)
 لا يهتدى برت بها أن يقصدا (٩)

(١) المهراق المصحف وربما كان في هذا ما يشير إلى أن مدوحة متدين بدين من الأدبان الساجدة. لا يكدر نعمة بالإن والأذى فنعمة صافية لا يشوبها كدر.

(٢) شملة خفيفة . حرف صلبة . القنود عيدان الرحل . الحفيد المريع والظليم وهو فرخ النعام . وهو هنا يصف ناقته .

(٣) جدة ممن وبدانه . وذو جدة يقصد به حمار الوحش . القارح من ذى الحافر بمنزلة البازل . من الأبل وهو البعير إذا بزل نابه وذلك في سن التاسعة . النحاص جمع نحوص وهى من الآن مالا ولد لها ولا لبن وهى أوفر نشاطا وأكثر اكتنازا . يشبه ناقته بحمار وحش هذه صفته .

(٤) صعلة صغيرة الرأس يقصد النعامة يشبه ناقته بها . الأربد الأبيض المشوب بسواد الظليم ولد النعامة .

(٥) عداقر شديد . السدس قبل البزل . المحالة الفقرة من فقر البعير . القرمد الجص والحجارة . الأجر والحزف المطبوخ . يشبه ناقته في ضخامتها ببرج شيد النيط من القرمد .

(٦) اللغام الزبد . الهباب الغفاط . التزيد سير فوق العنق .

(٧) الهقل بكسر الهاء ذكر النعام . الحيط بكسر الخاء الجماعة من النعام .

(٨) ذى العجلان شجر . القرو القصد والتتبع . ترأد وارتأد اهتز واضطرب وأخذته رعدة .

(٩) المهامة جمع مهمه وهى الصحراء . البرت بضم الباء الدليل . يقول إن ناقته تهتدى في هذا الطريق الخفيف الذى يخطئ فيه الدليل الخبير بمالك الصحراء .

من مبلغ كسرى إذا ما جاءه
 آليتُ لا نعطيهِ من أبنائنا
 حتى يُفِيدَكَ من بنيه رهينةَ
 إلا كخارجةَ المكلفِ نفسه
 أن يأتياك برُهنهم فهما إذن
 كلا يمينَ الله حتى تُنزلوا
 لنقاتلنكم على ما خيلتُ
 ما بين عانة والفرات كأنما
 خربتُ بيوتَ نسيطةٍ فكأنما
 لنا كمن جعلت إياها دارها
 قوماً يعالجُ قُملاً أبناؤهم
 جعل الآلهَ طعامنا في مالنا
 مثل الهِضابِ جَزَاةَ لسيوفنا
 ضَمِنْتَ لنا أعجازَهُنَّ قُدُورنا
 فاقعد عليك التاجُ معتصباً به
 لا تحسبنا غافلين عن الـ
 فلعمرُ جدك لو رأيتُ مقامنا
 في عارضٍ من وائل إن تَلَقَّه
 وترى الحِبادَ الجُردَ حول بيوتنا
 عنى مآلك مَخْمِشاتٍ شُرُداً
 رَهْناً ففسدهم كمن قد أفسدا
 نَعَشَ وِبرَهْناكَ السَّاكُ الفَرَقدا
 وابنى قَبيصةَ أن أُغيبَ ويشهدا
 جُهَداً وحُقَّ لخائفٍ أن يُجهدا
 من رأس شاهقةٍ إلينا الأَسودا
 ولنجعلن ابنَ بغي وتمردا
 حَشَّ الغَوَاةُ بها حريقاً موقدا
 لم تَأْتِ بِعَدِكَ عامراً متهددا
 تَكَرَّبتُ تَنْظُرُ حَبَّها أن يُحصدا
 وسلاسلأ أجداً وباباً مؤصدا
 رِزْقاً تَضَمَّنَ لنا لن ينفدا
 فإذا تُراعَ فإنها لن تُطردا
 وضروعن لنا الصريحَ الأجردا
 لا تَطْلُبَنَّ سوامنا فتعبدا

 لرأيتُ منا مَنظَراً ومؤيدا
 يومَ الهِياجِ يَكُنْ مَسِيرُكَ أنْكَدا
 مَوْقُوفَةٌ وترى الوَشِيجَ مَسْنُدا (١)

قصيدته في هجاء بني شيبان وزعيمهم

يزيد بن مسهر

هُرَيْرَةٌ ودعها وإن لام لائم غداة غدٍ أم أنتَ للبينِ واجِمُ
لقد كان في حَوْلٍ ثَوامٍ ثوبُهُ تَقَعَصِي لُبَانَاتٍ وَيَسَامُ سَائِمُ (١)
مبتلةٌ هيفاءُ رَوْدٌ شَبَاهُهَا لها مقلتا رِثْمٍ وَأَسودُ فاحمُ (٢)
ووجهُ نقيِّ اللونِ صافٍ يزينه مع الجيدِ لَسَبَاتٌ لها ومعاصمُ
وتضحك عن غُرِّ الثنايا كأنه دُرَى أَقْحَوَانٍ نَبْتُهُ مُتَنَاعِمُ
هي الهَمُّ لا تدنو ولا يستطيعها من العيسِ إلا الناجياتُ الرَّوَاسِمُ
. . . يُغْنِيكَ وَاَعْمِدْ لغيرها

بشِعْرِكَ وَاغْلُبْ أَنْفَ من أنتَ واسمُ (٣)
رأيتُ بني شيبانٍ يظهر منهم لقوى عمدًا نَغَصَةً ومظالمُ
فإن تُصَبِّحُوا أدنى العَدُوِّ فقبلكم من الدهرِ عَادَتُنَا الرَّبَابُ ودارمُ
وسعدٌ وكعبٌ والعبادُ وطى وذودانُ في أَلْفَافِهَا والأراقمُ
فما فاضنا من صانعٍ بعد عهدكم فسطمَعَ فينا زاهرٌ والأصارمُ (٤)
ولن تنتهوا حتى تَكْسَرَ بيننا رماحُ بأيدي شُجْعَةٍ وقوائمُ
وحتى يبيتَ القومُ في الصَّنْفِ ليلةً يقولون نَوَّرَ شُبْحُ وَاللَّيْلُ عَاتِمُ

(١) نوى أقام . بقول لقد كان في سنة كاملة أقفها ما يتبع لقضاء حاجتي وما يكنى لأن تمل الصلبة لعلها .

(٢) مبتلة لم يترابها بعضه فوق بعض . هيفاء خبيصة البطن . رود ناعمة . الرثم الطبي الأبيض الخالص البياض أسود فاحم يقصد الشعر .

(٣) العلب الأثر .

(٤) لم يفطنا أحد الفض الكسر . الصانع الحاذق أى لم يغيرنا عن أخلاقنا . فكيف يطعم فينا

هؤلاء القوم من زاهر والأصارم

وقوفاً وراء الطعن والخيول تحتمهم
 إذا ما سمعن الزجرَ يَمْنَنُ مُقَدِّمًا
 أبا ثابت أو تَنْتَهَوْنَ فَإِنَّمَا
 متى تلقنا والخيولُ تحملُ بَرًّا
 فتلق أناساً لا يَحْجِمُ سلاحهم
 وإنا أناس يعتدى البأسَ خُلُقُنَا
 فهان علينا ما يقول ابنُ مُسَهَّرٍ
 يزيد يغضُّ الطرفَ دوني كأنما
 فلا ينسبط من بين عينيك ما انزوى
 فاقسم إن جد التقاطع بيننا
 يقلن حرامٌ ما أحلَّ برينا
 أبا ثابت لا تعلقنك رماحنا
 وذرننا وقوماً إن هممو عَمَدُوا لَنَا
 طعامُ العراق المستفيضُ الذي ترى
 أفي كل عام تقتلون وتَتَدَي
 أنامر سيارا بقتل سَرَاتِنَا
 أبا ثابت إنا إذا تَسَيَّقْنَنَا
 تُشَدُّ على أكتافهن القوادم
 عليها أسود الزارتين الضراغم
 يَسِيمُ لِعَيْنَيْهِ من الشر هائم
 خَنَازِيدُ منها جِلَّةٌ وَصَلَادِمُ^(١)
 إذا كان كَحْمًا للصفيح الخماجم^(٢)
 كما يعتدى الماء الظمأه الحواتم
 برغمك إذ حَلَّتْ علينا اللهازمُ^(٣)
 زَوَى بين عينيه على المَحَاجِمِ
 ولا تلقى إلا وأُنْفُك راغم
 لتَصْطَفِقَنَّ يوماً عليك المَأْتَمُ^(٤)
 وتَشْرِكُ أُمُوالاً عليها الخواتم
 أبا ثابت أَقْصِرْ وعرضك سالم
 أبا ثابت واقعد فإنك ناعم
 وفي كل عام حِلَّةٌ ودراهم
 فلك التي تبيض منها المَقَادِمُ
 وتزعم بعد القتل أنك تسالم؟
 سَيَرَعَدُ سَرَحٌ أُوَيْنِبَّه نَائِمُ^(٥)

(١) البز السلاح . خنازيد كرام . قوم حلة عظمه سادة . صلادم غلاظ شداد .

(٢) يسيم يجبن . إذا كان حراً أي قصداً . يعني إذا كانت الخماجم والروس أهدأما السيوف وذلك في الحرب .

(٣) اللهازم هم قيس بن ثعلبة قبيلة الأعرابي وحلفاؤها عذرة وعجل وحنيفة . ابن مسهر هو يزيد بن مسهر أحد زعماء شيان .

(٤) الريح تصفق الأشجار وتصطق أي تضرب : والنساء يصطفقن على الميت

(٥) السرح المال السائم .

بُمُشْعَلَةٍ يَغْشَى الْفِرَاشَ رَشَاشُهَا بَيْتٌ لَهَا ضَوْءٌ مِنَ النَّارِ جَاحِمٌ^(١)
تَقَرُّ بِهِ عَيْنُ الذِّى كَانَ شَامِتًا وَتُبْتَلُ مِنْهَا سُرَّةٌ وَمَا كَمْ
وَتُلْفَى حَصَانٌ تَخْدُمُ ابْنَةَ عَمِّهَا كَمَا كَانَ يُلْفَى النَّاصِفَاتُ الْخَوَادِمُ^(٢)
إِذَا اتَّصَلَتْ قَالَتْ أَبْكَرَ بْنَ وَائِلٍ وَبَكَرٌ سَبَّتْهَا وَالْأَنُوفُ رَوَاغُمُ^(٣)

قصيدته في هجاء بنى المنذر بن عبدان بن حذافة بن سعد
ابن قيس بن ثعلبة وشاعرهم جهنم

(١)

كُنِيَ بِالَّذِى تَوَلَّيْنِهِ لَوْ تَجَنَّبَا شَفَاءَ لِسُقْمٍ بَعْدَ مَا عَادَ أَشْيَبَا^(٤)
عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ تَأْوُلُ حُبَّهَا تَأْوُلُ رُبْعِي السَّقَابِ فَأَحْصَبَا^(٥)
قَدَّمَتْ عَلَى مَعْشُوقَةٍ لَا يَزِيدُهَا إِلَيْهِ بِلَاءُ الشُّوقِ إِلَّا تَحْجُبَا
وَإِنِ أَمْرٌ قَدِ بَاتَ هُمَى قَرِيَّتِي تَأْوِيْنِي عِنْدَ الْفِرَاشِ تَأْوِيَا
سَأَوْصِي بِصِيرَاءٍ إِنْ دَسَّوَتْ مِنَ الْبَلِي وَصَاةَ أَمْرِي قَاسِي الْأُمُورِ وَجَرِيَا
بَأَنْ لَا تَبْغِ الْوُدَّ مِنْ مِتْبَاعِدٍ وَلَا تَأْتِ عَنْ ذِي بَغْضَةٍ إِنْ تَقْرَبَا

(١) مشعلة طعة واسعة يتفرق دما متبقا . جاحم مرقد . وكأرا يوقدون عند المطعون ليعرفوا حاله في كل ساعة .

(٢) الحصان يفتح الحاء والحصناء والمحصنة بوزن اسم المفعول المعيفة أو المتزوجة التي أحسنها زوجها .

(٣) إذا اتصلت أى أرادت أن تتوصل إلى أبناء عمها الذين سبوا بصلة النسب التي بينهم نصيح . أبكر بن وائل . وبكر هو الجد الأكبر الذى يجمع هذه القبائل جميعاً .

(٤) يقول كنى بالذى تولى من الهجر والجفاء شفاء لما أنا مريض به من حبك لو أننى عقلت فتجنبت طلابك بعد أن شئت .

(٥) الرعى بكسر الراء ما ولد في الربيع ابتكرت أمه بولادته . السقاب جمع سقب يفتح السين وهو ولد الناقة . أحب افتاد .

فَإِنْ الْقَرِيبَ مِنْ يُقَرَّبُ نَفْسَهُ لَعَمْرُ أَيْكَ الْخَيْرِ لَا مِنْ تَنْسَبَا^(١)
وَأَنْ أَمْرَةً فِي حِقْبَةِ النَّاسِ هَذِهِ وَإِنْ
مَتَى يَغْتَرِبُ عَنْ قَوْمِهِ لَا يَجِدُ لَهُ . عَلَى مَنْ لَهُ رَهْطٌ حَوَالِيهِ مُغْضِبَا
وَيُحِطُّ بِظُلْمٍ لَا يَزَالُ يَرَى لَهُ مَصَارِعَ مَظْلُومٍ مَجْرَأً وَمَسْحَبَا
وَتُدْفَنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ وَإِنْ يُسَمَّى يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارُ فِي رَأْسِ كَنْكَبَا^(٢)
وَلَيْسَ مُجِيرًا إِنْ أَتَى الْحَيَّ خَائِفٌ وَلَا قَاتِلًا إِلَّا هُوَ الْمُتَعَيِّبَا
أَرَى النَّاسَ هَرَّوْنِي وَشَهْرَ مَدَّخَلِي وَفِي كُلِّ مَمْشَى أَرُصِدُ النَّاسَ عَقْرَبَا
فَأَبْلُغْ بِي سَعْدَ بَنِ قَيْسٍ بَاتِي عَتَبْتُ فَلِمَ أَلَمْ أَجِدْ لِي مَعْتَبَا
صَرَمْتُ وَلَمْ أَصْرِمْكُمْ وَكَصَارِمٍ أَخٌ قَدْ طَوَى كَشْحًا وَأَبْ لِي ذَهَبَا^(٣)
وَمِثْلُ الَّذِي تَوَلَّوْتَنِي فِي بِيوتِكُمْ يُقْنِي سِنَانًا كَالْقِدَامَى وَثَغْلَبَا
وَيَبْعُدُ بَيْتُ الْمَرْءِ مِنْ دَارِ قَوْمِهِ فَلَنْ يَعْلَمُوا مَمْسَاءَ إِلَّا تَحْسَبَا^(٤)
إِلَى مَعْشَرٍ لَا يَعْرِفُ الثُّوْدَ بَيْنَهُمْ وَلَا النَّسَبَ الْمَعْرُوفَ إِلَّا تَنْسَبَا
أَرَانِي لَدُنْ أَنْ غَابَ قَوْمِي كَأَنَّهُمَا يَرَانِي فِيهِمْ طَالِبُ الْحَقِّ أَرْبَابَا
دَعَا قَوْمَهُ حَوْلِي فَجَاءُوا لِنَصْرَةِ وَنَادَيْتُ قَوْمًا بِالْمَسْنَةِ غُيَّيَا^(٥)
فَأَرْضَوْهُ أَنْ أَعْطَوْهُ مَتَى ظِلَامَةٌ وَمَا كُنْتُ قَلًّا قَبْلَ ذَلِكَ أَزْيَا^(٦)
وَرُبَّ بَقِيعٍ لَوْ هَتَفْتُ بِجَوِّهِ أَتَانِي كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرَّأْسَ مَعْصَبَا
أَرَى رَجُلًا مِنْكُمْ أَسِيفًا كَأَنَّمَا يَضُمُّ إِلَى كَشْحِيَةِ كَفًّا مَخْضَبَا
وَمَا عِنْدَهُ مَجْدٌ تَلِيدٌ وَلَا لَهُ مِنَ الرِّيحِ فَضْلٌ لَا الْجَنُوبَ وَلَا الصَّبَا

(١) يقول ليس القريب هو الذي يجمعك به صلة نسب ولكن القريب حقاً هو الذي يمتدك من الود والاختلاص ما يقربه منك .

(٢) ككب اسم جله . (٣) أب ليذها تها للذهاب .

(٤) التحب السؤال عن الخبر . (٥) المسنة ماء لبنى شيان

(٦) أزيب غريب من حى آخر .

وإني وما كلفتموني وربكم
لكالثور والجنى يضرب ظهره،
وما ذنبه أن عافت الماء باقر
فإن أنا عنكم لا أصالح عدوكم
وإن أدن منكم لا أكن ذا تميمية
سينبح كلبي جاهداً ومن ورائكم
وأدفع عن أعراضكم وأعيروكم
هنا لك لا تجزوني عند ذاكم
ثنائي عليكم بالمشغب وإني
أكون أمرء منكم على ما ينوبكم
أراني وغمرأ بيننا دق منشم
كلانا يراني أنه غير ظالم
ومن يطع الواشين لا يتركوا له
وكنت إذا ما القرن دام ظلامي
كما التمس الرومي منشب قفلة
فما ظنكم بالليث يحمي عرينه

لِيَعْلَمَ مَنْ أَمْسَى أَعْقَ وَأَحْرَبَا
ومادنبه إن عافت الماء مشربا
وما إن تعاف الماء إلا ليضربا^(١)
ولا أعطه إلا جدالاً ومحربا
يرى بينكم منها الأجلد مثقبا^(٢)
وأغني عيالي عنكم أن أؤنبا
لسانا لمقراض الخفاجي ملحبا^(٣)
ولكن سيجزىي الإله قيعقبا
أراني إذا صار الولاء تحزبا
ولن يري أعداؤكم قرن أعضبا^(٤)
فلم يبق إلا أن أجن ويكلبا^(٥)
فأعزبت حلمي أو هو اليوم أعزبا
صديقا وإن كان الحبيب المنقربا
غليقت فلم أغفر لخصمي فيدربا
إذا اجنسه مفتاحه أخطأ الشببا
نفي الأسد عن أوطانه فتيببا

(١) الجنى الراعى . وكانوا إذا أرادوا أن يوردوا البقر الماء صاعته دموا نورا مضربوه مورد . فاذا فعلوا ذلك وردت لقر . يقول أتم قد ألزمتوني ما لا ذنب لي فيه كما يضرب الثور لأن البقر تعاف الماء .

(٢) القيمة المقراض الذي يقطع به الحديد والفضة .

(٣) الخفاجي نسبة إلى خفاجة بن معاوية بن عقي . ملحب طامع .

(٤) الأعضب المنكسر القرن . يقول سأكون برعم إساءتكم إلى عنيفاً على أعدائكم .

(٥) منشم امرأة جملة عطرا لها فكان صديق لها يأتها فغلبه فوجد زوجها ربح عطرها منه .

صديقها فضلبا . فافتلوا به حتى تفانوا . وعمر هو جهنم شاعر بنى عبد الله .

يَكُنْ حَدَادًا مُوَجَّدَاتٍ إِذْ مَشَى وَيُخْرِجُهَا يَوْمًا إِذَا مَا تَحَرَّبَا
لَهُ السَّوْرَةُ الْأُولَى عَلَى الْقَرْنِ إِذْ غَدَا وَلَا يَسْتَطِيعُ الْقِرْنُ مِنْهُ تَغْيِبَا
عَلَوْتُكُمْ وَالشَّيْبُ لَمْ يَغْلُ مَفَرَّقٍ وَهَادَيْتُمُونِي الشَّيْرَ كُلَّهَا بِجَرَبَا

قصيدته في هجاء بني عبدان

وشاعرهم جهنم

يَا لَقَيْسٍ لِمَا لَقِينَا الْعَامَا أَلِغَبْدِ أَعْرَاضُنَا أَمْ عَلَى مَا (١)
لَيْسَ عَنْ بَغْضَةٍ حَذَافٍ وَلَكِنْ كَانَ جَهْلًا بِذَاكُمْ وَعَرَامَا (٢)
لَمْ نَطْأَكُمْ يَوْمًا بَظْلَمَ وَلَمْ نَهْتِكْ حِجَابًا وَلَمْ نُجِلِّ حَرَامَا
يَا بَنِي مَنْذَرِ بْنِ عَبْدِانَ وَالْبِطْنَةِ يَوْمًا قَدْ تَأْفَنُ الْأَحْلَامَا (٣)
لَمْ أَمْرُتُمْ عَبْدًا لِيَهْجَوْ قَوْمًا ظَالِمِينَ مِنْ غَيْرِ جَزْمٍ كَرَامَا
وَابْتَغْتُمْ
يَوْمَنَا بِالْمَسِيلِ فِي سَيِّدِيهِمْ حَيْثُ جِئْتُمْ وَاد
وَالَّتِي تُلَبِّثُ الرَّمُوسَ مِنَ النُّعْمَى وَيَأْتِي إِسْمَاعُهَا الْأَقُومَا
يَوْمَ حَجَرٍ بِمَا أَزَلَّ إِلَيْكُمْ إِذْ تَذَكَّرْتُمْ فِي حَافَتِهِ الضَّرَامَا (٤)
جَارٍ فِيهِ نَافَى الْعُقَابِ فَأُضْحَى أَتَذُ النُّخْلَ يَفْضَحُ الْجُرَامَا
فَتَرَاهَا كَالْخُشْنِ تَسْفَحُهَا النِّيرَانُ سَوْدًا مُضْرَعًا وَقِيَامَا (٥)

(١) قيس بن ثعلبة هو الجد الذي يجتمع عنده قوم الأعرابي أبناء عمهم بنو عبد الله . يناشدهم القرابة .

(٢) حذافة جد بني المنذر بن عبد الله . وجهنم هو عمير بن عبد الله بن المنذر بن عبد الله بن حذافة

ابن حبيب بن ثعلبة بن سعد بن قيس بن ثعلبة . العرام الشراصة والشر .

(٣) تأفن الأعلام تذهب بها وتضعها . ورجل مأفون ضعيف العقل .

(٤) أزل إليه نعمة أسداها إليه . يذكرهم بما قدموا لهم من عون في هذا اليوم حين أحرقت النخيل .

(٥) الحفناء التأفة المعزاء .

ثم بالعين عُرَّةٌ تَكْشِفُ الشَّمْسَ ويوماً ما يَنْجَلِي إِظْلَامَا
إِذْ أَتَكُمْ شِيَانٌ فِي شَارِقِ الصُّبْحِ بِكَبْشٍ تَرَى لَهُ قُدَّامَا
فَعَدَوْنَا عَلَيْهِمَ بَكْرَ السَّوْدِ دِ كَمَا تورد النَّضِيجَ الْهَيَامَا^(١)
برجال كالأسد حربها الزجرُ وخيل ما تُنْكَرُ الإقداما
لا نقيها حدَّ السيف ولا نألم جوعاً ولا نبالي السهاما
ساعة أكَبَرَ النَّهَارُ كَمَا شَدَّ مُخِيلَ لِنَوْنِهِ أَغْنَامَا^(٢)
من شباب تراهُم غير مِبِيلٍ وَكِهولاً مَرَّاجِحاً أَحْلَامَا
ثم ولوا عند الحفيظة والصبرِ كَايْطَحِرُ الْجَنُوبِ الْجَهَامَا^(٣)
ذاك من جَبَلِكُمْ لَنَا وَعَلَيْكُمْ نِعْمَةٌ لو شَكَرْتُمْ الْإِنْعَامَا
وإذا ما الْقَتَارُ شَبِهَ بِالْأَنْفِ يَوْمَا بِشَوَةِ أَهْضَامَا^(٤)
فلقد تَصَلَّقَ الْقَدَاحُ عَلَى النَّيْبِ إِذَا كَانَ صَلَقَيْنِ غَرَامَا
بِمَسَامِيحٍ فِي الشَّتَاءِ يَخَالُوْنَ نَ عَلَى كُلِّ فَالْجِ إِظْعَامَا
وَقَبَابٍ مِثْلِ الْهَضَابِ وَخَيْلٍ وَصَعَادٍ حُمْرٍ يَقِينِ السَّمَامَا^(٥)
فِي مَحَلٍّ مِنَ الشُّغُورِ غَزَاةٍ فَإِذَا خَالَطَ الْغَوَارُ السَّوَامَا
كَانَ مِنَّا الْمَطَارِدُونَ عَنِ الْآخَرَى إِذَا أَبَدَتْ الْعَذَارَى الْحَدَامَا^(٦)

(١) النضيج الماء لأنه ينضج العطش والناضح المستقى عليه والهيام بكسر الهاء العطاش .

(٢) مخيل راع تحيل أن في السحاب مطراً مقبلاً خشي على همه أن يفرقها المطر .

(٣) يطمر يقل ويطرود . الخوب الريح التي تهب من الجنوب . الجهام السحاب .

(٤) الهضم الجحور واخضع أعضام . القنار راتحه الطعام . والفتاء وقت الجذب في بلاد العرب ولذلك فهم يفتحرون بالجود والكرم فيه خاصة . يقول إن الطاغ يقل في الشتاء حتى إن الناس ليشمون رائحته كما يشمون الحور : يقول في ذلك الوقت تجدنا نضرب القداح على النيب وهي كبار الأبل حين يكره ذلك لشدة الحاجة إليها .

(٥) الصعاد جمع صعدة وهي القناة التي تنبت مستقيمة فتصلح لأن تكون رحاً .

(٦) الحدام جمع خدمة بثلاث فتحات وهو الخلل والناق . يكنى بالكشاف سوق العذارى

عن شدة القتال .

قصيدة في هجاء بني ججدر بن قيس بن ثعلبه

لَمِثَاءَ دَارٍ قَدْ تَعَفَّتْ طَأْطُوهَا عَفَّتْهَا نَضِضَاتُ الصَّبَا فَمَسِيَاهَا
لَمَّا قَدْ تَعَفَّقَى مِنْ رَمَادٍ وَعَرْضَةٍ بَكَيْتُ وَهَلْ يَبْكِي إِلَيْكَ مُحِيسَاهَا
لَمِثَاءَ إِذْ كَانَتْ وَأَهْلُكَ جِيرَةٌ رِثَاءٌ وَإِذْ يُفْضِي إِلَيْكَ رَسُولُهَا
وَإِذْ تَحْشِبُ الْحَبَّ الدَّخِيلَ لَجَاجَةٍ مِنْ الدَّهْرِ لَا تُمْنَى بَشْيَءٍ يَزِيلُهَا
وَإِنِّي عِدَانِي عَنْكَ لَوْ تَعْلِينِيهِ مَوَازِيٍّ لَمْ يُنْزَلِ سِوَايَ جَلِيلُهَا (١)
مِصَارِعُ أَخْوَانٍ وَفَرُّ قَبِيلَةٍ عَلَيْنَا كَأَنَّا لَيْسَ مِنَّا قَبِيلُهَا
تَعَالَوْا فَإِنَّ الْعِلْمَ عِنْدَ ذَوِي النَّهْيِ مِنَ النَّاسِ كَالْبَلْقَاءِ بَادٍ حُجُولُهَا
نُعَاطِيكُمْ بِالْحَقِّ حَتَّى تَبَيَّنُوا عَلَى أَيْتَانِ تَوَدِي الْحَقَّوْقَ فَضُولُهَا
وَالْإِلا فَعُودُوا بِالْهَجِيمِ وَمَازِنِ وَشِبَانٍ عِنْدِي جَمُّهَا وَحَفِيلُهَا
مَتَى أَدْعُ يَوْمًا نَاصِرِي تَأْتِ مِنْهُمْ كَرَادِيسُ مَأْمُونٍ عَلَى خُذُولِهَا
رَعَالًا كَأَمْثَالِ الْجَرَادِ لَخِيلِهِمْ مُعْكَوِبٌ إِذَا ثَابَتْ سَرِيعُ زُولِهَا (٢)
فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ لَمْ أَفْتَقِدْكُمْ إِذَا ضَمُّ هَمَّامًا إِلَى حُلُولِهَا
أَجَارَتْكُمْ بَسَلٌ عَلَيْنَا مَحَرَّمٌ وَجَارَتْنا حِلٌّ لَكُمْ وَحَلِيلُهَا
فَإِنْ كَانَ هَذَا حُكْمُكُمْ فِي قَبِيلَةٍ فَإِنْ رَضِيتُ هَذَا فَقُلْ قَلِيلُهَا
فَإِنِّي وَرَبِّ السَّاجِدِينَ عَشِيَّةٌ وَمَا صَكَّ نَاقُوسَ النَّصَارَى أَيْلُهَا
أَصَالُ الْحُكْمِ حَتَّى تَبُوءُوا بِمِثْلِهَا كَصَرْخَةِ حَبْلِ يَسْرَتْنَهَا قَبُولُهَا

(١) وزأ القوم دمع بعضهم عن بعض ووزأت الناقة به صرخته . والوزأ محركة الشديد الحلق .

(٢) الرعال جمع رعلة ورعيل وهي القطعة من الخيل القليلة قدر العشرين أو الخمسة والعشرين .
معكوب غبار وأصوات .

..... أما يحيلها
 تنَاهَيْتُمْ عَنَّا وَقَدْ كَانَ فِيكُمْ
 وَإِنْ أَمْرًا يَسْعَى لِيَقْتُلَ قَاتِلًا
 وَلَسْنَا بِذِي عِزَّةٍ وَلَسْنَا بِكَفَّةٍ
 وَيُخْبِرُكُمْ حُمْرَانُ أَنْ بَنَاتِنَا
 فَعِيرُكُمْ كَانَتْ أَذَلَّ وَأَرْضُكُمْ
 فَإِنْ تَمْنَعُوا مِنَّا الْمَشَقَّرَ وَالصَّفَا
 وَإِنْ لَنَا دُرْنِي فَكُلَّ عَشِيَّةٍ
 فَإِنَّا وَجَدْنَا النَّيْبَ إِنْ تَفْصِدُونَهَا
 أَبَا لَمَمُوتٍ خَشْتَنِي عِبَادًا وَإِنَّمَا
 فَمَا مَيِّتَةً إِنْ مَتَّهَا غَيْرَ عَاجِزٍ
 أَسَاوِدُ صَرَعِي لَمْ يَوْسِدْ قَتِيلًا^(١)
 عَدَاءٌ مُعَدَّةٌ جَهْلَةً لَا يُقِيَا بِهَا
 كَمَا حَدَّثَتْهُ نَفْسُهَا وَدَخِيَا بِهَا
 سَيَهْزُلُنْ إِنْ لَمْ يَرْفَعْ الْعِيرَ مِيلَهَا^(٢)
 كَمَا قَدْ عَلِمْتَ جَدُّهَا وَمُحَرِّهَا
 فَإِنَّا وَجَدْنَا الْخَطَّ جَمَانِيَهَا^(٣)
 يُحِطُ إِلَيْنَا خَمْرُهَا وَخَمِيلُهَا^(٤)
 يُدِشُّ بَيْنَنَا سَيْدُهَا وَجَمِيَا بِهَا^(٥)
 رَأَيْتُ مَنَائِي النَّاسِ يَسْعَى دَلِيلَهَا
 بَعَارٍ إِذَا مَا غَالَتْ النَّفْسَ غَوْلَهَا

(١) الأساود اجماعة من الناس .

(٢) يقصد إن لم يرفع أميال الطريق إلينا العير بالميرة .

(٣) المشقر مدينة هجروى مشهورة بالتمر . الصفا بالبحرين . الخط أرض عبد القيس وإليها تنسب الرماح . يقول إنهم يستفنون عن ثمر هجر والصفاء بالخط فتخيلها كثير .

(٤) درني بالجمامة مشهورة بالتمر . الخميل الثريد والطعام .

(٥) السوء اللين ينزل قبل الدرة ويكون في أطراف الأخلاف . الجليل ذوب الشحم . يقول إذا

أكلتم دم الفصيد فذبح نفذوا أولادنا اللبن والشحم .

المهجة الدينية

هذا قسم من أقسام المهجة السياسي، صاحب الحركة الإصلاحية الخطيرة، التي بدأت في الجزيرة بظهور النبي صلى الله عليه وسلم، ودعوته إلى دين جديد. فقد كان للإسلام إلى جانب صفته الدينية صفة سياسية، تهدف إلى توحيد الجزيرة، وخلق دولة كبيرة منها، تخضع لسلطة مركزية واحدة. والمتتبع لهذه الحركة منذ نشأتها، يعجب للمقدرة الفذة التي نظمها وأدارت دفعها، حتى بلغت بها في أقصر وقت، إلى هذه الدرجة من النجاح الكامل والفوز المحقق. وليس من شك في أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان من أنضج العقليات السياسية التي عرفها التاريخ، رحل عن مكة حين وجد المعارضة الشديدة، إلى حيث استطاع أن يأمن على نفسه وصحبه. وكان همه الأول أن يوحد صفوف حزبه، ويجعل منهم كتلة متماسكة. فهو يؤاخي بين المهاجرين والأنصار، وينهى عن العصية، ويصلح بين الأوس والخزرج، فيزيل آثار التارات والعداوات. فإذا تم له توحيد الصفوف بدأ نشاطه السياسي، واحتال لأعداء الدعوة، يتخلص منهم واحدا واحدا.

كان اليهود كثرة في المدينة، فهو يهادنهم، ثم يتخلص منهم دفعة بعد دفعة. كلما نقض فريق منهم عهده أجلاه. فلما تم له توحيد المدينة، وأصبحت كتلة مسلمة ليس بينها دخیل، بدأ سياسته الخارجية، وكانت مكة أول هدف يرمى إليه. فهو يريد أن يستولى على عاصمة عدوه، ويضع يده على أقدس البقاع عند العرب، وقد علم ما سيكون لذلك من أثر أدبي كبير في كل أنحاء الجزيرة. وهو يحتال لأمره، فلا يندفع مهاجما، ولكنه يعجم عود عدوه، فيزور مكة معتمرا، ويقرر أنه لا يريد حربا، وأنه لم يأت إلا زائرا لهذا البيت معظما له، ويقنع في هذه المرة بعقد صلح الحديبية، وهو كسب سياسي

محقق ، أقل مافيه الاعتراف الصريح بالدولة الإسلامية الناشئة .

وهو لا يشغل نفسه بالحرب مع عدوين في وقت واحد ، فهو يهاذن مكة ، ريثما يتخلص من اليهود الذين أجلاهم عن المدينة فاستقروا في خيبر يتربصون به الدوائر . فإذا تم له إخضاعهم وأمن شرهم ، ظل يترقب مكة لأول فرصة تنقض فيها العهد ، وهو يعلم أن ذلك واقع لا محالة ، في حياة تعتمد على الغارة والغزو . فإذا نجح في الغزو . تحقق تقديره ، وأقبلت وفود العرب تترى مبايعة .

وهو يصطنع الأحزاب السياسية ، ويختار دعائها من الشعراء ، فقد علم أنه لا ينهض للرد على شعر المشركين أمام الجماهير إلا شعر مثله . فهم يردون على الكفار بنفس أسلوبهم في التعبير بالأنساب والأيام . فإذا تمت للمسلمين الغلبة نهى عن رواية الشعر القديم . الذي تبادلوه مع أعداء الأمس وأصدقاء اليوم . وعفى على الضغائن القديمة بالصفح الجميل ، لا غالب ولا مغلوب ، فهم جميعا إخوان في الدين ، وعفا الله عما سلف .

وقد علم بثاقب فكره وببعد نظره . أن لا ثبات للإسلام في هذه الجزيرة القاحلة الفقيرة ، إلا أن يزيل الدولتين الكبيرتين الغنيتين على أطرافها ، الفرس والروم . ولكنه لا يتعجل ، فهو يستجم سنتين بعد فتح مكة ، يتبأ لهذه المهمة الكبيرة بتوحيد كتلة المسلمين ، وقد اتسعت رقعتها حتى شملت معظم الجزيرة . فهو لا يجبر أصحاب الديانات السماوية القديمة على اعتناق الإسلام كما يفعل بالكفار ، ولا يضطهدهم ، ولكنه يبذلهم بأرضهم أرضاً في أطراف الجزيرة ، حتى يجعل من الجزيرة كتلة متماسكة متحدة ، تدين بدين واحد . ثم هو لا يفرض على المسلمين عقائد الدين فقط ، ولكنه يوحد بينهم في القوانين المدنية التي تحكمهم ، فهي جزء لا يتجزأ من الدين ، وهي حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . وبذلك أصبحت هذه القبائل

المبعثرة المتفرقة ، تدين لسلطة مركزية واحدة ، ويحكمها لأول مرة في التاريخ قانون واحد في العقوبات والمعاملات .

وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا يفجأ قومه بالنشرع دفعة واحدة . فهو يعتمد على تقاليدهم القديمة ، ولكنه يحتال في توجيهها وتهذيبها ، ويتلطف في قيادتها للخير . فالكعبة هي هي ذلك المكان المقدس ، ولكنه يزيل منها الأصنام ، ويقرسدها في الجاهلية على سداتها في الإسلام . والرق هو هو لا يلغيه ، ولكنه يخففه ، ويضع له القيود ، ويرد على صاحبه إنسانيته ، فهو أخ في الله . والثأر يتركه كما كان من حق صاحبه ، ولكنه ينهى عن الغلو فيه ، ولا يزال يحبب إليهم العفو . حتى يصير العفو أحب إلى أحدهم من القصاص . والحياة البدوية التي تقوم على الغزو والنهب باقية كما هي ، بتقاليدها في السبي والغنائم ، ولكنه يوجهها نحو العدو ، وينتفع بها في نشر الرسالة .

فالإسلام — وهو الدين العربي — كان متأثراً بالمثل الجاهلية إلى حد بعيد . وتأثره بهذه المثل واضح من عدة نواح . فهو دين واقعي . يعرف أن الناس لا يستطيعون أن يتخلصوا من بشريتهم ليعيشوا في عالم المثل وفي آفاق الكمال ، فيقرر أن الحرب ضرورة من ضرورات الحياة . ولازمة من لوازمها ، لا يتم بدونها العمران (ولولا دفعُ الله ببغضهم لبغض لفسدت الأرض . ولكن الله ذو فضل على العالمين — بقرة ٢٥١) (وآتيننا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس . ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات . ولكن اختلفوا فمن آمن ومنهم من كفر . ولو شاء الله ما اقتلوا ولكن الله يفعل ما يريد — بقرة ٢٥٣) . ولذلك فهو يطلب إلى المسلم أن يكون قويا مستعدا للقتال (فإذا لقيتم الذين كفروا فصرب الرقاب . حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق . فإما منا

بَعْدُ وَإِمَا فِدَاءٌ أَوْ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ . وَلَكِنْ لِيَبْشَأُوا بَعْضَ كَمِ بَعْضٍ . وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ — (محمد ء) (فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ يَذَّكَّرُونَ . — الأنفال ٥٧) (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ — الأنفال ٦٠) (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ — التوبة ٢٩) فَالْإِسْلَامُ حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ مُسْلِمٍ صِفَةُ الْمُقَاتِلِ ، حَتَّى إِنَّهُ لِيَكْفِرُ مِنْ دَعَى الْجِهَادِ فَلَمْ يَلْبِ (إِيْمَانُ) الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا . قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ . هُمُ الْكَافِرُ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ — آل عمران ١٦٧) .

وليس من شك في أن الإسلام قد حث على الرحمة والإحسان والعفو في أكثر من موضع ، ولكنه طلب من المسلم أن يكون قويا أولا ، قادرا على أن يدفع عن نفسه أو يقتص من يعتدى عليه ، وله بعد ذلك أن يعفو إن شاء . فالرحمة لا تعرف الطريق إلى قلب الضعيف الخائر ، والعفو والإحسان لا تحتويهما نفس الجبان . فرحمة الضعيف ذلة ومهانة ، وعفوه وإحسانه ضراعة واستكانة .

(فَأُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَاعُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَارَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ، وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ . وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا . فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ . إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلَمَنْ انْتَصَرَ مِنْ

بعد ظالمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين
يظلمون الناس ويَعْجُونَ في الأرض بغير الحق . أولئك لهم عذاب
أليم . وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ الْأُمُور — (شورى ٣٦)
إلى ٤٣) وقد أعلی الإسلام من قدر الذين يوتون في الحروب دفاعاً عن
الدعوة ، فسماهم الشهداء ، وقال فيهم (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) قال صاحب العقد :
وكانوا يتأدحون بالموت قطعاً ، ويتهاجون بالموت على الفراش ، ويقولون
(مات فلان حَتَفَ أَنْفَهُ) ، وأول من قال ذلك النبي صلى الله عليه وسلم^(١)
وروى صاحب العقد أن النابغة الجعدي أنشد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم
قصيدته .

يَا بَنِي السَّمَاءِ مَجْدُنا وَجُدُودُنا وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا
فلما وصل إلى قوله :

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذْ لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْجِمِي صَنْفُوهُ أَنْ يُكْدَّرَا
قال له النبي صلى الله عليه وسلم (لَا يَقْضِضُ اللَّهُ فَاكِ)^(٢) .

كل ذلك يصور بجلاء أن المثل الإسلامية قد ظلت — إلى حد كبير —
تعتمد على القوة كما كانت في الجاهلية ، ونستطيع أن نقول إن الإسلام لم
يكن له أثر كبير في تطور فن الهجاء أو غيره من فنون الشعر . فالعرب —
في معظمهم — لم يدخلوا في الإسلام عن إيمان واقتناع ، ولكنهم غلبوا
على أمرهم ، فدانوا للغالب كارهين . وقد صور القرآن حال البدو منهم —
وهم الكثرة الغالبة — (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا . قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ، وَلَكِنْ
قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) وما هو إلا

(١) المقد الفريد ١ : ٨١ .

(٢) المقد الفريد ١ : ٨٦ . الفض الكسر . يدعو له بأن تسل له أسنانه ، ليسلم له النطق ويظل
على براعة في الخطابة . وهو دعاء شبيه بقوله الآن إذا أعجبنا كلام (يسلم فك)

أن مات النبي . حتى ارتد العرب ، ونزعوا الإسلام من أعناقهم ، حتى احتاج أبو بكر إلى أن يجاهد في نشر الدعوة من جديد .

ونحن لا نغض من الإسلام أو تعاليمه ، حين نقرر هذه الحقيقة . فذلك شأن حركات الإصلاح الكبيرة التي تسبق زمانها ، وشأن العباقة الأفذاذ من المصلحين . الذين يعظم الفارق بينهم وبين أهل عصرهم . وليس على المصلح من حرج في أن يحمل الناس على مذهبه حملا ، ويسوقهم إليه سوقا . بل إن واجبه ، وإيمانه العميق برسالته ليقضيه ذلك ويوجهه عليه . فالجتماع في حال جهله سفيه محدود النظر والتفكير ، والمصلح كالأب الذي يقسو بدافع من الرحمة ، ويزجر ليحمل على الصواب . وإن الناس ليقاومون المصلحين في أول أمرهم ، فإذا مضت الأعوام . وتهيأت عقولهم لفهم دعوتهم . وأشربتها قلوبهم ، فتنوا بها وبصاحبها ، وعجبوا لموقفهم في حال جهلهم وضلالهم .

لم يفهم العرب من النبوة إلا أنها نوع من الملك . ومحاولة بسط الساطان ، وفرض الطاعة على الناس . ولم يفرقوا بين الزكاة التي كان يجمعها النبي من المسلمين ، وبين الإتاوة التي كان يجبيها ولاية اليمن أو الفرس . فقد كان أول مظهر من مظاهر الإسلام أن يرسل النبي مع الوفد الذي يقدم للبيعة عاملا لجمع الزكاة . وكان أول مظهر من مظاهر الارتداد عن الإسلام بعد وفاة النبي امتناع العرب عن أداء الزكاة . وقد ظل عبد الله بن أبي طول حياته على بغض النبي ، والسكيد له ، والحسد لما نال من مكان في قلوب الناس ، لأنه كان يراه ملكا غلبه على قومه ، وسلبه مكانه منهم ، وكانوا قد هموا — فيما يروى الرواة — أن يتوجه قبل مقدم النبي ^(١) وكان اليهود يسمون النبي ملك الحجاز ^(٢) . وأبو سفيان بن حرب يقول للعباس ، وقد عرضت عليه جيوش المسلمين يوم الفتح : والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك

(١) السيرة ٢ : ٢٣٤

(٢) السيرة ٣ : ٣٥١

ابن أخيك الغداة عظيمًا . فراجعهم العباس قائلا : إنها النبوة يا أبا سفيان .
 فيجيب ماريًا : كَفَنَمُ إِذْنُ^(١) وقد بعثه الرسول بعد ذلك مع المغيرة بن
 شعبة ليهدم اللات ، فهاب أن يفعل ذلك بيده ، وقدم المغيرة قائلا : ادخل
 أنت على قومك^(٢) ولم يكن إسلام ثقيف اقتناعا بصحة الإسلام ولا حبا
 فيه ، ولكنهم غلبوا على أمرهم ، ورأوا أن الدعوة قد انتشرت في الجزيرة ،
 وأخذتهم من كل مكان ، فلم يعد لهم طاقة بدفعها أو جهادها . وهم إذا قدموا
 على النبي أبوا أن يحويه إلا بتحية الجاهلية . ثم هم يقيمون في قبة بعيدا عن
 النبي ، ويمسئ بينهم خالد بن سعيد بن العاص حتى يكتبوا كتابهم . وهم
 لا يأكلون من طعام يُقَسَّمُ إليهم حتى يأكل منه خالد . وهم يسألون
 الرسول أن يدع لهم الطاغية — وهي اللات — لا يهدمها ثلاث سنين ،
 فيأبى الرسول عليهم ذلك . ويستغفرونه من كسر أوثانهم بأيديهم ومن الصلاة .
 فلا يقبل منهم شيئا من ذلك . حتى إذا ضاقت بهم السبل ، ولم يروا إلا النزول
 على ما يريد ، قالوا له : يا محمد ! سنؤتيكها وإن كانت دناءة .^(٣) ولما قدم وفد
 بني عامر على النبي ، اشترطوا لنصرته أن يكون لهم الأمر من بعده^(٤) .
 ولم تكن تميم أصلح حالا من ثقيف أو بني عامر . فقد قدم وفدهم على النبي
 مفاخرا منافرا ، ثم أسلموا حين نفر عنهم النبي بشاعره وخطيبه .^(٥) ولم
 تكن قصيدة حسان التي نفر عنهم بها إلا مدحا على طريقة الجاهليين :

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ مِنْ أَشْيَاءِهِمْ نَفَعُوا
 لَا يَرْقَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكْفُهُمْ عِنْدَ الدَّفَاعِ وَلَا يُوهُونَ مَارَقَعُوا
 إِنْ سَابَقُوا النَّاسَ يَوْمَ فَازَ سَبَقُكُمْ أَوْ وَا زُنُوهْلَ هَجَدٍ بِالنَّدَى مَنَعُوا

(٢) السيرة ٤ : ١٨٦

(١) السيرة ٤ : ٤٧

(٤) السيرة ٢ : ٦٦

(٣) السيرة ٤ : ١٨٤

(٥) السيرة ٤ : ٢١٠ ، ابن الأثير ٢ : ١٩٥

لَا يَنْخَلُونَ عَلَى جَارٍ بِفَضْلِهِمْ وَلَا يُمْسُهُمْ فِي مَطْمَعٍ طَبَعُ
وقد كانت الشعراء تمدح النبي بما تمدح به الملوكة والسادة ، من الشجاعة والوفاء ،
والبطش بالأعداء ، وسعة العطاء . يمدحه أنس بن زعيم بن مالك فيقول (١) :

وَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا أَبْرًا وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ
أَحَثُّ عَلَى خَيْرٍ وَأَسْبَغَ نَائِلًا إِذَا رَاحَ كَالسَيْفِ الصَّقِيلِ الْمُهَنْدِ
وَأَكْسَى لُبِّ دِ الْخَالِ قَبْلَ ابْتِدَالِهِ وَأَعْطَى لِرَأْسِ السَّابِجِ الْمُتَجَرِّدِ
وَيَمْدَحُهُ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ فِيَقُولُ (٢) :

مَا إِنِ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ فِي النَّاسِ كَلِمَةٍ بِمِثْلِ مُحَمَّدٍ
أَوْفَى وَأَعْطَى لِلْجَزِيلِ إِذَا أُجْتَدِيَ وَمَتَى تَشَأْ يُخْبِرُكَ عَمَّا فِيْ غَدٍ
وَإِذَا السَّكِينَةُ عَرَدَتْ أُنْيَابُهَا بِالسَّمْرِى وَضَرْبِ كُلِّ مِهْنَدٍ
فَكَانَهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ وَسَطَ الدَّيَّاسَةِ خَادِرٌ فِي مَرَصَدٍ
فَالْإِخْبَارُ عَمَّا فِيْ غَدٍ هُوَ كُلُّ مَا يَفْهَمُهُ مِنَ النَّبِوةِ .

وقصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) لا تختلف كثيراً عن قصائد النابغة
في الاعتذار . يقول فيها :

لَقَدْ أَقُومَ مَقَامًا لَوْ يَقُومُ بِهِ أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الْفِيلُ
لَظَلَّ يَرْعَدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنَ الرَّسُولِ يَا ذَنْنَ اللَّهِ تَنْوِيلُ (٣)
حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي لَا أَنْزَعُهُ فِي كَيْفِ ذِي نَقَاتٍ قِيلَهُ الْقِيلُ
فَلَهُوَ أَخْوَفُ عِنْدِي إِذَا أَكَلَمَهُ وَقِيلَ إِنَّكَ مَنْسُوبٌ وَمَسْئُولُ (٤)

(٢) السيرة ٤ : ١٣٤

(١) السيرة ٤ : ٦٩

(٣) يقول إن الفيل على ضامته لو قام مقامه لظل يرتعد خوفاً حتى يكون له ماذن الله تأمين من

الرسول يسكن روعه .

(٤) منسوب إلى أمور صدرت منه ومسئول عنها .

مِنْ صَنِيعِمْ بَضْرَاءِ الْأَرْضِ مُخْدَرُهُ يَبْطِنُ مَكَّةَ غَيْلٌ دُونَهُ غَيْلٌ ^(١)
يَغْدُو فَيُلَاجِمُ ضَرْغَامِينَ عَيْنُهُمَا لَحْمٌ مِنَ النَّاسِ مَعْفُورٌ خَرَادِيلٌ ^(٢)
إِذَا يُسَاوِرُ قَرْنًا لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَتْرَكَ الْقَرْنَ إِلَّا وَهُوَ مَقُولٌ ^(٣)
مَنْ تَظَلَّ سَبَاعُ الْجِيَّوِ نَافِرَةٌ وَلَا تَسْمِيَّ بِوَادِيهِ الْأَرَاجِيلِ ^(٤)
وَلَا يَزَالُ بِوَادِيهِ أَخُو ثَقَفَةٍ مُضْرَجُ الْبَزِّ وَالذَّرْسَانُ مَا كُولٌ ^(٥)
فِي عَصْبَةٍ مِنْ قَرِيشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ يَبْطِنُ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زَوْلُوا

وليس صحيحاً ما يقال من أن العصبية الجاهلية قد سكنت في حياة النبي إلى حين ، ثم استؤنف بعد موته ، فالواقع أن العصبية قد استمرت حادة عنيفة في حياة النبي وبعد موته ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم ، قد استطاع بحكمته وحسن تدبيره ، أن يتفادى شرورها ، ويحسن استغلالها لصالح الدعوة ، ويحوّلها في بعض الأحيان إلى تنافس في السبق إلى تدعيم الدين الجديد ونصرته ، والأدلة على ذلك كثيرة في كتب السيرة :

نهى النبي أصحابه في وقعة أحد أن يقتلوا بني هاتم ، ونهاهم أن يقتلوا عمه العباس ، فقال رجل من الانصار اسمه أبو حذيفة : أقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس ؟ والله إن لقيته لا لحمنه السيف . وبلغ قوله النبي ، فدعا إليه عمر وقال : يا أبا حفص ! أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟ فقال عمر : يا رسول الله دعني فلاضرب عنقه بالسيف

(١) صنيم أمد . ضراء الأرض الأرض التي فيها نجر . المخدر عابة الأسد . عثر مكان مشهور بكثرة الداع . الفيل الفجر الملتف .

(٢) يغدو يخرج أول النهار في طلب الصيد . يلحم يلحم أشباله اللحم . الضرعامين يقصد بها شبلية . معفور ملقى في التراب . وصفه بذلك لكثرة وعدم اكترائه به لشبهه . خراديل قطع صغار .

(٣) يساور يواكب . مظلوم مكسور مظلوم .

(٤) الأراجيل الجماعة من الرجال . وهي جمع أرجال . وأرجال جمع رجل ورجل اسم جمع لرجل .

(٥) أخوثة الشجاع الواقع لشجاعته . البز السلاح . الذرسان بضم الدال أخلاق الثياب جمع دريس .

فقد ناقق^(١) والعباس عم النبي قد حزن واكتأب حين أشاع الناس في مكة أن النبي غُلبَ في فتح جُنيَند وأسر ، وإنما حزن عصبية لابن أخيه ، لأنه كان وقتذاك على شركه لم يسلم^(٢) . ثم هو بعد ذلك يجير أباسفيان يوم الفتح ، ويغضب له ، حين يلح عمر في قتله ، فيرد عليه قائلا : مهلاً يا عمر ! فوالله لو كان من بني عَدِيَّ بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف^(٣) . وأجار كثير من المسلمين بعض أقربائهم من أهل مكة يوم الفتح^(٤) . واحتفى معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بعثمان ابن عفان في المدينة بعد وقعة أحد ، فجهزه بعد أن سأل رسول الله فيه^(٥) . ولقى ضرار بن الخطاب يوم أحد عمر بن الخطاب ، في الجولة التي جأها المسلمون ، وكان قد آلى أن لا يقتل يومئذ قرشياً ، فضربه بعارضة سيفه وقال انج يا ابن الخطاب لا أقْتُلْكَ^(٦) .

وأمر النبي سعد بن عبادة في فتح مكة أن يدخل ببعض الناس في كداء ، فسمعه بعض المهاجرين يقول وقد مضى لوجهه : اليومَ يومَ المَلْحَمَةِ . اليَوْمَ تُسْتَحَلُّ الحُرْمَةُ . ! فذهب بها إلى رسول الله ، وشكا إليه خوفه على أهل مكة منه ، فعزل النبي سعد بن عبادة ، وولى مكانه عليا^(٧) ودخل خالد بن الوليد على بني جذيمة (من كنانة) بعد الفتح ، فنال منهم بغير إذن النبي ، وكان قد بعثه داعياً للإسلام ، ولم يأمره بقتال . وإنما قتلهم بثأر قديم لعمه الفاكه بن المغيرة . وقد برى رسول الله من عمله ، واستقبل القبله قائماً شاهراً يديه يقول : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد . وأرسل عليا لتلافي الأمر ، ومعه ديات القتلى ، وقال له : اخرج إلى هؤلاء القوم ، وانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك^(٨) .

(٢) السيرة ٢ : ٣٦١

(٤) السيرة ٤ : ٥٣

(٦) ابن سلام ٩٨

(٨) السيرة ٤ : ٧٢

(١) السيرة ٢ : ٢٨١

(٣) السيرة ٤ : ٤٥

(٥) إمتاع الأسماع ١ : ١٦٦

(٧) السيرة ٤ : ٤٩

وقد ظل التنافس قائما بين المهاجرين والأنصار قبل الفتح وبعده . ولم يزل حسان يفتخر في شعره بقومه ، وبنصرهم الرسول ، وبأيامهم معه ، ومجدهم قبل ذلك في جاهليتهم ، فلما نال من قريش حين قال :

أَمْسَى الْجَلَاءُ بَيْبٌ قَدْ عَزُّوا وَقَدْ كَثُرُوا

وَابْنُ الْفُرَيْعَةِ أَضْحَى بَيْضَةً الْبَلَدِ

انطلق إليه صفوان بن المسعطل وجُعَيْلُ بن سُراقَة ، فضربه صفوان حتى كاد يقتله . واشتكى حسان إلى النبي ، فأمر بحبس صفوان ، وأن يُقَادَ بحسان إن مات . ثم مشى سعد بن عبادَة بين قومه حتى عفوا عنه ، تقربا إلى النبي ^(١) . وخاصم المسلمون كعب بن مالك حين تخلف عن غزوة تبوك ، فظل خمسين يوما لا يكلمه منهم أحد . فلما تاب الله عليه ورُدَّ إليه اعتباره ، لم يَقم إليه من المهاجرين مهتئا إلا طلحة بن عبيد الله ^(٢) . وظهرت آثار هذا التنافس واضحة بعد موت النبي ، في انحياز الأنصار إلى سعد بن عبادَة في سقيفة بني ساعدة ، وانحياز المهاجرين إلى أبي بكر ^(٣) . وأرسل ضرار بن الخطاب وعبد الله بن الزبيري في طلب حسان لينشدها ويذاكراه ، فظلا ينشدانه . حتى إذا غلا كالرجل ، قعدا على رواحهما . فشكاهما حسان إلى عمر ، فردهما عليه ، وأمره أن ينشدهما مثل ما أنشدها ^(٤) . وروى صاحب العقد أن رجلا من اليمن دخل الكوفة ، فأتى المسجد ، فإذا عُمَار بن ياسر ، ورجل ينشده هجاء معاوية وعمر بن العاص ، وهو يقول — أَلْصِقْ بِالْعَجُوزَيْنِ . فقال له اليمنى : سبحان الله ! أتقول هذا وأنت أصحاب الرسول ؟ قال : إن شئت فاجلس ، وإن شئت فاذهب . فجلس الرجل . فقال : أأدرى ما كان يقول لنا رسول الله لما هجانا أهل مكة ؟ فقال : لا أدرى . قال : كان يقول لنا ، قولوا لهم مثل ما يقولون لكم ^(٥) .

(٣) إتياع الأسماع ١ : ٢١١

(٤) السيرة ٤ : ١٨٠

(٥) السيرة ٤ : ٢٠٦

(٦) العقد الفريد ٦ : ١٤٦

(٦) ابن سلام ٩٤

كل هذا يثبت بشكل قاطع ، أن النزعة العنصرية لم تفتقر بظهور الإسلام ولم تضعف ، بل استمرت حادة عنيفة ، وإنما ضبطها ومنعها أن تشذ فتفسد الدعوة ، شخصية النبي القوية ، وبعد نظره ، وحسن تدبيره للأمور .

وقد أثار الإسلام في العرب حركة فكرية عنيفة لا عهد لهم بمثلها ، وصور القرآن جانباً منها فيما روى من حجج الكفار ورده عليهم . كان النضر بن الحارث إذا جلس رسول الله في مجلس ، فذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهل إلى ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه . ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسبنديار — وكان قد قدم الحيرة فتعلها بها — ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثاً مني ؟^(١) وجلس رسول الله يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم في المجلس ، وفي المجلس غير واحد من قريش ، فتكلم رسول الله . فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه رسول الله حتى أخفمه ثم تلا عليه وعليهم (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ . لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُّوهَا . وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ . لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يُسْمَعُونَ) ثم قام رسول الله ، وأقبل عبد الله بن الزبير السهمي حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبير : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً ولا قعد ، وقد زعم محمد أننا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم . فقال عبد الله بن الزبير : أما والله لو وجدته لخصمته ، فسلوا محمداً ، أكُلُّ ما يعبد من دون الله في جهنم مع عبده ؟ ففتح نعب الملائكة ، واليهود تعبد عزيزاً ، والنصارى نعبد عيسى بن مريم ! فعجب الوليد ومن كان في المجلس من قول عبد الله بن الزبير ، ورأوا أنه قد احتج وخصم^(٢) .

وقد أدرك النبي قيمة هذه الحرب الكلامية ، وما ترك من أثر في نفوس الناس ، فنظم الدعاية حول الدين ، وعنى بالرد على شعراء قريش ، نادباً لذلك بعض الشعراء من المسلمين ، فكان الهجاء والقتال متلازمين في نشر الدعوة ، كما يقول حسان :

لنا في كل يوم من مَعَدٍ سِبَابٌ أو قتالٌ أو هجاء
فَنُجِّمُ بالقوافي من هجائنا وَنَضْرِبُ حينَ تَحْتَلِطُ الدماءُ

كان النبي يختار الشعراء الذين يذودون عن الدعوة بنفسه . نادى عبد الله بن رواحة فقال له : كيف تقول الشعر إذا قلت ؟ قال : أنظر في ذلك ثم أقول . قال : فعليك بالمشركون ! فقال قصيدته ^(١) .

فخَبَّرُونِي أَمَّ مَانَ الْعَبَاءِ مَتَى كُنْتُمْ بِطَارِيقٍ أَوْ دَانَتْ لَكُمْ مَضَرٌّ؟
ولما انهزم المشركون يوم الأحزاب ، قال رسول الله صلى عليه وسلم .
إن المشركين لن يغزوكم بعد اليوم ، ولكنكم تغزونهم ، وتسمعون منهم
أذى ، ويهجونكم ، فمن يحمي أعراض المسلمين ؟ فقال عبد الله بن رواحة فقال :
أنا . فقال : إنك حسن الشعر . ثم قام كعب فقال : أنا . فقال : وإنك لحسن
الشعر ^(٢) . وروى عن النبي أنه قال : أمرت عبد الله بن رواحة فقال :
وأحسن ، وأمرت حسان فشئني واشتئني ^(٣) . ووقف رسول الله صلى
الله عليه وسلم بياب كعب بن مالك ، فخرج فأنشده ، ثم قال : إيه ! فأنشده .
ثم قال : إيه ! فأنشده . ثلاث مرات . فقال رسول الله : لهذا أشدُّ عليهم
من وقع النبل ^(٤) .

وقد قام النبي بنفسه على الشعر يشرف عليه ويصلحه . قال لكعب بن
مالك في قصيدته (مُجَالِدُنَا عَنْ جِذْمِنَا كُلِّ فَخْمَةٍ) يصلح أن

(٣) الأغانى ١٥ : ٢٩٠

(٤) الأغانى ٥ : ٣٠

(١) ابن سلام ٨٧

(٢) الأغانى ١٥ : ٣٠

تقول (مَجَالِدُنَا عَنْ دِينِنَا) قال : نعم . فقال الرسول : فهو أحسن^(١) .
وعلم ما يحدث شعر الكفار من أثر في نفوس المسلمين إذا تكرر سماعهم
له ، فنهأهم عن الجلوس إليهم والاستماع لقولهم (وإذا رأيت الذين يَخْوضُونَ
في آياتنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخْوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ . وَإِنَّمَا
يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىَ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ —
الأنعام ٦٨) وأبطل رواية بعض الشعر . قال صاحب الخزانة إن النبي نهى
عن رواية قصيدة أمية بن أبى الصلت :

(مَاذَا بَبَدِرَ فَالْعَقَنَقَلِ مِنْ مَرَازِبَةٍ جَحَاجِحِ)

التي يحرض فيها قريشا بعد وقعة بدر^(٢) . وقد رواها ابن هشام ، وأولها .
أَلَا بَكَيْتَ عَلَى الْكِرَامِ بَنَى الْكِرَامِ أُولَى الْمَمَازِحِ .
وقال في آخرها : تركنا منها بيتين ، نال فيهما من أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم^(٣) . ونهى عن رواية الشعر الذي هُجِيَ به أصحابه .
قال صاحب الخزانة بعد أن روى آياتنا من قصيدة الأعشى :

شَاقَتَكَ مِنْ قَتْلِكَ أَطْلَاهَا . . . بِالشَّطِّ فَالْوَتَرِ إِلَى حَاجِرِ

وهى التي يهجو فيها علقمة بن علاثة ، ويمدح ابن عمه عامر بن الطفيل ،
في المنافرة المشهورة التي كانت بينهما . قال بعد أن روى من القصيدة آياتنا :
وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن رواية هذه القصيدة ، ولهذا لم أذكرها
كلها^(٤) . وأهدر النبي صلى الله عليه وسلم دم بعض الهجائين من المشركين ،
فمن أمر بقتله عصماء بنت مروان من بنى أمية بن زيد ، كانت تعيب الإسلام
وتحرض على النبي ، وتقول في ذلك شعرا ، قتلها عمير بن عدى بن

(١) السيرة ٣ : ١٤٣ ، الأغانى ١٥ : ٣٠

(٢) خزانة الأدب ١ : ١٨٢ .

(٣) السيرة ٣ : ٢١

(٤) خزانة الأدب ٢ : ٣٦٦

خرشة^(١) وكذلك أبو عفك اليهودى ، قتله سالم بن عمير بن ثابت^(٢) ، وكعب بن الأشرف اليهودى ، كان يهجو النبى وأصحابه ، ويحرض عليهم كفار قريش فى شعره ، ثم خرج إلى مكة بعد بدر ، فجعل يربى قتلى بدر ، ويحرض قريشا ، وعاد إلى المدينة ، فقال النبى : اللهم اكفنى ابن الأشرف بما شئت ، فى إعلانه الشر ، وقوله الأشعار . ثم قال : من لى بأبن الأشرف ، فقد آذانى ؟ فقال محمد بن مسلمة : أنا به يارسول الله ، وأنا أقتله . قال : فافعل^(٣) . ولما جاءت اليهود للنبى تشكرو قتله . نال لهم ، لو فر كما قد فر غيرهُ من هو على مئـل رأيه ما اغتيل ، ولكنه نال منا الأذى ، وهجانا بالشعر ، ولم يفعل ذلك أحد منكم إلا كان السيف^(٤) .

وكان ممن أمر الرسول بقتله عند الفتح عبد الله بن خططل . وكانت له قيتان تغنيان بهجاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأمر بقتلهما معا ، فقُتلت إحداهما ، وفرت الأخرى حتى استقر من لها النبى فأمنها^(٥) . ولم يقف تشجيع النبى للحركة الأدبية عند الشعراء ، بل تعداهم إلى الخطباء . قال الجاحظ يُعَدُّ من الخطباء من الأنصار ثابت بن قيس بن شماس خطيب النبى^(٦) . وهو الذى تولى الرد على خطيب تميم حين قدموا على النبى يفاخرونه^(٧) .

وقد كان أثر هذه العناية بالدعاية للدين واضحا فى نمو فن الهجاء وعنفه ، ولكنه لم يترك أثرا واضحا فى أسلوب هذا الفن ، فقد ظل كما كان جاهليا فى صميمه ، معتمدا على الأنساب ، والتعير يضعف العصبية ، وخمول الذكر ، والعجز عن حماية الجار ، والاستسلام للهاجمين من الأعداء ، والقيود عن

(١) إمتاع الأسماع ١ : ١٠٢ . السيرة ٤ : ٢٨٦

(٢) إمتاع الأسماع ١ : ١٠٣ (٣) إمتاع الأسماع ١ : ١٠٨

(٤) إمتاع الأسماع ١ : ١١٠

(٥) السيرة ٤ : ٥٢ ، المدة ١٠٠

(٦) البيان والتبيين ١ : ٢٣ (٧) السيرة ٤ : ٢٠٧

الثَّارَ ، إلى أمثال هذه الخصال التي تصور المثل الجاهلية ، ولم يتأثر بالمثل الدينية الجديدة في قليل أو كثير . ولم يحرص النبي على توجيه الهجاء هذه الوجهة الجديدة ، فهو يدل حسان على أبي بكر ، ليعينه في أنساب قريش ، ويدله على عوراتهم . وهو يقول لشعراء المسلمين : قولوا لهم مثل ما يقولون لكم .^(١) ذلك لأنه قصد إلى التأثير في الجماهير ، ولم يكن التعبير بالشرك ، وعبادة مالا يعقل ، ومخالفة الخلق القويم ، ليصنع في هذا المقام شيئاً ، فالهجاء فن يعتمد على الواقع ، وعلى القيم الأخلاقية والاجتماعية كما يتصورها العصر . قال صاحب الأغاني . كان يهجو قريشاً ثلاثة نفر من الأنصار يمجونهم ، حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة . وكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب . وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم الكفر ، ويعلم أنه ليس فيهم شر من الكفر . فكانوا في ذلك الزمان أشدَّ شيء عليهم قول ابن رواحة . فلما أسلموا وفقهوا الإسلام . كان أشدَّ القول عليهم قول ابن رواحة .^(٢) والواقع أننا لا نظفر بالهجاء الديني بالمعنى الدقيق إلا في القرآن .

ونحن لا نأتي بجديد ولا ندعى شيئاً خطيراً ، حين نقول إن في القرآن هجاء . فالعرب أنفسهم نظروا للآيات التي تعرضت لهم ولآلهمم بالتسفيه على أنها هجاء . روى صاحب السيرة أن أم جميل بنت حرب بن أمية قصدت إلى رسول الله ، حين نزل قوله تعالى (تَبَّتْ يَدَايَ لِهَبِّ وَتَبَّ مَا غَنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَى نَسَاراً ذَاتَ لَهَبٍ . وامرأته حَمَالَةٌ الْحَطَبِ ، فِي جِدِّهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ) فقالت لأبي بكر : يا أبا بكر ! أين صاحبك ؟ فقد بلغني أنه يهجوني ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه .

(١) المقدم الفريد ٦ : ١٤٥

(٢) الأغاني ١٥ : ٢٩

أما والله إني لشاعرة ، ثم قالت : مذمماً عصينا . وأمره أيينا . ودينه قَلِينا . ثم أنصرفت ^(١) .

وقال صاحب العقد : قال الله تبارك وتعالى في هجو المشركين (والشُعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ، وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا . وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ .) فأرخص الله للشعراء بهذه الآية في هجائهم لمن تعرض لهم ^(٢) .

وروى صاحب السيرة أن سورة براءة ، كانت تسمى في زمان النبي صلى الله عليه وسلم وبعده المُبْعَثِرَةِ ، لما كشفت من سرائر الناس .

نقول إن الهجاء الذي لازم الدعوة قد ظل معتمدا على المثل الجاهلية ، وأن الهجاء في القرآن هو وحده الذي يقوم على مثل دينية إسلامية . فهو لا يهدد الكفار بغارة تسيل فيها الدماء ، وتسبي فيها النساء . ولا يخوفهم بشعر شرود ، يتحدث به الركبان ، ويذيع في كل مكان ، ولكنه ينذرهم نارا وسعيرا ، وعذابا أليما ، وألوانا من النكال ، تنتظرهم حين ينقلبون إلى ربهم . وهو لا يعيرهم الضعف والفقر وخمول الأحساب ، ولكنه يعيرهم الكفر والضلال وقصر النظر وانطاس البصيرة .

فما هُجِيَ به عبد الله بن أبي بن سلول وصحبه من المنافقين ، وكان رأسهم إليه يجمعون ، وكانوا يدسون إلى بني النضير حين حاصرهم رسول الله ، أن اثبتوا وتمنعوا فَإِنَّا لَا نُسَائِمُكُمْ :

(إذا جاءكَ المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة

(١) السيرة ١ : ٣٨١

(٢) السيرة ٤ : ١٩٩

(٣) العقد الفريد ٦ : ١٤٥

فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ^(١) ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا
ثُمَّ كَفَرُوا فَطُجِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ^(٢) . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ
أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنَّ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ ،
يَخْشِبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ فَأَحْذَرَهُمْ ، قَاتِلَهُمُ اللَّهُ
أَنِّي يُؤْفِكُونُ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ
لَوَّارًا وَرُوسَهُمْ ، وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ . سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ
أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنَّ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ . هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ
رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ، وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ
الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ^(٣) ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (سورة المنافقون ١ - ٨) .

~ ~ ~

وبما هُجِيَ به المنافقون من الأوس والخزرج :

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ .
يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ .
فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ^(٤) ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا
يَكْذِبُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ،

(١) أى اتخذوا شهادتهم للرسول بالرسالة وقاية لهم من القتل والأسر . يحلفون لك لتصدقهم .

(٢) الطبع الختم . طبع على قلوبهم أى ختم عليها . يصور قلوبهم في عدم قبولها للنصح كأنها قد
أغلقت وختمت عليها ، حتى ما ينفذ إليها شيء .

(٣) قال ذلك عبد الله بن أبي بن سلول في غزوة بني المصطلق ،

(٤) في قلوبهم مرض . صور ذلك الذى في قلوبهم مرضاً .

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمَنُوا كَمَا
آمَنَ النَّاسُ ، قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ؟ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ
وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا
إِلَى شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ^(١) . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ
وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ^(٢) . أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُوا الضَّلَالَةَ
بِالْهُدَى فَمَا رََبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ . مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ
الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ
وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ^(٣) ، صُمُّكُمْ عُمى فَهُمْ
لَا يَرْجِعُونَ ^(٤) ، أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ
وَبَرْقٌ ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ،
وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ . يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ، كُلَّمَا
أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ، وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ^(٥) . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ
بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ — بقرة ٨ — ٢٠) .

وَمَا هِيَ بِهِ أَهْلُ النِّفَاقِ فِي يَوْمِ الْحُنْدُقِ :

(١) وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شِيَاطِينِهِمْ . يقصد بالشياطين أنصار هؤلاء المنافقين من اليهود .

(٢) يَعْمَهُونَ أى يتحيرون والعمه الحيرة .

(٣) أى لا يبصرون الحق . يشبههم بالذى يوقد النار اهتدى بها ، فلما أضاءت النار عى هو ،

لم يستفد من ضوئها . وَإِنَّمَا اهتدى بها المبصرون .

(٤) صم بكم عى عن الخير . فهم لا يرجعون إلى الهدى .

(٥) الصيب المطر من صاب بصوب مثل السيد من ساد يسود والميت من مات يموت . هذا مثل

آخر صور به حالهم فى كفرهم وحيرتهم وخوفهم من أن يتكشف أمرهم للسليلين فيقتلهم . فهم كالذى

يخبط فى هذا الجو الخفيف وقد أظلمت السماء وأرعدت وأبرقت . فانكش وأضأ أصابعه فى أذنيه لا يدري

أن يذهب ، لا يكاد يلع البرق فيبصر فى ضوءه خطوة أو خطوتين ، حتى يعود الجوالى حلكتة العديدة

وظلامه المطبق ، فيقف فى مكانه حائرًا متخوفًا .

(يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً و جنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعلمون بصيراً ^(١) .
 إذ جاءوكم من فوق فكنتم ومن أسفل منكم ^(٢)) ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ^(٣) . وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا . ويستأذن فريق منهم النبي ، يقولون إن يئوتنا غزوة ، وما هي بغزوة ، إن يريدون إلا فراراً ^(٤) . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها ، وما تكلبشوا بها إلا يسيراً ^(٥) . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون إلا دبار ، وكان عهد الله مسئولا . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ، وإذا لا تتمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سواءاً أو أراد بكم رحمة ؟ ولا يسجدون

(١) الخود قريش وعطفان وبنو قريظة . قريش وعطفان ومن تبعهم من أهل نجد هاجموا المدينة من جهة ، ويهود بنى قريظة وفد بقضوا عهدهم مع الرسول يريدون اعتنام الفرصة للقضاء عليه هاجمونه من جهة أخرى .

(٢) الذين جاءوهم من فوقهم بنو قريظة ، والذين جاءوهم من أسفل منهم قريش وعطفان .

(٣) ابتلى المؤمنون امتحن صبرهم وثباتهم . وذلك أن الأمر قد أشد على المسلمين بخيانة اليهود لهم وحصار عدوم بلدهم ، ووقعهم بذلك بين بلاءين ، عدو من الخارج وعدو من الداخل ، وهم الرسول أن يصلح بنى عطفان على تلك ثمار المدينة لولا اعتراض سعد بن معاذ . وعظم بذلك البلاء ، واشتد الخوف ، وتزعزع إيمان الناس . وظهر النفاق ، حتى قال بعضهم (كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كمرى وقير . وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن ينهب للمناط) .

(٤) بصور ذلك تزعزع الإيمان في قلوب المنافقين والمترابين ، الذين أخذوا يبطلون الناس ، ويستأذنون النبي في الرجوع إلى بيوتهم لحمايتها . زاعمين أن أهلهم معرضون العدو .

(٥) الأقطار الجوانب واحدها قطر . رلو سئلوا الفتنة أى الرجوع إلى الشرك

لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً . قد يعلمُ اللهُ المُتَوَقِّينَ مِنْكُمْ ،
وَالْقَاتِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ، وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ^(١) .
أَشْحَةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدَوُّرُ
أَعْيُنِهِمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ^(٢) فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ
بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ، أَشْحَةً عَلَى السَّخِيرِ . أُولَئِكَ لَمْ يُوْثِقُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ،
وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ، يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ^(٣) ، وَإِنْ يَأْتِ
الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ كَادُّونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ ،
وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا — الْأَحْزَابُ ٩ إِلَى ٢٠) .

* * *

وما هجى به اليهود في إعراضهم عن النبي ، وكانوا يتحدثون قبل ذلك بأن
نبياً يَسْبُغَتْ ، قد حان وقته ، فلما جاء كفروا به . وهم هنا يَمَعِّيرُونَ عِبَادَتَهُمْ
الْعَجْزَلُ بعد أن جاءهم نبينهم موسى بالبينات ، ثم قَتَلَهُمْ عِيسَى بعد ذلك ، ثم
مَخَالَفَتَهُمْ دينهم ، في كَتَحَزَبٍ فَرِيقٍ مِنْهُمْ لِلْأَوْسِ ، وَتَحَزَبٍ فَرِيقٍ آخَرَ
لِلْخَزِرَجِ . فهم يقاتلون معهم في حروبهم ، فيستفكون بينهم دماءهم ، ويخرج
بعضهم البعض من ديارهم ، وقد حُرِّمَ عليهم ذلك في كتابهم :

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِكُمْ ، وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ
كَلَامَ اللَّهِ ، ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ . وَهُمْ يَعْلَمُونَ ^(٤)) وإذا
لَسِقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض ، قالوا

(١) الْبَاسُ الْقِتَالُ . لَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا يَحَارِبُونَ بِغَيْرِ نِيَّةٍ صَادِقَةٍ ، إِقَامَةً لِلْعَذْرِ عِنْدَ مَنْ يَرَاهُمْ .

(٢) يَمَاجُونَ الْمَوْتَ لضعف إيمانهم ولأنهم لَا يَرْتَقُونَ بِالْجَنَّةِ وَبِثَوَابِ الشَّهَادَةِ .

(٣) الْأَحْزَابُ هُمُ الْمَاهِجُونَ مِنْ فَرِيشٍ وَعُطْفَانٍ . انْهَضُوا وَتَفَرَّقُوا شِعْلَهُمْ ، وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ
يَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ قَائِمِينَ لَشِدَّةِ ذَعْرِهِمْ . وَشَيْءٌ بِذَلِكَ قَوْلُ جَرِيرٍ .

ما زالت تحب كل شيء . بعدما حِيلَا نَكَرَ عَلَيْكُمْ وَرَجَلَا

(٤) يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ بِعَنِ التَّوْرَةِ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَى قَوْمِ مُوسَى .

أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ، وَمَا يُعْلِنُونَ؟^(١) وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ^(٢). فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ، ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ. وقالوا لَنْ نَمَسَّ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً. قُلْ أَتُخَذَتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ؟ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ^(٣)؟ بَلَى! مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِبُنَا فَتُؤَلِّكَ أَصْحَابُ النَّارِ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ، لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ، وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ، ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ. وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ، ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ. ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ، وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ، وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ. أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ

(١) لا يعلون الكتاب إلى أمانى : إلا قراءة . يقول إنهم لا يعلون الكتاب إلا أنهم يقرءونه . فعلمهم به ظل وأبى يقيا .

(٢) كان اليهود يقولون إن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة . وإنما يعذب الله الناس بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوماً واحداً في النار من أيام الآخرة ، وإنما هي سبعة أيام ثم ينقطع العذاب .

يَغْضُ^(١)؟ فَاجْزَأْ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا،
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .
أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنْصَرُونَ . وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ، وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ،
وَأَتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ، وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ^(٢) أَفَكُلَّمَا
جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ ؟ فَفَرِّقُوا كَذِبًا بَيْنَ
وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ؟ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ^(٣) . بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
بِكُفْرِهِمْ ، فَتَقَلَّبُوا مَا يَوْمَنُونَ . وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ
كَفَرُوا^(٤) . فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ .
بَشَرًا مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، بَغْيًا أَنْ
يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ^(٥) ، فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى
غَضَبٍ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ

(١) حرم الله على اليهود في التوراة أن يقتل بعضهم بعضا ، وافترض عليهم فداء أسراهم ،
ولكنهم خالفوا أمر التوراة ، خالف فريق منهم الخرج وحالف فريق آخر الأوس ، فكانوا إذا
اقتل الأوس والخرج قاتلوا معهم ، فقتلوا دماءهم بينهم ، مخالفين كتابهم ، فاذا وضعت الحرب
أوزارها اعتدوا أسراهم علبا بما في التوراة . والقرآن يبيّنهم ، مخالفين كتابهم ، فاذا وضعت الحرب
يبيع الكتاب وتكفروا ببعض ؟) فظاهرون عليهم بالاثم والعدوان أي تبنون عليهم من يشرك بالله
ويبعد الأوثان ممن ليسوا بأهل كتاب ولا أصحاب دين ، وهم الأوس والخرج .

(٢) وآتيناه عيسى بن مريم البينات من إحياء الموتى ، وحلقه من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه
فيكون طيرا باذن الله ، وإبراء الأسماع ، والخبر بكثير من الغيوب ما يدحرون في بيوتهم .
(٣) قلوبنا غلف أي على غلاف حجة .

(٤) يستفتحون أي يستنصرون . كان الأوس والخرج ظاهرين على اليهود في المدينة . فكان
اليهود يقولون لهم : إن نينا سيطر فكون معه ونذلك . فلما تبع الأوس والخرج النبي كفرت به اليهود
(٥) كان اليهود يرجون أن يكون النبي منهم لأنهم أصحاب كتاب . فلما طهر من غيرهم كفروا به
وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

الله ، قالوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ، وَيَكْفُرُ نَ بِمَا وَرَاءَهُ ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ . قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ^(١) ؟ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ . ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ^(٢) . وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْتَكُمْ الطُّورَ ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا . قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا . وَأُتِرْ بُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ . قُلْ نَسْ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

قل إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ ذَوْنِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ^(٣) . وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَلَتَجِدَنَّاهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ، وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ، يُودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَمَا هُوَ بِمُرَحِّزٍ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ . قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ^(٤) . مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ . وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ . أَوْ كَذَّبُوا مَا عَاهَدُوا

(١) يشير إلى قتل اليهود عيسى من قبل . ويبين أنهم أهل شقاق ومكابرة دائما .

(٢) يشير إلى ما فعلوا بعد انصراف موسى عنهم من عادة العجل ، حين صنع لهم السامري من الحلي عجلا من الذهب وأغرامهم بعبادته فاتبعوه مرتدين إلى التكفر . والقصّة مذكورة في سورة طه في الآيات ٩٢ — ٩٨ .

(٣) فتَمَنَّوا الموت : أى ادعوا بالموت على أى الفريقين هو أكذب عند الله . ولن يفعلوا ذلك لأنهم يعلمون أنهم كاذبون .

(٤) كان اليهود يقولون للنبي إن جبريل لنا عدو ، فهو ملك إنما يأتي بالشدة وسفك الدماء . ولولا ذلك لاتبعناك .

عنداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . ولما جاءَهُمْ رَسولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وراءَ ظُهُورِهِمْ كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَاتَّبَعُوا مَا تَتَّبِعُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ (١) ، وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ، يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ بِآيَاتِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ (٢) . وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ . فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ . وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ . وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ . وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ — البقرة ٧٥ الى ١٠٢) .

وعما هجى به يهود بنى قَيْسَ بُقَاع . وعبدَ الله بنُ أَبِي ، فى ولائه خُصَم ، ووقوفه دونهم ، حين حاصرهم الرسول ، لأنهم خلفاؤه فى الجاهلية :

(يا أيها الذين آمنوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ ، فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ، يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ، (٣) فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ، فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء

(١) كان أجبار اليهود يقولون حين ذكر النبي سليمان في الميسلين : ألا نجون من محمد ؟ يزعم أن سليمان بن داود كان نبيا ، والله ما كان إلا ساحرا .

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن هاروت وماروت ملكان أعصيا الله تعالى ، فعذبهما بأن علقهما من شعورهما في بئر يابل . فجعلنا يطلان الناس السحر .

(٣) دائرة أى حادثة تقلب بها الحال وتدور . فيصرون إلى النذل والهزيمة .

الذين أقسموا بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ؟ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ.
فأصبحوا خاسرين^(١).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ . ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ . وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ .

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ^(٢) مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرَ كِمَ فَاسِقُونَ؟ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ^(٣)؟ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ^(٤) أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ . وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا ، وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ ، وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ . وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ

(١) حبطت أعمالهم هلك . (٢) تنقمون تكرهون .

(٣) بشر من ذلك مثوبة أى نواباً . والمثوبة فى أصل استعمالها للاحسان ، ولكنها مستعملة هنا فى معنى العقوبة . وذلك مثل استعمال التبغير فى موضع آخر من القرآن حيث يقول (فبشرهم بعذاب أليم).

(٤) الطاغوت كل رأس فى الكفر .

يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمِ الشَّحْتَ^(١) ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ . لولا إنيهم الرِّبَانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ^(٢) عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمِ الشَّحْتَ ! لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وقالت اليهودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا^(٣) ! بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ . وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا . وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ . وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْمُفْسِدِينَ . وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكُفِّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَاحْتِلَافٌ بَيْنَهُمْ . وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرْآنِ آمَنُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَا كُفْرًا مِنْهُمْ وَلَا حَرْجًا مِنْهُمْ . يَنْتَهِمُ أُمَّةٌ مَقْتَصِدَةً ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ — المائدة ٥١ الى ٦٦ .

ب ع د

هذا أسلوب جديد في الهجاء ، يتميز عما سبق تميزاً واضحاً . فيه أولاً هذا النقاش الذي يحاول إقامة الحجة ، ويلزم الخصم الدليل ، ويظهره بمظهر السفه اللئيم ، أو المكابر المتعجرف ، أو المنافق المتلون . وهو يسلك في هذا النقاش سبيلين يختلفان في أسلوبهما ، وإن كانا ينتهيان إلى غاية واحدة . يناقش حجته تارة بالدليل العقلي وبالمنطق ، فيورد أقوالهم ثم ينقضها عليهم ، مبينا تفاهتها ، وضعف ما تسند إليه . فيروي مثلاً ما يزعم اليهود من أن الله لا يعذب الناس إلا أياماً معدودة ، بمقدار يوم عن كل ألف سنة ، ثم يسخر منهم ، ويستخف بزعمهم قائلاً : من أين لكم هذا ؟

(١) الشح الحرام والرشوة .

(٢) الرِّبَانِيُّونَ الرِّهَاد ، والأحبار هم علماء .

(٣) وقالت اليهود يد الله مغلولة أى شحيحة بجملة .

(أُنْخِذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا ؟ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟) .
ومن أمثلة هذا الأسلوب ما يصور من تناقضهم . فقد حرم عليهم دينهم أن
يقاتل بعضهم بعضا ، وفرض عليهم أن يتعاونوا في اقتداء أسراهم . ومن عجب
أنهم يتقاتلون ويتناذبون ، وقد حرمت عليهم التوراة ذلك ، ثم يفتدون
أسراهم ، إقامة لما أمرُوا به . ويعقب القرآن على ذلك متعجبا من أمرهم
فيقول (أَفَتَتُوبُونَ مُنْجَاةً لِّبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ؟ فَا جَزَاءُ
مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ؟ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى
أَشَدِّ الْعَذَابِ ؟) ومن أمثلته أيضا ما يروى عن زعمهم أن الدار الآخرة
لهم من دون سائر الناس . ثم يتحدثون أن يسألوا الله إنزال الموت على أى
الفريقين هو أكذب وأضل ، إن كانوا واثقين من أنهم سينقلبون إلى الجنة
بعد الموت . ويعقب على ذلك قائلا (وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) .

هذا أسلوب من النقاش يعتمد على المنطق والعقل . وهناك أسلوب
آخر يعتمد على التاريخ ، يروى منه ما يكسو خصومه العار ، ويصور أن
ضلاتهم وعنادهم ليس بالشئ الجديد . يقول لهم تارة : ألم يأخذ عليكم الله
ميثاقا أن لا تعبدوا غيره ، وبالأولاد إحسانا ، وذى القربى واليتامى
والمساكين ، وقولوا للناس حسنا ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ؟ ثم
توليتم إلا قليلا منكم ؟ وتارة يقول لهم : ليس تكذبكم محمدا ومعاندته بالشئ
الجديد . فقد أرسلنا لكم النبيين من قبل فقتلتموهم . ثم يعقب على ذلك
قائلا (أَفَسَكُنْتُمْ مَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ ؟ فَفَرِيقًا
كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ؟) بل هو يقص عليهم من تاريخهم ما يثبت خلافهم
لنبيهم نفسه ، حين انصرف عنهم إلى حين ، فلما عاد رأيهم عاكفين على عبادة
عجل من ذهب اتخذوه إلهًا . ثم يقول : فهل كان ذلك مما يأمركم به ما تزعمون
لأنفسكم من الإيمان ؟ (قل بشئ ما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين)

ويعود إلى التاريخ ، ليستخرج منه فضيحة أخرى لهؤلاء الفسقة المكابرين ، فيروى ما كان من انصرافهم عن كتابهم إلى السحر يتعلمونه ، وقد علموا أنه ضلالة لا يقصد به إلا الشر والإيذاء .

وهذا الأسلوب التاريخي شبيه بما رأينا من اعتماد الهجاء السياسي في ذلك العصر على التاريخ . ولكن القيم التي يعتمد عليها ، تختلف تماما عن القيم التي كان يعتمد عليها ذلك الهجاء . فهذا الهجاء يستخلص من التاريخ ما يصور به سفه هؤلاء القوم ومكابرتهم وضلالهم القديم . أما ذاك ، فهو يستخلص منه ما يصور به الضعف ونحول الآباء والأجداد .

وأحيانا يعتمد القرآن على تصوير الحال ، وإبرازه واضحا مجسما . وله في ذلك مسلكان . فهو تارة يعتمد على التمثيل ، فيقدمهم في صور ساخرة مضحكة ، وتارة أخرى يلقي الضوء على ما يتآمرون به في الظلام ، ويكشف الستر عما يدبرون في الخفاء ، فيربكهم بإظهار حقيقةهم التي يحرمون على كتابتها ، ويفضح دسائسهم التي يلقون عليها حجبا كثيفة من الرياء والنفاق .

فن التصوير الساخر قوله تعالى (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ . وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ، كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسْنَدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوّ ، فَاحْذَرْهُمْ . قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَتَى يَوْفَ كُؤُن !) إذا مر القارىء بصدر الآية تفاءل خيرا ، ولم ير بأسا . ولكنه لا يكاد يمتنى ، حتى تأخذه المفاجأة القاسية ، بعد هذا الثناء على الأجسام . فالقرآن لا يرضى أن ينزل بهم إلى مرتبة الحيوان . بل هو يسلبهم أدنى قدر من العقل ، فهم جماد لا يحس ولا يعقل . وهم لا يقومون على أرجلهم إلا كما تقوم هذه الخشُب ، قد سُفِّتْ صفا ، وأسندت إلى جدار . وهم مرييون ، يتوقعون في كل لحظة أن ينكشف عنهم الستر فيؤخذوا بذنوبهم . لا يصيح صائح إلا أخذ الرعب قلوبهم ، فكانهم هم المقصودون . ثم يوالى القرآن

لطمهم بهذه الجمل القصيرة المتداركة فيقول (هم العدو . فاحذرهم) وتهدأ الآية بعد هذه العاصفة ، وبعد هذه اللطحات المتتالية ، لتختم تلك الصور ، ولتجمل ما فصلت ، بما يشبه حديث المتحدث إلى نفسه (قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ !) .

ولعل حسان قد نظر إلى صدر الآية حين قال :

لا بأس بالقرم من طول ومن عرض جسم البغال وأحلام العصافير
ولعل ابن الرومي قد تأثر بها وبييت حسان حين قال :

طول وعرض بلا عقل ولا أدب فليس يَحْسُنُ إلا وهو مصلوب
ومن قول القرآن (يحسبون كل صيحة عليهم) أخذ جرير قوله :
حملت عليك حماة قيس خيلها شعنا عوايس تحمل الأبطالا
تركوك تحسب كل شيء بعدهم خيلا تكرر عليكم ورجالا
ومنه أخذ الشاعر قوله :

كَأَن بِلَادَ اللَّهِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ عَلَى الْخَائِفِ الْمَطْلُوبِ كَفَّةٌ حَابِلُ
يُسْرَتِي إِلَيْهِ أَنْ كُلَّ ثَنِيَّةٍ تَيَمَّمَهَا تَرْمِي إِلَيْهِ بِقَاتِلِ
ومن هذا التصوير الساخر تشبيه القرآن المنافقين من الأوس والخزرج ،
وقد أضاء لهم نور الحق في ظلمة الضلال فلم يهتدوا به ، بالذى يلتمس النار
ليهتدى بها ، فلا تكاد تضيء حتى ينطمس بصره ، فلا يدركها ولا يستطيع
الاستفادة منها . (مَثَلُهُمْ كَثَلُ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ
ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ، وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ . ضُفُّهُمْ بِكُنُفِهِمْ عُمَى ،
فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ .) ولا يكاد القرآن ينتهى من هذه الصورة ، حتى يقدم
صورة جديدة لما هم فيه من الحيرة والضلال ، وشدة الخوف من أن يتكشف
أمرهم فيأخذهم المسلمون . فهم كالذى يخط في جو عاصف ، اشتد فيه المطر ،
وأظلمت جوانب الأرض ، وتجاوبت الرعود عاصفة ، فهو يسد آذانه
بأطراف أصابعه ، متوقعا أن تأخذه الصواعق بين لحظة وأخرى . بل هو

هو يود لو جعل كل أصابعه في آذانه ، حتى لا يصل إليه دوى الرعد الخفيف ...
ويسطع البرق بين الحين والحين ، فينخلع له قلبه ، ويهر عينيه ضَوْؤُهُ
الخلاَّب . ولكنه في حيرته وذهوله ، يخطو متاقلاً في هذه اللحظات
القصيرة من الضوء ، كالذى يبغى الخلاص مما هو فيه من البلاء ، ولكنه
لا يدرى إلى أين . ولا يكاد هذا الضالُّ المذعور يخطو خطوة أو خطوتين ،
حتى يعود الجؤ إلى ظلامه الرهيب ، فيظل في حيرته قائماً . (أو كسبب
من السماء ، فيه ظلمات ورعد وبرق . يجعلون أصابعهم في آذانهم من
الصواعق حذرَ الموت . والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم
كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا . ولو شاء الله لذهب بسمعهم
وأبصارهم . إن الله على كل شيء قدير .)

أما كشف الستر عن دسائسهم . وما يدبرون في الظلام ، فسيل القرآن
فيه أن يهتك أسرارهم وما يخفون في أنفسهم ، فيذيع أقوالهم التي يرددونها
في مجالسهم الخاصة من وراء ظهور المسلمين ، ليبين لهم أنه عالم بكيدهم
وما يضمرون . ثم يعقب على أقوالهم بإجابه قصيرة ، تبين جهلهم وانطاس
بصائرهم . ومن أمثلته ما يقول القرآن في عبد الله بن أبيّ ، وفي أصحابه من
المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر (هم الذين يقولون
لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا .) ثم يعقب على ذلك بقوله
(والله خزائن السماوات والأرض . ولكن المنافقين لا يفقهون .) ومنه
قوله فيهم (يقولون لنرجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلّ .)
ويعقب على ذلك بقوله (والله العزة لرسوله وللهُ منين . ولكنّ المنافقين
لا يعلمون .) ومنه قوله فيهم (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا . وإذا
خلّوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ، إنما نحن مستهزؤون .) ثم يعقب على
ذلك بقوله (الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون .) ومنه

قوله تعالى في تصوير حال المنافقين ، حين اشتد عليهم حصار العدو في وقعة الخندق (وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مُقَامَ لكم فارجعوا . ويستأذن فريق منهم النبي ، يقولون إن يئوتنا عَوْزَةٌ . وما هي بَعْوَةٌ . إن يريدون إلا فرارا .) ويعقب على ذلك بعد أن يمضى في وصفهم بقوله (قل لن ينفعكم الفرار من الموت إن فررتم من الموت . وإذن لا تُمَتَّعون إلا قليلا .) ومنه قوله في المنافقين من اليهود (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض . قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟) ثم يعقب على قولهم هذا ساخرا من تفكيرهم السقيم . فهم لا يريدون أن يناقشوا المسلمين ، حتى لا يتعلموا منهم ما خَصَّهم الله به من علم ، فيقيموا به الحجة عليهم عند الله يوم القيامة ! يقول معقبا على هذا التفكير السقيم (أفلا تعقلون ؟ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ؟) .

وظاهرة أخرى نصادفها في هذا الهجاء القرآني ، هي اعتماده على التهديد والوعيد ، يختم به ما يسوقه من نقاش ، أو يروى من تاريخ ، أو يقدم من صور . فهو إذا بين تناقض اليهود ، إذ يأخذون بعض ما في كتابهم ، ويتركون بعضه الآخر ، ختم ذلك بقوله (فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خِزْيٌ في الحياة الدنيا ؟ ويوم القيامة يُرَدُّونَ إلى أشد العذاب ؟ وما الله بغافل عما تعملون .) وإذا روى انصرافهم عن كتابهم إلى السحر ، ختم ذلك بقوله (ولقد علموا كَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ . وَلَسِبْتُمْ مَآشَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .) وإذا شَبَّهَهُمْ في خِيَرَتِهِم بالذي يسير في جو عاصف ، ورعد قاصف ، ختم ذلك بقوله (وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ .) ثم قوله (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ . إِنَّ

الله على كل شيء قدير .) وإذا شبههم بالحشب المسندة ،
ختم ذلك بقوله (هم العدو ، فاحذرهم . قاتلهم الله أنى
يؤفكون) .

هذه جملة من خصائص الأسلوب الهجائى فى القرآن . وهى تلتقى من
من بعض النواحي مع أسلوب الهجاء السياسى فى الشعر ، مثل اعتمادها على
التاريخ ، وعلى التصوير والتهديد . ولكنها تحالف كل ما عرف العرب ،
فى نظمها ، وفى ما تستند إليه من قيم أخلاقية واجتماعية جديدة .

حسان

شهرة حسان في الأدب العربي تستند إلى أنه شاعر النبي . وأكثر ما يعرف الناس عنه دفاعه عن الدعوة الإسلامية ، وشعره الكثير في هجاء من ناهضها . والواقع أن حسان لم يدخل في الإسلام إلا وقد أسن وفارقه شبابه . فقد عاش فيما يحدثنا الرواة ستين سنة في الجاهلية ، ومثلها في الإسلام . وهذا خبر قد لا يخالو من المبالغة والتزيد ، ولكنه لا يبعد كثيرا عن الحقيقة . فهو إذن لم يبدأ حياته الإسلامية ، إلا وقد مضى الشطر الخصب المحبب إلى النفس من عمره .

وُلد حسان بمدينة يثرب ، في بيت من أعرق بيوت بني النجار — وهم من أظهر بطون الخزرج — قبل مبعث النبي بنحو من أربعين عاما . ونشأ والنزاع بين الأوس والخزرج قديم . يرجع إلى عهد جده المنذر بن حرام ، الذي حاول أن يصلح بين الحيين . وكان لبني النجار خاصة في هذا النزاع شأن ظاهر . وقد اشتهر أمر حسان في هذه الأيام بشعره القوي ، الذي سجل فيه مفاخر قومه ، مشيدا بنصرهم ، فكان على رأس شعراء الخزرج ، بينما كان قيس بن الخطيم في طليعة شعراء الأوس . ولكن هذا كان يشارك بسيفه ولسانه ، أما حسان فقد قنع بالشعر ، ولم نعرف أنه أخذ بنصيب من القتال في هذا النضال . ولعل حسان كان يعرف من نفسه أنه على الهجاء والشعر ، أقدر منه على القتال ، حين قال :

لساني وسيفي صارمان كلاهما وَيَبْلُغُ مَا لَا يَبْلُغُ السِّيفُ مِنْ دَوْدَى^(١)
وحين يقول في موضع من شعره :

(١) مدوده لسانه انتهى بحدود به ، أى يدوم به عن نفسه وعن قومه .

لِكُلِّ أَنْاسٍ مِيسَمٌ يَعْرِفُونَهُ وَمِيسَمُنَا فِينَا الْقَوَافِي الْأَوَابِدُ (١)
 مَتَى مَا نَسِمَ لَا يَنْكُرُ النَّاسُ وَسَمْنَا وَنَعْرِفُ بِهِ الْمَجْهُولَ مِنْ نُكَائِدُ
 تَكْلُوحُ بِهِ تَعَثُّوْا إِلَيْهِ وَسُومْنَا كَالْحَاحِ فِي سَمْرِ السِّمْتَانِ الْمَوَارِدُ (٢)
 فَيَشْفِينِ مَنْ لَا يَسْتَطَاعُ شِفَاؤُهُ وَيَسْقَيْنِ مَا تَبَقَّى الْجِبَالِ الْخَوَالِدُ (٣)
 وَيُشْقِينِ مَنْ يَغْتَالِثُا بَعْدَاوَةً وَيُسَعِدُنِ فِي الدُّنْيَا بَنَاهُ مِنْ نُسَايِدُ
 إِذَا مَا كَسَرْنَا رُشْحَ رَايَةِ شَاعِرٍ يَجِيشُ بِنَاهُ مَا عِنْدَنَا فَنُتْعَاوِدُ (٤)
 ومنذ أحس حسان بمواهبه ، وعرف من نفسه مكانه في الشعر ، رحل
 إلى الغساسنة ، متكبيا عندهم بالمدح ، متقربا إليهم بنسبه في اليمن . وفي ربوع
 الشام ، وبين جنانها وقطوفها ، وعلى ضفاف بَرْدَى ، وفي أحضان الجبال
 الخضراء الملوك بالثلوج ، قضى حسان أجمل فترات حياته ، مطمئنا إلى هذه
 الحياة المترفة الناعمة ، مفتونا بالناظر الطبيعية الساحرة ، التي لا عهد له بها
 في الجزيرة القاحلة ، وقد أطلقت الخمر لسانه ، ورقق اجمال حسه ، فسخت
 نفسه بأحسن ما قال من شعر ، ووصله الغساسنة بأجزل ما نالت يده
 من صلات .

وامتدت هذه الفترة الجميلة من حياته . فلم تنته إلا بدخوله في الإسلام ،
 وقد جاوز الشباب ، فبلغ الستين فيما يحدثنا الرواة ، أو قارب الخمسين على
 أقل تقدير كما يحدثنا هو نفسه بذلك في بعض شعره الغساني ، من قصيدة له
 يبدأها بقوله :

-
- (١) الميسم في الأصل المكواة ادى تومس ه اللواب . وقد يسمى أثر الرسم ميسما أيضا .
 وهو يقصد هنا الشعر وأثره الباقي في المجهو ، كأنه أثر الكي لا يذول .
 (٢) تلوح به تبدو وتظهر . تمثو إليه تقصد وتقبه أيها وجد . عشا النار وعشا إليها رآها ليلا
 من بعيد تقصد إليها . سمر للثان الرماح . الموارد جمع مودة أى الموارد الملوك .
 (٣) يقول إن هذه القوافي الأوابد نفخى من الجهل من لا يستطيع شفاؤه ، أى تردعه عن
 اتقاده في عداوتنا .
 (٤) الجلبان صوت الغليان والاضطراب الذى يصحبه .

تَطَاوَلَ بِالْحَمَّانِ ^(١) لَيْلِي فَلَمْ تَسْكَدْ تَهَمُّ هَوَادِي نَجْمِهِ أَنْ تَصُوبَا
أَيَّتُ أُرَاعِيهَا كَأَنِّي مُوَكََّلٌ بِهَا لَا أُرِيدُ النُّومَ حَتَّى تَغَيَّبَا
إِلَى أَنْ يَقُولَ :

وَكِدْتُ عُجْدَةَ الْبَيْنِ يَغْلِبُنِي الْهَوَىٰ عَاجِلُ نَفْسِي أَنْ أَقُومَ فَأَرْكَبَا
وَكَيْفَ وَلَا يَنْسَى التَّصَابِي بَعْدَمَا تَجَاوَزَ رَأْسَ الْأَرْبَعِينَ وَجَرَبَا
وَقَدْ بَانَ مَا يَأْتِي مِنَ الْأَمْرِ وَاکْتَسَتْ مَقَارِقُهُ لَوْنًا مِنَ الشَّيْبِ مُغْرَبَا
وَلَكِن هَذِهِ السِّنِينَ الطُّوَالَ مَرَّتْ سِرَاعًا كَالْحَلَمِ ، وَكَأَنَّ هَذَا الْعَهْدَ وَقَدْ
تَقَطَّعَ وَتَصَرَّمَ لَمْ يَكُنْ .

فَلَسِثْتُ أَزْمَانًا طَوَالًا فِيهِمْ ثُمَّ أَذْكَرْتُ كَأَنِّي لَمْ أَفْعَلْ ^(٢)
كَانَ شَعْرُ حَسَانٍ فِي هَذَا الْقِسْمِ الطَّوِيلِ مِنْ حَيَاتِهِ صُورَةٌ حَيَّةٌ لِلْجَمَالِ
الَّذِي اسْتَخَفَّ نَفْسَهُ ، وَالنَّعْمَةُ الَّتِي غَرِقَ فِيهَا حَسَهُ وَمَشَاعِرَهُ ، فَجَاءَ مَغَايِرَا
لِكُلِّ مَا نَعْرِفُ مِنَ الشَّعْرِ الْجَاهِلِي . جَاءَ قِطْعَةٌ مِنْ هَذِهِ الْجَنَانِ الظِّلِيلَةِ الْحَامِلَةِ ،
بَعِيدًا أَكَلَ الْبَعْدَ عَنْ رَمَالِ الصَّحَرَاءِ الْمُضِلَّةِ ، وَجَبَّاهُ الْغُبْرَاءُ الْعَابِسَةُ .

هَذِهِ هِيَ الْعَيْسُ تَحْمِلُ صَاحِبَتَهُ النَّاعِمَةَ شَعْثَاءَ ، وَقَدْ اكْتَسَتْ الرِّيْطَ ،
وَبَدَأَ وَجْهَهَا الْأَبْيَضُ الْجَمِيلُ كَالسَّبَرْدِ النَّاصِعِ ، يَتَرَاءَى مِنْ خَلْفِهَا جَبَلٌ قَدْ
كَسَاهُ النَّلَجُ ، وَانْتَشَرَتْ مِنْ فَوْقِهِ قِطْعُ السَّحَابِ .

انْظُرْ خَلِيلِي بَيْسَطِينَ جِلْسَقَ هَلْ تُؤْنِسُ دُونَ الْبَسَاقَاءِ مِنْ أَحَدٍ ^(٣)

(١) الحمان قرية قريبة من دمشق . هوادى النجوم أوائلها . تصوبها غروبها .

(٢) ما هنا زائدة . والمعنى إن ترى رأسي تغير لونه . الشمط يبايض شعر الرأس يخالطه السواد
الانعام يعنق الثاء بت يثبت في الجبال يكون أخضر ثم يبيض إذا ببس . وله سمة غليظة ولا
يثبت إلا في قبة سوداء ولذلك شبه به القبيب .

(٣) موعده أعداؤه . قصر دومة هو حصن دومة الجندل ما بين الحجاز والشام كان لا كبير
السكوني الذي قتله خالد بن الوليد . سواء الهيكل وسطه . والهيكل بيت النصراني يعظمونه .

(٤) أدكرت تذكرت ما كنت فيه فوجدت كأنه شيء لم يكن ولم يبق إلا الأحاديث والذكر .

(٥) جلق اسم لكورة القوطة أوهى دمشق نفسها أوفرية من قراها . اللقاء كورة من أعمال دمشق .

جَمالُ شَعثاءٍ وَقَدْ هَبَطْنَ مِنَ المَحْجِ بِسِ بينِ السَّكْبِينِ فَالسَّندُ (١)
يَحْمِلْنَ حُورًا مَدَامِيعَ فِي الرِّيطِ وَيَبْضُ الوجوهُ كَالسَّبَرْدِ (٢)
مِنْ دُونَ بُصْرَى وَخَلْفَهَا جَبَلُ الشَّدِّ رَجَّحَ عَلَيْهِ السَّحَابُ كَالْقَدِّ (٣)
ثُمَّ يَمْضَى فَيَقْسِمُ لَهَا رَبُّ الإِبِلِ ، وَمَا قَطَعَتْ مِنْ مَفَاوِزَ بَعِيدَةٍ الأَرْجَاءِ ،
وَعَرَةِ الْمَسَالِكِ ، وَمَا قُرِبَتْ لِمَنْحَرِهَا الشُّبْدُنِ (٤) ، أَنَّهُ لَمْ يَتَغَيَّرْ عَنْ
عَهْدِهِ ، وَلَمْ يَحْبِبْ كَحَبْلِ أَحَدٍ . وَيَحْلُو لَهُ أَنْ يَتَذَكَّرَ حَدِيثَ صَاحِبَتِهِ ، حِينَ
كَانَتْ تَنْهَاهُ عَنِ الإِكْثَارِ مِنَ الْخَرِّ وَالْغُلُوِّ فِيهَا .
تَقُولُ شَعثاءُ لَوْ تُفِيقُ مِنَ السَّكَا سَ لَا لَفِيتُ مُثْبِرَى الْعَدَدِ
ثُمَّ لَا يَجِدُ مَا يَعْتَذِرُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ ، إِلَّا أَنْ يَقُولَ فِي بَسَاطَةٍ مُؤَثَّرَةٍ ، مَلُوْهَا
الْحَزِينُ الْمُسْتَسْلِمُ لِلذَّةِ .

أَهْوَى حَدِيثَ النَّدْمَانِ فِي فَلَاقِ الصَّبْحِ وَصَوْتَ الْمَسَامِرِ الْغَرِيدِ



وهذه هي دور الغساسنة ، قد تعلقت بأعلى الجبال ، تحوطها الثالوج التي
تنساقط من حولها . حتى تتجمع فتندافع إلى الوديان ، تُذَرَى بِالْأَشْجَارِ ،
وقد نبتت السكروم في الأفنية والساحات ، فوق هذه المنحدرات . أين هذه
الجبال التي جعلها الله ، من صحراء العرب الموحشة ، تضرب فيها الشاء ،
يتبع رعاؤها مواقع السيل !
أَجِدْكَ لَمْ تَهْتَبْجْ لِرَسْمِ الْمَنَازِلِ وَدَارِ مَلُوكِ فَوْقَ ذَاتِ السَّلَاسِلِ (٥)

(١) شَعثاءُ صاحِبته والحِجْسُ والسند موضعان .

(٢) الحوة سمرة الشفة وكأولها يحجون في الشفة أن يضرب لونها إلى السواد . الحور اشتداد بياض

العين . سوادها . الریط جمع ربطة وهي الثوب الأبيض اللين الرقيق .

(٣) بهرى قرية معروفة بالشام ناقية اللان . القدد جمع قدة وهي القطعة من الشيء .

(٤) البدن جمع بدنة وهي من الإبل والغر كالأسحبة من الغنم تهدي إلى مكة .

(٥) أجْدُكَ يعني أجد هذا منك ؟ ذات السلاسل موضع .

تجود الشرى فوقها وتضَمَّنَتْ لها برداً ايذرى أصول الأسافل^(١)
 إذا عذرات الحى كان نتاجها كروماً تدلى فوق أعرف مائل^(٢)
 دياره زكاهها الله لم يعسلح بها رعاء الشورى من وراء السوائل^(٣)
 وهو يشبه ريق صاحبة شعناء بخمر الشام أو تفاحة آونة حين يقول :

لشعناء التى قد تيممته فليس لقلبه منها شفاه
 كأن سبيشة من يئس رأس يكون مزاجها عسل وماء^(٤)
 على أنياها أو طعم غصن من التناح هصره الجناء^(٥)

ويشبهه آونة أخرى بخمر الشام ، قد عتقت فى الخيام ، ثم
 شجت بغدير بارد يجرى فى ظل الجبل ، مسترقاً بين الحجارة المتراسة ،
 وقد أطله الغمام .

جنية أرقنى طيفها تذهب صباحاً وتثرى فى المنام
 هل هى إلا ظلية مطفل^(٦) مألها السدر بنعفى برام^(٧)
 تزجى غزالاً فاتراً طرفه مقارب الخطو ضعيف البغام^(٨)
 كأن فاهاً ثغب بارد فى رصف تحت ظلال الغمام^(٩)
 شجت بصهباء لها سورة من بيت رأس عتقت فى الخيام^(١٠)

(١) يقول إن المطر الذى يسقط من نوء الثريا — وهو نجم — قد تضمن برداً يعصف بالشجر.
 الأسافل أسافل الأودية

(٢) عذرات الحى أفنيها وساحتها . أعرف مائل جبل مرتفع قائم منتصب
 (٣) زهاها الله جعلها وزينها . اعتلج القوم اصطرعوا وتقاتلوا . الشوى جمع شاة . السوائل جمع سيل
 (٤) الدبنة الخمر سميت بذلك لأنها تستى أى تشرى . بيت رأس موضع بالأردن مشهور بالخمر
 (٥) هصره الجناء أماله . يصف التفاح بأنه قد نضج . الجناء الجنى وهو كل ثمر يجنى لنضجه
 (٦) ظلية مطفل أى مطفل . ولذلك فهى وادعة هادئة يتمثل فيها الخنان . برام واد . نفاها جانباه
 (٧) يسترقى وصف هذه الظلية المطفل التى يشبه بها صاحبه . تزجى تسوق . البغام صوت الظلية
 (٨) الثغب بفتحات المديرفى ظل جبل لانهيبه الشمس فيرد ماؤه . الرصف الحجارة المتراسة المتدانية
 (٩) شجت مرجت . الصهباء الخمر . السورة الحدة .

عَتَّقَهَا الْحَانُوتُ دَهْرًا فَقَدْ مَرَّ عَلَيْهَا فَرَطٌ عَامُ فَسَعَامُ^(١)

ونمضى مع الشاعر بعد ذلك ، وقد نسي صاحبه ، وهام في أحلام النمل
النشوان . فهو يشرب الخمر صرفاً تارة ، وممزوجة أخرى ، ثم ينطلق وقد
استخفته ، مغنياً في قصور شيدت من رخام ، تدب في جسمه ديب النمل
في كتيب من رمال . خمرٌ تحطُّ من الشيخ شيخوخته ، وما أوقره من
أنقال كهولته ، فيرتد غلاماً عابثاً لاهياً . وكيف لا ترد الشيخ غلاماً ، وهي
من خمر بيسان ، وقد تخيرها حسان ، فهي كالترياق للأحزان ، تسرع فتز
العظام ! وهذا هو الساقى ، يسعى إليه بها في لباسه الأحمر ، وقلنسوته
الطويلة ، وقد شد وسطه بحزام ، وتضمخ بالطيب خلف أذنيه ، وقد وقف
وكل انتباهه للشرب ، يخف للدعوة عند أدنى حركة ، ملياً في خفة ونشاط .

نَشْرَبُهَا صِرْفًا وَمَمْزُوجَةً ثُمَّ نُنْغِي فِي بُيُوتِ الرِّحَامِ
تَدِبُ فِي الْجِسْمِ دَيْبِيًّا كَمَا دَبَّ دَبًّا وَسَطَ رَقَاقِ هَيَامِ^(٢)
كَأَسًا إِذَا مَا الشَّيْخُ وَالْيَ بَهَا حَمْسًا تَرْدَى فِي رِذَاءِ الْغَلَامِ
مِنْ خَمْرِ بَيْسَانَ تَخَيَّرْتُهَا تَرْيَاقَةً تُسْرِعُ فَتُتَرِّ الْعِظَامِ
يَسْعَى بِهَا أَحْمَرٌ ذُو بُرْنَسٍ مَخْتَلِقُ الذَّفَرَى شَدِيدُ الْحِزَامِ^(٣)
أَرُوغُ لِلدَّعْوَةِ مُسْتَعَجِلٌ لَمْ يَذْنِ الشَّأْنُ خَفِيفُ الْقِيَامِ

ويصف الخمر في مجلس صالح بن علاط ، أحد أشراف بني سليم ، وقد
أحاط به شرب كرام بيض الوجوه ، تفرقت بينهم القيان النواعم ، في

(١) الحانوت الخمار الذي يبيع الخمر ، أو بيته .

(٢) الدبا أصغر النمل . رقاق هيام يقصد رملا مسويا لنا . يشبه ديب الخمر في الجسم بديب
النمل في الرمال . ومنه أخذ الأخطل قوله

تدب ديباً في العظام كأنه ديب نمل في نقي يهبل

(٣) الذفرى العظم الشاخص خلف الأذن وهو أول ما يبرق من الإنسان . يقول إن هذا الموضع

مطلي بالخلوق وهو ضرب من تطيب

ثيابهن البيض الرقاق ، وقد خفق الشرطان^(١) في السماء آخر الليل ، ودارت
عليهم الخمر النبطية الخالصة ، حمراء تضرب للسواد . ودعا صالح بن علاط
بقيانه ، فانطلقن في العزف ، بين سكون وتشن ، كأنهن الظباء وقد أوين
للكناس ، أو ثنين الجيد متطاولات ، يتناولن من أوراق الأشجار . ثم طفن
بين الشرب بالكثوس ، فوق بسط رقيقة الخمل ، مهدت للجالسين . حتى
إذا استخفهم الشراب ، أمر صالح بجواريه ، ففترقن بين الندماء بددا ،
يستمتعون منهن بما يشاءون .

رَبِّ لَسَوْ شَهِدْتُه أَمَّ عَمْرٍو	بَيْنَ بَيْضِ نَوَاعِمٍ فِي الرِّيَاطِ
مَعَ نَدَايِ بَيْضِ الْوُجُوهِ كِرَامِ	نُبَّهُوا بَعْدَ خَفَقَةِ الْأَشْرَاطِ
الْكَمِيسَتِ كَأَنَّهَا دَمٌ جَوْفِ	عُتِّقَتِ مِنْ سُلَافَةِ الْأَنْبَاطِ
فَاحْتَوَاهَا فَتَيُّ يَهْنُ لَهَا الْمَا	لَ وَتَاذَمْتُ صَالِحُ بْنُ عَلَاطِ
ظَلَّ حَوْلِي قِيَانُهُ عَازِفَاتِ	مِثْلُ أَدَمِ كِرَانِسٍ وَعَوَاطِ ^(٢)
طَفْنٍ بِالْكَأْسِ بَيْنَ شَرَبِ كِرَامِ	مَهَّدُوا خَرَّ صَالِحِ الْإِتْمَاطِ
سَاعَةً ثُمَّ قَالَ هُنَّ بِدَادَ	بَيْنَكُمْ غَيْرَ سَمْعَةٍ الْإِخْتِلَاطِ

ومن أجل ما وصف به الشارب ، وقد أثقلته الخمر ، حتى فتر ، وخففت
صوته ، وجف حلقه ، فتوقف عن الشراب ، ومضى هو يلج عليه مقسما
أن يستزيد منه .

وَمُسْتَرِقِ النَّسْخَامَةِ مُسْتَكِينِ	لَوْ قَعِ الْكَأْسِ مُخْتَلِسِ الْبَيَانِ
حَلَفْتُ لَهُ بِمَا حَجَّتْ قَرِيشَ	وَكُلِّ مَشْغَشَعٍ مِ الْخَمْرِ أَنْ

(١) الشرطان نجون

(٢) آدم كرانس وعواط أي ظباء مستكنة في الكناس وهو البيت الذي تتغذى في أصول الأشجار .
عواط من العطو وهو التناول وذلك حين ترفع يدها لتناول من "شجر" فيها . يشبهن في رقصهن وثنيين
بالظباء في مائتين الحاليتين .

لَتَصْطَبِحَنَّ وَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهَا وَلَوْ أُنِّي بِحَيْنَبَتِهِ سَقَانِي (١)
 فَطَافَتْ طَوَافَتَيْنِ فَقَالَ زِدْنِي وَذَبْتَ فِي الْأَخَادِعِ وَالْبَنَانِ (٢)
 فَلَسَمَ أَعْرِفَ أَخِي حَتَّى اصْطَبَحْنَا ثَلَاثًا فَأَنْبَرَى خَدِمَ الْعَنَانِ (٣)
 فَلَانَ الصَّوْتُ فَأَنْبَسَطْتُ يَدَاهُ وَكَانَ كَأَنَّهُ فِي الْغُلِّ عَانِ
 وَرَاحَ ثِيَابُهُ الْأُولَى سِوَاهَا بَلَا يَنْبَعُ أَمِيمٌ وَلَا مُهَانِ

كانت هذه الفترة هي اللب الخالص من حياة حسان الفنية ، أنشأ فيها أجمل شعره في الغزل والخمر والمدح والفخر . وكان مخلصاً في مدحه لآل غسان ، لأنه كان متعصباً لمينته ، فهو يراهم أهلـه وعشيرته ، ومادة فخـره ، وموضع اعتزازه واعتداده ، ولأنه قد أحب الشام ، وتعلق بكل ما فيها . انظر إليه كيف يذكـرهم مفتخراً في قصيدته .

أَجْمَعَتْ عَمْرَةَ صِرْماً فَأَبْتَكِرُ إِنَّمَا يُدْهِنُ لِلْقَلْبِ الْحَصْرُ
 حِينَ يَفْتَخِرُ بِنَفْسِهِ وَبِقَوْمِهِ ، فيقول — مشيراً إلى ما كان لهم من مجد قديم . أزاله الدهر الذي لا يئـمن —

مَنْ يَغُرُّ الدَّهْرُ أَوْ يَأْمَنُهُ مِنْ قَبِيلٍ بَعْدَ عَمْرٍو وَحُجْرٍ
 مَلَكَا مِنْ جَبَلِ الثَّلَجِ إِلَى جَانِبِ أَيْلَةَ مِنْ عَبْدِ وَحُرٍ
 ثُمَّ كَانَا خَيْرَ مَنْ نَالَ النَّدَى سَبَقَا النَّاسَ بِإِقْسَاطِ وَبِرٍ
 ويمضـى في الإشادة بهم . فيذكر غزوهم للفرس ، وصبرهم على قتالهم . ويختـم ذلك بأن يخلط نفسه وقومه بهم ، فيقول إنهم يصبرون في القتال ، لأن من شيمة قومي الصبر .

(١) الاصطباح شرب الخمر صباحاً . الحية الخال . يقول لو كنت مكانه وفي حاله لسقاني كما أسقيه أنا الآن .

(٢) ذبت أسرع . الأخدعان عرقان في جانبي العنق قد خفيا وطمنا . والأخادع الجمع .

(٣) خدع منقطع ، يريد أنه أكثر الكلام والهدر لما سكر وخلق عذاره

ولقد يعلم من حاربنا أننا ننفع قداماً ونضر^(١)
صبر^(٢) للبوت إن حل بنا صادقوالبأس غطاريف^(٣) فخر^(٤)
وأقام العز^(٥) فينا والسغي^(٦) فلنا منه على الناس الكبر^(٧)
منهم أصلي فمن يفخر به يعرف الناس بفخر المفتخر^(٨)
فحسان إذن حين يمدح آل غسان ، لا ينسى نفسه وعشيرته ، فهو يراهم
أهلاً وأبناء عم ، تجمع بينهم اليمينية . وقد كانت هذه القرابة مادة خصبة
لفخره واعتداده بنفسه وقومه ، وداعية إلى رضاه عن نسبه واعتزازه به .
فأكثر من الفخر والمباهاة ، أقوى ما يكون الفخر ، وجمع في آن واحد بين
شخصيتين ، شخصية شاعر البلاط عند الغساسنة ، وشاعر الوطن السياسى
بين قومه . ومن أحسن ما قال فى الغزل والفخر فى هذا الطور قصيدته :

لمن منزل عاف كأن رؤسومه خيا عيل ريط سابرى^(١) مرسم^(٢)
خلأ المبادىء مابه غير زكد ثلاث كأمثال الحائم جثم^(٣)
وغير بقايا كالسحق المنم^(٤) غير شجيج مائل حالف البلى
تعل رباح الصيف بالى هشيمه على مائل كالحوض عاف مشلم^(٥)
كسنة سرايل البلى بعد عهده وجون سرى بالوا بل المتهم^(٦)
وقد كان ذا أهل كبير وغبطة إذا الحبلى حبلى الوصل لم يتصرم^(٧)
وإذا نحن جيران كثير بغبطة وإذا ما مضى من عيشنا لم يصرم^(٨)

(١) خيا عيل جمع خيعل وهو درع يحاط أحد شقيه بلبسه المرأة كالقميص . الریط الثياب اللينة .
السابرى من الثياب الرفاق نسبة إلى سابور

(٢) المبادى الظاهر . ركذ ثلاث يقصد بها الأنافى وهى الأحجار التى نصب عليها القدر يشبهها
ثلاث حائم يعض جامحة .

(٣) يريد بالفجيج الوند . مائل قائم متصب . السحق الثوب الخلق الذى انشق ولى . المنم المخطط

(٤) الهشيم البت اليابس المتكسر . يقول إن الريح تعاده مرة بعد مرة . مائل بارز قائم يقصد
التوى وهو الحوض الصغير الذى يتخذ حول الحياء لدفع المطر عنه وتصريفه .

(٥) الجون السحاب الأسود . الوابل أشد المطر . يقول إن هذه الرياح وتلك الأمطار أبته

وَكُلُّ حَشِيثٍ الْوَدَقِ مُنْبَعِقِ الْعُرَى متى تَزَجِه الرِّيحُ الْوَوَاقِعِ يَسْجُمُ ^(١)
 ضَعِيفِ الْعُرَى دَانٍ مِنَ الْأَرْضِ بَرَكه مُسِفٌ كَمَثَلِ الطُّودِ أَكْظَمُ أَسْجُمُ ^(٢)
 فَإِنْ تَكْ لَيْلَى قَدْ نَأَتْكَ دِيَارُهَا وَضَنْتُ بِحَاجَاتِ الْفَوَادِ الْمُتَيَّمِ
 وَهَمَّتْ بِضَرْمِ الْحَبْلِ بَعْدَ وَصَالِهِ وَأَصْغَتْ لِقَوْلِ الْكَاشِحِ الْمُتَزَعِمِ
 فَمَا حَبَلُهَا بِالرَّثِ عِنْدِي وَلَا الذِي يُغَيِّرُهُ نَأَى وَإِنْ لَمْ تَسْكَلْهُ
 لَعَمْرُ أَيْكِ الْخَيْرِ مَا ضَاعَ سُرْكُمْ لَدَى فَتَحْزِنِي بَعَادَا وَتَضْرِمِي
 وَمَا حَبْهَا لَوْ وَكَلْتَنِي بِوَصْلِهِ وَلَوْ صَرَّمُ الْخِلَآنِ بِالْمُتَصَرِّمِ
 وَلَا ضَقْتُ ذُرْعًا بِالْهَوَى إِذْ ضَمِنْتُهُ وَلَا كَظْ صَدْرِي بِالْحَدِيثِ الْمَكْتَمِ ^(٣)
 وَلَا كَانَ مِمَّا كَانَ مِمَّا تَقْوَالُهَا عَلَى وَنَشْوَا غَيْرِ ظَنٍّ مَرَجَمِ ^(٤)
 فَإِنْ كُنْتُ لِمَا تَخْبِرُنِي فَسَائِلِي ذَوِي الْعِلْمِ عَنَّا كَيْ نُنَبِّئَ فَعْمَلِي
 مَتَى تَسْأَلِي عَنَّا تُنَبِّئِي بَأَنَّا كِرَامٌ وَأَنَا أَهْلُ عِزٍّ مَقْدَمِ
 وَأَنَا عَرَايِنُ صُقُورٍ مَصَالِتِ نَهْزُ قَنَاطَةً مَتْنَهَا لَمْ يُوصَمِ
 لَعَمْرُكَ مَا الْمُعْتَرُّ يَأْتِي بِلَادَنَا لِنَمْنَعَهُ بِالضَّاعِ الْمُتَهَضِّمِ ^(٥)
 وَمَا السَّيِّدُ الْجَبَّارُ حِينَ يَرِيدُنَا بِكَيْدٍ عَلَى أَرْمَاحِنَا بِمُحَرِّمِ
 وَلَا ضَيْفُنَا عِنْدَ الْبَتْرِ بِمُدْفَعِ وَلَا جَارُنَا فِي النَّائِبَاتِ بِمُسْلَمِ
 نُسِيحُ حَمِي ذِي الْعِزِّ حِينَ نَسْكِيذِهِ وَنَحْمِي حِمَانًا بِالْوَشِيحِ الْمُقَوِّمِ
 وَنَحْنُ إِذَا لَمْ يُبْرَمِ النَّاسُ أَمْرَهُم تَكُونُ عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْحَقِّ مُبْرَمِ

(١) الودق المطر . الحثيث المريع . منبعق العرى كثير الصب . تزجه الريح نسوقه . يسجم

يسيل وينصب

(٢) ضعف عراه كناية عن تخلله بالماء ، بركة معظمه وسدره . أكظم مثلي . أسجم أسود

(٣) ولا كظ صدوي يقول إن صدري لأتهبطه الأسرار فيعجز عن كتمانها

(٤) التث نشر الحديث الذي يحق كتمانها . وطن مرجم غير يقين

(٥) المعتز المتقي الذي يفتاب سائلا . المنهضم المطلوم

ولوؤ زنت رَضَوَى بِخَلْمِ سَرَاتِنَا لِمَالِ بَرِضَوَى حِلْمُنَا وَيَلْمِلِمِ (١)
 ونحن إذا ما الحربُ حُلَّ صِرَارُهَا وَجَادَتْ عَلَى الْحَلَابِ بِالْمَوْتِ وَالْدمِ (٢)
 ولم يُرَجِ إِلَّا كُلُّ أَرْوَعٍ مَا جَدِ شَدِيدِ الْقُتُوبِ ذِي عِزَّةٍ وَتَكْرَمِ
 نَكُونُ زِمَامَ الْقَائِدِينَ إِلَى الْوَعَى إِذَا الْفَشِلُ الرَّعْدُ لَمْ يَتَقَدَّمِ
 فنحن كذاك الدهرَ مَا هَبَّتِ الصَّبَا نَعُودُ عَلَى جُهَا لِهِمْ بِالتَّحَلُّمِ
 فلو فهِمُوا أَوْ فُتُّوا رُشْدَ أَمْرِهِمْ لَعَدْنَا عَلَيْهِمْ بَعْدَ بُؤْسِي بِأَنْتَعَمِ
 وإنا إذا مَا الْإِنْفَقُ أَمْسَى كَأَنَّمَا عَلَى حَافَتَيْهِ مُمْسِي الْوَنُ عِنْدَمِ (٣)
 لَنُطْعِمُ فِي الْمَشْتَى وَنَطْعُنُ بِالْقَنَا إِذَا الْحَرْبُ عَادَتْ كَالْحَرِيقِ الْمُضْرَمِ
 وَتَلْفَى لَدَى أَيْتَانَا حِينَ تُجْتَدَى مَجَالِسَ فِيهَا كُلُّ كَهْلٍ مُعَمِّمِ

رَفِيعِ عِمَادِ الْبَيْتِ يَسْتُرُ عِرْضَهُ

مِنَ الذَّمِّ مَيِّمُونَ النَّقِيَّةِ خِضْرِمِ (٤)

ضُرُوبٍ بِأَعْجَازِ الْقِدَاحِ إِذَا شَتَا

سَرِيعٍ إِلَى دَاعِي الْبِيَاكِ مُصَمِّمِ

أَشْمَ طَوِيلِ السَّاعِدِينَ سَمِيدِ

مُعِيدِ قِرَاعِ الدَّارَعِينَ مُكَلِّمِ (٥)

(١) رَضَوَى وَيَلْمِلِمِ جِلَان

(٢) الصِّرَارُ خِيَطٌ يَشُدُّ فَوْقَ خَلْفِ النَّاقَةِ لِتَلَا يَرْضَعَهَا وَلَدَهَا . وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَصْرِفُ خَلْعَ الْحُلِيِّاتِ إِذَا أَرْسَلُوها لِلرَّعْيِ فَذَا عَادَتْ فِي الْعَشِيِّ حَلَّتْ تِلْكَ الْأَصْرَةَ وَحَلَّتْ : شَبَّ حَسَانَ الْحَرْبِ بِالنَّاقَةِ إِذَا حَلَّ صِرَارُهَا مَحَلَّتْ دَرَّتْ . وَلَكِنَّهَا لَا تَدْرُ بِنَا وَإِنَّمَا تَدْرُ مَوْتَنَا وَدَمَنَا

(٣) أَرَادَ بِأَحْمَارِ الْأَفْقِ الْجَدْبَ وَالْقَحْطَ . الْعِنْدَمِ شَجَرٌ أَحْمَرٌ يَصْبُغُ بِهِ . يَقُولُ لِيهِمْ يَجُودُونَ فِي وَقْتِ الْجَدْبِ وَالْقَحْطِ

(٤) مَيِّمُونَ الثَّقَبَةُ مَبَارَكُ النَّفْسِ مَظْفَرٌ فِيهَا يَحْأُولُ . خِضْرِمِ جَوَادٌ . رَفِيعُ عِمَادِ الْبَيْتِ سِيدٌ . وَبُيُوتُ السَّادَةِ مَرْتَفَعَةُ الْعِمَدِ . أَمَّا بُيُوتُ الْفُقَرَاءِ فَهِيَ مُنْخَفِضَةٌ قَصِيرَةٌ الْعِمَدُ لَاصِقَةٌ بِالْأَرْضِ

(٥) سَمِيعٌ كَرِيمٌ . مَكَا مَجْرَحٌ لِأَنَّهُ يَجْرَحُ الْحَرْبَ .

ونسدل الستار عن هذه الأيام ، وندع حسان في هذا الشباب المترقرق ،
الذى يفيض لذه وشعرا ، لنستقبله مرة أخرى ، وقد تقدمت به السن ،
ودخل فيما دخل فيه قومه من أمر هذا الدين الجديد . يأتي الإسلام فإذا
حسان شاعر كبير له شهرة ونفوذ ، وهو محتاج إلى لسان قوى ، وصوت
نافذ ، يدفع عنه هذه الهجمات التي تأتيه من كل مكان ، وقد تألبت عليه
الجزيرة ، وأغرت به محاربيها وشعراءها على السواء . فيتألفه النبي ، ويخصه
بعطفه ، ولا يجد حسان بدا من يكون شاعر قومه في الإسلام .
في الجاهلية ، فيمضى في هذا التيار الجديد ، مسجلا حروبهم في سبيل نصره
جارهم . الذى أخذوا على أنفسهم حمايته ، ولكنه يظل جاهليا في صميمه ،
بعيدا عن التأثير الصادق بالإسلام ، فهو إذا رثى النبي ، وجدت رجلا يبكي
ما ضاع من رزقه ورزق عياله .

وما فقد الماضون مثلَ محمد ولا مثله حتى القيامة يُفقد
أعفَّ وأوفى ذمةً بعد ذمةٍ وأقرب منه نائلا لا يُنكد
وأبذل منه للطريف وتالد إذا ضنَّ معطاء بما كان يُتلدُّ
ويقول في قصيدة أخرى .

نَبِّ الْمَسَاكِينُ أَنَّ الْخَيْرَ فَارَقَهُمْ

مع النبي تَوَلَّى عَنْهُمْ سَحَرَا

من ذا الذى عنده رَحْلِي وَرَاحِلَتِي

وَرَزَقُ أَهْلِي إِذَا لَمْ يُؤْنِسُوا الْمَطْرَا

ويقول بعد أن يقف بآثار الرسول في يثرب .

ظَلَمْتُ بِهَا أَبَاكَ الرَّسُولَ فَأَسْعَدْتُ

عِيُونَ وَمِثْلَهَا مِنَ الْجَفْنِ تُسْعِدُ

تَذَكَّرُ آلاءَ الرسول وما أرى
لها محضياً نفسى فنفسى تَبَلَّدُ
مُفَجَّعَةً قَدْ شَفَّهَا فَقَدْ أَحَدُ
فَظَلَّتْ لآلاءِ الرسول تُعَدُّ
ويقول فى قصيدة رابعة يرثيه :

مُصَدِّقاً لِلنَّبِيِّينَ الْأَتْلَى سَلَفُوا
وَأَبْذَلَ النَّاسَ لِلْعُرُوفِ لِلْجَادِى^(١)
يَا أَفْضَلَ النَّاسِ إِنِّ كُنْتُ فِي نَهَرٍ
أَصْبَحْتُ مِنْهُ كَمِثْلِ الْمُفْرَدِ الصَّادِى
ثم يريد أن يصور حزن نساء النبى ، فلا يجد غير صورة الراهبات
فى مسوحهن .

أَمْسَى نَسَاؤُكَ عَطَلْنَ الْبُيُوتَ فَمَا
يَضُرُّنَّ فَوْقَ قَفَاسِئِ بَأُوتَادِ
مِثْلَ الرُّوَاهِبِ يَلْبَسْنَ الْمُسُوحَ وَقَدْ
أَيْعَنَ بِالْبُؤْسِ بَعْدَ النِّعْمَةِ الْبَادِى

قارىء شعر حسان فى هذا الطور من حياته ، يلى فيه ظاهرتين بارزتين ،
عصبيته اليمية وفتور عاطفته وتكلفه فيما يمس النواحي الإسلامية .

أما عصبيته فلم يكن حسان ليدعها بحال ، ولم يستطع الإسلام أن ينسبه
إياها . فهو يبنى أولاً ، ثم هو مسلمٌ بعد ذلك . فهو يكثر من الفخر بقومه ،
جامعا بين مجد يمينى القديم ، ومجدهم الإسلامى الجديد . فهم ملوك الجاهلية ،
وحماة الإسلام ، لجأ إليهم النبى حين ضاقت به الدنيا ، فعز بجوارهم واشتد .
يقول حين وفد وفد وتميم على النبى :

(١) الجادى المحتدى الذى يطلب جدواه أى عظامه .

هل المَجْدُ إلا السُّودُ العود والندى
 وجاه الماوك واحتمال العظام (١)
 نصرنا وآوينا النبي محمدا
 على أنف راضٍ من معدٍّ وراغم
 بجحى حريد أصله وذماره
 بجاية الجولان وسط الأماجم (٢)
 نصرناه لما حلَّ وسط رحالنا
 بأسياقنا من كل باغ وظالم
 جعانا بنينا دونه وبناتنا
 وطبنا له نفساً بفيء المغانم (٣)
 ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا
 على دينه بالمرهفات الصوارم
 ويقول في موضع آخر :

أتانا رسول الله لما تجهمت
 له الأرض يرميه بها كل موفيق
 تطردّه أفناء قيس وخندف
 كتاب إن لا تغد للروع تطرقي
 فكنتا له من سائر الناس معقلا
 أنم منبعا ذا تماريح شهب

(١) السُّود العود تقدم أدنى يتكرر مع الزمان

(٢) حتى حريد معدن معقل من حماته تهيئة لإحاطتهم في حبلهم وترحالهم لا توارده بنفسه . حاية الجولان موضع بالشام يريد حسا . حسنة . يقول هؤلاء أهل الميمون وسط الأماجم يعني الروم

(٣) يقول عد طبنا له نفسا يعني وهو ميت حيا . حسون . عنائهم في دور الحرب . يقول أعطينا له ذلك عن طيب نفس لم نذكره له

كان حسان يكره المضرية ، ويبغض هذا النفر من المهاجرين ، لا يراهم إلا مستضعفين قد لجئوا إليهم محتمين . فهو بنفس عليهم ما يصيبون من خير . وما يستمتعون به من عطف النبي ووجه . وهذا هو رسول الله ، يقسم المغانم يوم الفتح في قريش وفي قبائل العرب من عدنان ، فيكثر اللغط بين الأنصار ، ويقول قائلهم : لقد والله لقي رسول الله قومه . فيرتفع صوت حسان ، معبرا عن سخطهم ، معددا آيادهم عند النبي ، وقديم صنيعهم في الإسلام .

عَلَامَ تُدْعَى سَالِمٌ وَهِيَ نَارِحَةٌ
قُدَّامَ قَوْمِ هُمْ آوَا وَهُمْ نَعَمَرُوا
سَمَّيْنَاهُ اللَّهُ أَنْصَارًا لِنَصْرِهِمْ
دِينَ الْهَدَى وَعَوَانُ الْحَرْبِ تَسْتَعْرِ
وَسَارَعُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْتَرَفُوا
لِلنَّائِبَاتِ وَمَا خَامُوا وَلَا ضَجِرُوا
وَالنَّاسُ إِلَيْكَ عَلَيْنَا فَيْكَ لَيْسَ لَنَا
إِلَّا السُّيُوفُ وَأَطْرَافُ الْقَنَا وَزَرٌ^(١)
وَلَا يَهْرُ جَنَابَ الْحَرْبِ مَجْلِسُنَا
وَنَحْنُ حِينَ تَاخَطَى نَارُهَا سُعُرٌ^(٢)
وَكَمْ رَدَدْنَا بَيْدَرِ دُونَ مَا طَلَبُوا
أَهْلَ النِّفَاقِ وَفِينَا أُنْزِلَ الظُّفَرُ
وَنَحْنُ جُنْدُكَ يَوْمَ التَّغَفِّ مِنْ أَحَدٍ
إِذْ حَزَبَتْ بَطْرًا أَشْيَاعَهَا مُضَرُّ

(١) الناس إليك علينا فيك عثمون على عداوتنا ببيك . وزر ملجأ . يوم لم يكن لنا ملجأ نلجأ إليه إلا سيوفنا ورماحنا

(٢) هر الشئ يهره هريز كرمه . الجناب الناحية . يقول إنما لانكره الحرب ولا نلها

فَمَا وَنَدِينَا وَمَا خُنْنَا وَمَا خَسِرْنَا

مِنَا عِتَارًا وَجَلَّ الْقَوْمُ قَدْ عَشَرُوا

ويجمع النبي هذا الحى من الأنصار ، وقد خشي الفتنة فيلاطفهم مترضيا ، ويعتذر إليهم بأنه إنما تألف من تألف بالشاة والبعير وعرض الدنيا ليسلوا ، وكنهم إلى إسلامهم وإلى ثواب الله . فينصرف القوم راضين ^(١)

ولقد بلغ من جفاء حسان أن يتهم عائشة زوج النبي بصفوان بن المعطل في حديث الإفك ، حتى يكثُر في ذلك اللفظ ، ويشك النبي في إخلاصها . ثم ينزل القرآن ببراءتها ، ويُحَدِّثُ حسان فيما جاء به من الإفك . ويوصف بأنه هو الذى تولى كِبْرَهُ (إنَّ الذين جاءوا بالإفكِ غُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ . لكل أمرىءٍ مِهم ما اكنسب من الإثم . والذى تَوَكَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ .) .

ويجلس حسان يوما إلى أُطْمِهِ فارغ ، ومن حوله أصحاب له قد مد لهم بساطا ، ويرى كثرة من يقبل على النبي من المهاجرين ، فيهرأ بهم قائلا :

أَمْسِ اجْلَا بَيْبٌ قَدْ عَزُّوا وَقَدْ كَثُرُوا

وَابْنُ الْفُرَيْعَةِ أَمْسَى بِيضَةَ الْبَلَدِ ^(٢)

جَاءَتْ مُزَيْنَةُ مِنْ عَمَقٍ تُشْحِرُ جَنَى

أَخْسَى مُزَيْنٌ وَفِي أَعْنَاقِكُمْ قَدَدَى ^(٣)

يَمْشُونَ بِالْقَوْلِ سِرًّا فِي مُهَادَنَةٍ

يَهْدُدُونِي كَأَنِّي لَسْتُ مِنْ أَحَدٍ

(١) السيرة ٤ : ١٤٢

(٢) اخلايب جمع حبيب وهو الازار كنى بذلك عن ملة قصد القرشيين . المربعه أم حسان .

بيضة البلد منعردا كانيضة المتروكة في الصحراء .

(٣) مربة هم بنو عمرو بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر نسوا لأهمهم . حسان الكلب طرده هو

خاسي . مبدع صاغر . تقدم جمع قد وهو أكبر من الخلد . شبههم بالاحلاب في أعناقهم القدر .

قَدْ تَسَكَّلَتْ أُمُّهُ مِنْ كُنْتِ وَاجِدَةً
 وَبَاتَ مُنْتَشِباً فِي بَرَثْنِ الْأَسَدِ
 مَا الْبَحْرُ حِينَ تَهْبُ الرِّيحُ شَامِيَةً
 فَيَغْطِلُ وَيَرْمِي الْعَبْرَ بِالزَّبَدِ (١)
 يَوْمًا بِأَغْلَبَ مِنِّي يَوْمَ تُبْصِرُنِي
 أَفْزَى مِنَ الْغَيْظِ فَرَى الْعَارِضِ الْبَرَدِ (٢)
 مَا لِلْمَقْتِيلِ الَّذِي أَسْمُو فَأَخْذُهُ
 مِنْ دِيَةِ فِيهِ يُعْطَاهَا وَلَا قَوْدِ (٣)

ويقتنم صفوان بن المعطل هذه الفرصة ليشفي منه نفسه ، فينطلق إليه بسيفه ، ويضربه قائلا :

تَسَلَّقْ ذُبَابَ السَّيْفِ مِنِّي فَإِنِّي
 غَلَامٌ إِذَا هُوَ جِيتَ لَسْتُ بِشَاعِرٍ
 ويتعصب قوم حسان له ، فيثبون على صفوان . ثم يرضى النبي حسان ،
 بأن يهب له سبرين أخت مارية القبطية (وهي أم ولده عبد الرحمن) ،
 ويُقْبَلُهَا بِدِقَّةٍ بَاعَهَا بَعْدَ ذَلِكَ لِمَعَاوِيَةَ .

كَانَ النَّبِيُّ يَعْرِفُ مِنْ حَسَانَ هَذَا التَّعَصُّبَ الْبَغِيضَ ، وَلَسَكُنْهُ كَانَ يَغْضَى
 عَنْهُ . لِأَنَّهُ لَا يَرِيدُ أَنْ يَثِيرَ قَوْمَهُ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَيُعِثُّ فِي الْمَدِينَةِ فِتْنَةً ، تَنْتَهِي
 بِتَفْرِيقِ كَلْبَةِ الْمُسْلِمِينَ وَضَعْفِ أَمْرِهِمْ . ثُمَّ هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى لِسَانِهِ وَإِلَى شَعْرِ
 صَاحِبِيهِ الْخَزْرَجِيِّينَ ، عَبْدَ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ وَكَعْبَ بْنَ مَالِكٍ . وَهُوَ يَعْرِفُ لِقَوْمِهِ
 بَعْدَ ذَلِكَ فَضْلَهُمْ فِي إِيْوَائِهِ وَنَصْرَتِهِ ، حِينَ نَاصَبَ قَوْمَهُ الْعَدَاءُ .

أَمَّا فِتْنَةُ عَاطِظَةَ حَسَانَ وَضَعْفَ شَعْرِهِ الْإِسْلَامِي ، فَشَيْءٌ مَعْرُوفٌ قَدْ لَحِظْهُ
 الْقَدَمَاءُ مِنْ قَبْلِ . كَانَ الْأَصْمَعِيُّ يَقُولُ (الشَّعْرُ نَكِدُهُ بِأَبَةِ الشَّرِّ . هَذَا حَسَانَ

(١) يفضل تركب بعضه بعضا لتلاطم الأمواج . العبر جانب البحر أو النهر .

(٢) العارض السحاب . البرد الذي فيه برد .

(٣) يقول ليس للمقتيل الذي أقتله دية أو قود . والقود القصاص وقتل القاتل بالقتيل .

ابن ثابت ، فَحُلَّ من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره (والواقع أن الحياة الإسلامية لم تحرك من حسان عاطفة ، ولم تس من قلبه وترأ . فهو رجل قد شب وشاب في الجاهلية ، ثم دخل في الإسلام وقد تم تكوينه الخلقي والفني ، واتخذ مزاجه شكلا لا سبيل إلى تحويره أو تعديله . قطع الإسلام ما بينه وبين الشام ، وكان يحبها ويتعاق بها . وحرمة عطاء ملوكه ، وكان وافرأ جزلا . وحال بينه وبين هذه الحياة اللاهية المترفة ، التي لم يزد البعد عنها إلا شوقا إليها .

بين يدينا شعر إسلامي كثير ينسب حسان ، ربما كان شطر كبير منه قد أضيف إليه وحمل عليه كما يقول ابن سلام . ولكن هذا الشعر في جملة ، لا يصور عاطفه صادقة ، ولا يظهر فيه أثر للحياة الإسلامية الجديدة ، ولا يبدو أن صاحبه قد نأثر بها أدنى تأثر . ففيه كثير من الضرورات التي تصور شعرا مرتجلا أنشأ على عجل . لم يعن صانعه بحكامه ، ولم يكلف نفسه عنا . مراجعته .

والأمثلة على هذه الضرورات كثيرة . منها رسل همزة النقط في مثل قوله :
وأنت ابن المغيرة عبد شول قد اندب كجبل عاتقك الوصاب^(١)
وقوله :

إن الفرافصة بن الأحوص عنده
شجن أملك من بنات عقاب^(٢)

وقوله :
جعلتم فخركم فيه لعبد
من الأم من يسطا عفر التراب

(١) ابن المغيرة هو الوليد بن المغيرة . الفحول جمع شائلة والشائلة من الذابل مأق عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر لحف لبنها . ويقصد بعبد شول راعي لإبل . الوطاب جمع وطب وهو سقاء اللبن أو الزق الذي يكون فيه اللبن يعلقه الراعي في عاتقه . التدوب آثار الجراح .

(٢) عقاب هذا كانت بناته إماء للرافصة بن الأحوص الكلبي . يقول الحارث بن هشام بن المغيرة إن الفرافصة عنده من خبركم ما يحزن أمك ويغزها . وعقاب عبد كان نبي تغلب تزوج جد الحارث لأمه إحدى بناته .

ومنها تسهيل الهمزة في مثل قوله :

مَشُومٌ لَعِينٌ كَانَ قَدَمٌ مُبَغَّضًا تَبَيَّنَ فِيهِ اللَّؤْمُ مَنْ كَانَ يَهْتَدِي
وقوله :

كَمَرْتُمْ بِالْقُرْآنِ وَقَدْ أُتِيتُمْ بِصَدِيقِ الذِّى قَالَ الْغَذِيرُ
ومنها ترك إشباع الضمير وتسكينه في مثل قوله :

أَبْلَغُ رِيْعَةٍ وَأَبْنُ أُمِّهِ نَوْفَلَا أَنَّى مُضِيبُ الْعَظْمِ إِنَّمَا أَصْفَحَ
كان حسان يأخذ معاني القرآن ، فيديرها في رأسه ، ثم يرسلها نظماً فاتراً
بعيداً كل البعد عن أن يكون قد قد مر بقلبه ، أو امتزج بنفسه . يقول في
يوم أحد .

حَتَّى إِذَا وَرَدُوا الْمَدِينَةَ وَارْتَجَوْا قَتَلَ النَّبِيَّ وَمَغْنَمَ الْأَسْلَابِ
وَعَدُوا عَلَيْنَا قَادِرِينَ بِأَيْدِهِمْ رَدُّوا بَغِيْظَهُمْ عَلَى الْأَعْقَابِ
بُهِبُوبٍ مُصَفِّةٍ تُفَرِّقُ جَمْعَهُمْ وَجُنُودَ رَبِّكَ سَيِّدِ الْأَرْبَابِ
وَكُنِيَ الْإِلَهُ الْمُؤْمِنِينَ قَتَلَهُمْ وَأَثَابَهُمْ فِي الْآجِرِ خَيْرَ ثَوَابِ

فهو نظم لقوله تعالى (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا شَيْئًا
وَكُنِيَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالِ) ولكنه نظم سقيم يحشو فيه الألفاظ حشواً .
فقوله (بِأَيْدِهِمْ) في البيت الثاني زائد لا مكان له . وإسناد رب إلى ضمير
المخاطب في البيت الثالث غير حسن ، فهو رَبُّ كُلِّ النَّاسِ . وقوله بعد ذلك
(سيد الأرباب) سخيف ، يفهم أن هناك أرباباً آخرين هو سيدهم . وقوله في
البيت الرابع (الإله) بشعر بشيء من التكثير ، لانجده في لفظ الجلالة (الله) .

والأمثلة على هذا النظم الفاسد لآيات القرآن وألفاظه كثيرة ، لا تكاد
تخلو منها قصيدة من قصائده الإسلامية الطوال . ومع ذلك فقد نظف شعر
إسلامي جيد لحسان . ولكننا إذا تفحصنا مثل هذا الشعر ، وجدناه خلواً
من كل إشارة للإسلام أو تأثر بتعاليمه . فهو ينشئه على طريقة الجاهلية ،

مسجلاً مفاخر قومه ، وشدة بطشهم بأعدائهم من قريش . ومن الأمثلة على هذا الشعر القوى ، قصيدة له في يوم أحد ، يبدأها بغزل رقيق ، لا يلبث أن ينتقل منه إلى الفخر بنسبه وقومه ، وما لهم من قديم ، ثم يتناول أعداءهم من قريش ، متشتماً بما لحقهم من هزيمة على يد قومه . ونحن نسوق هذه القصيدة ، لنرى الفرق البعيد بينها وبين الآيات السابقة ، التي أنشئت في الموضوع نفسه .

يبدأ حسان بذكر صاحبه ، وما ينتابه من هموم ، إذا أقبل العشاء ، وتغورَّت النجوم ، وامتنع عليه النوم ، من ذكرى حبيب أصاب قلبه بالسقم ، ويعجب من أمره وإياها ، كيف يقتل مثلها مثله وهي واهنة البطش والعظام ! ويمضى في تصوير صاحبه . فهي ناعمة مترفة ، همُّها العطر والفراش ، يزينا حلًى من فضة ولؤلؤ منظوم ، لو دبَّ الذرُّ على جلدها الرقيق لآندبه بالكوم . ياله من رائعة الحسن ! لم تكن شمس النهار لتفوقها روعة . (غَيْرَ أَنَّ الشَّابَّ لَيْسَ يَدُومُ !) .

ويمضى حسان في الفخر بنفسه وبآبائه . فخاله خطيب جاية الجولان عند النعمان ، وأبوه السيد الشريف الذي ارتضى الأوس والخزرج حكومته يوم التقت في سميحة الخصوم . وهو الصقر عند باب النعمان ، إذ يشفع في إطلاق فلان وفلان من قومه فتُحطَّم عنهم الأغلال . فهو أوسط قومه شرفاً ، وأرفعهم مجداً . وكَم من حُلُم أضاعه عدم المال ، وكَم من جهل وخمول غطى عليه النعم !

وينتقل من ذلك إلى التعريض بأعداء قومه من قريش ، وما يزجى إليه شعراؤهم من هباء ، فيقول : ما أبالى نيب تيو سههم ، ولا أهتمُّ لشم لؤماتهم بظهر الغيب . فهذه أفعالنا تدل علينا ، وفعل الزُّبَيْرِى خامل مذموم . وإنما ولى البأس منهم يوم القتال بنو عبد الدار بن قُصَيٍّ ، إذ يتبادل منهم اللواءَ تسعةً وسط القنا المسجور ، فيتساقطون واحداً تلو الآخر . ثم تَوَلَّى

الجمعُ وقد أيدوا ، فكلهم مُذْمَمٌ مدحور ، تسيل كُؤُومُهُم دماً أحمر . ولقد كان من الحفاظ أن يُقيموا (إِنَّ الْكَرِيمَ كَرِيمٌ) بلى قد أقاموا ! ولكنهم أزيروا شُعبوا ، والقنا في نخورهم محطوم . تلوذ منا قريش لو إذا ، وقد خَفَّتْ منهم الحُلوم ، ووهن العزم ، فلم تُطِقْ عَوَاتِقُهُمْ حمل اللواء ، وإنما يَحْمِلُ اللَوَاءَ الثُّجُومُ .

منع النومَ بالعِشاء المذموم وخيالٌ إذا تَغُور النجومُ
يقول بعد الغزل والفخر :

ما أبالي أَنَبَّ بِالْحَزَنِّ تَيْسٌ^(١) أم لَحَانٌ بَطْهَرُ غَيْبٍ لَيْثٌ
تلك أفعالنا وفعلُ الزَّبَعْرِىَّ حاملٌ في صديقه مذموم
ولى البأسَ منكم إذ حضرتم أُسْرَةٌ من بنى قُصَيٍّ صميم
تِسْعَةٌ تحمل اللواءَ وطارت في رَعَاعٍ من القنا مخزوم^(٢)
لم يُوكُلُوا حتى أيدوا جميعاً في مَقَامٍ وكلهم مذموم
بديم عاتِكٍ وكان حِفاظاً أن يقيموا إن الكريمَ كريمٌ
وأقاموا حتى أزيروا شُعبوا والقنا في نخورهم محطوم^(٣)
وقريشٌ تلوذ منا لوإذا لم يقيموا وخفَّ منها الحُلُوم
لم تُطِيقْ حَمَلَهُ الْعَوَاتِقُ منهم إنما يحمل اللواءَ الثُّجُوم
شعر حسان في هذا الطور الإسلامى قوى ، حين يترك نفسه الجاهلية على سجيته ، فإذا تكلف مبادئ الإسلام ، وحاول أن يتأثر في شعره معانى القرآن ، تبدل طبعه ، وضعف شعره ، وبدا وكأنه يصدر عن آلة صماء ، تحكى ألفاظا باردة ، ليس فيها حرارة أو حياة

(١) يريد التنويه بنى عبد الدار بن قصى إذ صبروا يوم أحد ، ويريد التشهير بنى مخزوم إذ انهزموا . نأس الحرب . صميم خالصة النسب . الرعاع الضعفاء . من القنا أى خوفا من القنا .
(٢) شعوبه اسم اللوت وهو بفتح السين .

كانت مكانة حسان لشعرية في هذا الخور تقوم على انهجاء المومع ، الذى ىرمى به أعداء الإسلام . وقد كان هجاء مومعا ، لأنه لا يقوم على هذه المثل الإسلامية ، التى يبرز أبا القوم ، ولا يضرهم أن يعيروا بإنكارهم لها ، وخروجهم عليها .

كان حسان يومع أعداءه بالهجاء المفحش الذى يلائم جفاء البدو وخشونة طبعائهم ، فى تردد على ألسن الرواة ، ويتندر به الأعراب فى أسماهم ، لما فيه من صور بارعة ، تضحك هذه الأذواق الغليظة ، التى لم ترقها الحضارة ، ولم يهذبها الثقيف والتعليم . وهذا الفحش هو فى حقيقة الأمر لون من الصراحة العارية من المياقة . وإمعان فى الواقعة ، ياباه الذوق الحضرى المذهب ، ولكنه يعجب البدوى اللفظ ، الذى يتعلق بالواقع الصارخ من الألوان ، ولا تسنخفه السكتة الرقيقة الحفية الدلالة . فهو لا يرى الشاتم قد أبلغ وأوجع ، حتى يخوض فى الآباء والأمهات ، والأعراض والعورات . ولا يرى المتهزى الساخر قد أجاد وأسمع ، حتى تملأ نكسته الأشداق بالضحك الصاخب .

ولا نرانا قد بلغنا من تصوير حسان ما نريد ، حتى نقدم أمثلة من هذا الشعر الفاحش ، وإن كان الباحثون يفضلون فى مثل هذه الحالات أن يبروا بهذا الشعر مرورا هينا ، ويشيرون إليه من بعيد ، متخرجين من روايته . والواقع أنه لا يكفى أن يقال إن لحسان شعرا مفحشا . فهذا الفحش لا يمكن أن يعرف نوعه ومقداره ، حتى تقدم منه صور . وهذا الفحش ناحية من حسان ، ولا بد لدارسه أن يعرفه كما هو على حقيقته ، بخيره وشره . ولماذا نتخرج نحن فى الأدب من رواية مثل هذا الشعر ، والفقهاء لا يتخرجون فى مثل هذه الظروف من التفصيل والتطويل ، حين يحتاج إليهما التفسير والتوضيح ؟

من أوضح ما يصور هذا اللون فى هجاء حسان قصيدته فى هند أم معاوية يوم أحد :

أَشْرَتْ لِسْكَاعٍ وَكَانَ عَادَتَهَا لَوْمَ إِذَا أَشْرَتْ مَعَ السَّكُنْفَرِ
لَعَنَ الْإِلَهُ وَزَوَّجَهَا مَعَهَا هَذَا الْهُنُودِ طَوِيلَةَ الْبَطْرِ
أَخْرَجَتْ مَرْقِصَةً إِلَى أَحَدِ فِي الْقَوْمِ مُعْنَفَةً عَلَى بَكْرِ (١)
بَكْرِ شَمَالٍ لَا حَرَكَ بِهِ لَا عَنُ مُعَاتِبَةٍ وَلَا زَجَرِ (٢)
وَعَصَاكَ إِسْتُكَ تَتَّقِينَ بِهِ دَقَّ الْعُجَايَةِ عَارِي النَّهْرِ (٣)
قَرَحَتْ عَجِيزَتُهَا وَمَشْرَجُهَا مِنْ نَضْبَا نَضًّا عَلَى الْقَهْرِ (٤)
ظَلَّتْ تُدَاوِيهَا زَمِيلَتُهَا بِالْمَاءِ تَنْضَحُهُ وَبِالسُّدْرِ
أَقْبَلَتْ زَائِرَةً مُبَادِرَةً بِأَيْكَ وَابْنِكَ يَوْمَ ذِي بَدْرِ (٥)
وَنَسِيتُ فَاحِشَةً أَتَيْتُ بِهَا يَاهْنَدُ وَيَحْكُ سُبَّةَ الدَّهْرِ
فَرَجَعْتُ صَاغِرَةً بِلا تَرَةٍ مَا ظَنِمْتَ بِهِ وَلَا وَتَرِ
زَعَمَ الْوَلَانْدُ أَنَّهَا وَلَدَتْ وَلَدًا صَغِيرًا كَانَ مِنْ عَشْرِ
بِلَ هُوَ يَتِمُّهَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، بِأَنَّهَا كَانَتْ تَحْمِلُ سَفَاحًا، فَتَدْفِنُ أَوْلَادَهَا
سِرًّا فِي الصَّحَرَاءِ، سَتَرًا لِلْعَارِ :

لِمَنْ سَوَاقِطُ صَيَّانٍ مُنَبِّذَةٌ بَاتَتْ تَفْحَصُ فِي بَطْحَاءٍ جِنَادِ
بَاتَتْ تَمَخَّضُ مَا كَانَتْ قَوَّاءَ بِلْهَا إِلَّا الْوُحُوشَ وَالْإِلَاحَةَ الْوَادِي

(١) مَرْقِصَةٌ تَرْفِصُ الْبَعِيرَ وَذَلِكَ حِينَ تَسْرِعُ فِي السَّيْرِ . مُعْنَفَةٌ مَسْرَعَةٌ كَذَلِكَ .

(٢) نَفَالٌ بَطْلَى . الزَّجَرُ حَتُّ الْبَعِيرِ عَلَى السَّيْرِ . يَقُولُ إِنْ الْبَكْرَ الَّذِي يَحْمِلُهَا كَانَ بَطِينًا وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَزَحِرْ وَيَسْتَحْ وَلَكِنْ لِأَنَّهَا ثَقِيلَةٌ عَلَيْهِ .

(٣) الْعُجَايَةُ عَصَبٌ فِيهِ فَصُوصٌ كَانُوا إِذَا جَاعُوا دَقُّوه وَأَكَلُوهُ وَكَانُوا يَدُقُّونَهُ بَيْنَ فَهْرَيْنِ وَالْفَهْرِ الْحَجَرُ مِثْلُ السَّكْفِ يَدُقُّ بِهِ الْجُوزَ وَغَيْرَهُ . يَقُولُ لَهَا حَسَنٌ إِنْ اسْتَحْ هَرَّ عَصَاكَ الَّتِي تَدْفَعُ بِهَا يَدْفَعُ خُفَّ الرَّحْلِ كَمَا يَدُقُّ الْفَهْرُ الْعُجَايَةَ .

(٤) النَّصُّ التَّحْرُكُ عَلَى الدَّابَّةِ لِحُشِّهَا عَلَى السَّيْرِ . الْمَعْجِزَةُ الدَّبَرُ . الْمَشْرَحُ الْمَصْبَةُ بَيْنَ الذَّبَرِ وَالْفَرْجِ .

يَقُولُ إِنْ عَجِيزَتَهَا وَمَشْرَجَهَا قَدْ تَفَرَّجَا مِنْ كَثْرَةِ حَرَكَتِهَا عَلَى الْبَكْرِ لِحُمِّهِ عَلَى السَّيْرِ .

(٥) أَيْوَهَا عَتَبَةٌ بِنُ رَيْعَةٍ وَعَمَّا شَيْبَةٍ بِنُ رَيْعَةٍ فَلَا يَوْمَ بَدْرٍ . وَابْنُهَا حَنْظَلَةُ بِنُ أَبِي سَفْيَانَ قَتَلَ

كَذَلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ وَأَخُوهَا الْوَلِيدُ بِنُ عَتَبَةَ قَتَلَ كَذَلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ .

فِيهِمْ صَبِيٌّ لَهُ أُمٌّ لَهَا نَسَبٌ فِي ذِرْوَةٍ مِنْ ذُرَى الْأَحْسَابِ أَيَّادٍ
تَقُولُ وَهُنَا وَقَدْ جَدَّ الْمَخَاضُ بِهَا يَالَيْتَنِي كُنْتُ أُرْعَى الشَّوْلَ لِلْغَادِي
قَدْ غَادِرُوهُ لِحُرِّ الْوَجْهِ مُنْعَفِرًا وَخَالَهَا وَأَبُوهَا سَيِّدُ النَّادِي
وَيَقُولُ فِي هِجَاءِ بَنِي سَهْمٍ ، وَفِي هِجَاءِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ ،
(وَأُمُّهُ النَّابِغَةُ امْرَأَةٌ مِنْ عَزْزَةٍ) .

أَمَّا ابْنُ نَابِغَةَ الْعَبْدِ الْهَجِينِ فَتَقَدَّرَ
أُنْجِي عَلَيْهِ لِسَانًا صَارِمًا ذَكَرَا
مَا بَالَ أُمِّكَ رَاغَتٌ عِنْدَ ذِي شَرْفٍ
إِلَى جُذَيْمَةٍ لَمَّا عَفَّتْ الْأَثَرَا (١)
ظَلَّتْ ثَلَاثًا وَمِئْتَيْنِ مُعَانِقُهَا
عِنْدَ الْحُجُوجِ فَمَا مَلَأَ وَلَا فَتَرَا (٢)
يَا آلَ سَهْمٍ فَإِنِّي قَدْ نَصَحْتُ لَكُمْ
لَا أَبْعَثَنَّ عَلَى الْأَحْيَاءِ مِنْ قُبُرَا
أَمَّا هِشَامٌ فَرَجُلًا قَيْنَةً مَجَنَّتْ
بَاتَتْ تُغَمِّزُ وَسَطَ السَّامِرِ الْكَمَرَا (٣)
لَوْلَا النَّبِيُّ وَقَوْلُ الْحَقِّ مُغْضَبَةٌ
لَمَا تَرَكْتُ لَكُمْ أَنْثَى وَلَا ذَكَرَا
وَلَسْتُ أَدْرِي أَى شَيْءٍ قَدْ تَرَكَ حَسَانٌ إِكْرَامًا لِلنَّبِيِّ ؟ وَمَاذَا كَانَ عَسَاهُ
قَاتِلًا لَوْلَاهُ !

(١) رَاغَتٌ مَالَتْ عَنِ الْقَصْدِ . دُوْشَرْفٌ مَوْضِعٌ . جَذِيْمَةُ اسْمُ رَجُلٍ . يَقُولُ لَهُ هَلَّا خَبَرْتَنِي خَبِيرَ
أُمِّكَ انْخَرَفَتْ عَنِ الطَّرِيقِ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ مَعْنَى آثَارِ أَقْدَامِهَا عَلَى الرَّمَالِ خَشْيَةً أَنْ تَتَّبِعَ .

(٢) مِئْتَانِ عَبْدٌ لِلْحَرَاةِ : الْحُجُوجُ جَبَلٌ بِمَكَّةَ .

(٣) الْمَاجِنُ الَّذِي يَرْتَكِبُ الْمَقَابِحَ الْخُزْيَةَ وَلَا يِيَالِي الْعُدْلَ وَالْتِقَرِيْعَ . الْكَمَرُ جَمْعُ كُرَّةٍ وَهُوَ رَأْسُ
الذِّكْرِ ، الْغَمَزُ الْعَصْرُ وَالْكَسْبُ بِالْيَدِ .

وقال لسلامة بن رَوْح بن زَنْبَاع الجُذَامِي — وكان يلي عَشُورَ
الروم بالشام .

سَلَامَةُ دُمِيَّةٌ فِي لَوُوحِ بَابِ هُبِلَتْ أَلَا تُعِزُّ كَمَا تُجِيرُ
تَقَلَّدَ أَيْثُرَ زَنْبَاعٍ وَرَوْحَ سَلَامَةُ إِنَّهُ بَشُ الْخَفِيرُ
وَلَا يَنْفَكُ مَا عَاشَ ابْنُ رَوْحِ جُذَامِي بِذِمَّتِهِ خُتُورِ
ويقول في هجاء بني سُلَيْم بن أَشْجَع :

وَلَوْ شَهِدْتَنِي مِنْ مَعَدٍّ عَصَابَةٍ
سِوَى نَاكَةِ الْمَعْزَى سَلِيمِ بْنِ أَشْجَعِ
بَنُو عَمِّ دَارِ الذَّلِّ لَدُومًا وَدَقَّةِ
وَأَحْلَامِ تَيْسٍ يَمُمُ الدَّارَ أَصْفَعِ
ويقول في هجاء بني المغيرة :

هَلَا مَنْعَمٌ مِنَ الْمَخْزَاةِ أَمَّكُمْ
عِنْدَ الثَّنِيَّةِ مِنْ عَمْرٍو بْنِ يَحْمُومِ
أَسْلَهْتُمُوهَا فَبَاتَتْ غَيْرَ طَاهِرَةٍ
مَاءُ الرِّجَالِ عَلَى الْفَخْذَيْنِ كَالْمُورِ (١)
ويقول في هجاء قوم :

ذَهَبَتْ قَرِيشٌ بِالْعَلَاءِ وَأَتَتْ
تَمْشُونَ مَشَى الْمَوَسَاتِ الْخُرْعِ
فَذَرُوا التَّخَاذُؤَ وَامْنَعُوا أَسْتَاهَكُمْ
وَامشُوا بِمَدْرَجَةِ الطَّرِيقِ الْمَسْهِعِ
أَنْتُمْ بَقِيَّةُ قَوْمِ لُوطٍ فَاعْلَمُوا
وَالِى خِنَايَكُمُ يُشَارُ يَاصْبَعِ

هذا إمعان في الفحش ، لا نجد له مثيلا في الشعر الجاهلي ، ولا نكاد نعرف له نظيرا إلا في نقائص جرير والفرزدق . ونحن لا نريد أن نمضي في التحليل والاستنتاج ، لأننا لا نعرف كم من هذا الشعر المفحش الكثير تصح نسبته لحسان ، وكم منه قد أضيف إليه وحمل عليه . ولكننا نلاحظ أن المنسوب له في ديوانه من هذا الشعر كثير ، لا يعد له في الشعر الجاهلي شيء . ومن الحق أننا لا نزال نجد أمثلة من هذه الدعابات النائية ، والنكت العارية ، في مجالس العامة ، وفي الطبقات التي لم تنل حظاً من الثقافة . ولكن هذا القدر الكبير من الشعر الفاحش ، إن صحت نسبته لحسان ، فهو يصور إلى جانب جفاء الطبع ناحية نفسية خاصة ، تغلب عليها الشهوة الجنسية ، وتميل بطبيعتها للفحش ، لأنها تجد فيه راحة لا ذة . ولقد بلغ من غلظ طبع حسان أن يطلق امرأة تزوجها من أسلم ، ثم يتبسعها وقرمها بالهجاء . فيعيرها بأنه كان يفعل بها ويفعل .

قد رَغِبُوا زَعَمُوا عَنِّي بِأَخْتِهِمْ وفي الذَّرَى نَسْبِي والمجدُّ مرفوعٌ
ويل أم شَغْنَاءَ شَيْئاً تَسْتَخِيثُ بِهِ إذا تَجَمَّأ لَهَا الشَّعْظُ الْأَفَاقِعُ (١)
كَأَنَّهُ فِي صَلَاحِهَا وَهِيَ بَارِكَةٌ ذِرَاعُ آدَمَ مِنْ نَطَاءٍ مَنزُوعٍ (٢)

وهذا الفحش مناف للآداب الإسلامية التي تحرص على الأعراض ، وتمنع من قذفها ، وتعاقب على ذلك بالجلد . ولكن حسان لم يكن حريصاً على الآداب الإسلامية ، فهو يذكر الخمر في مواضع كثيرة من شعره الإسلامي ، مع أن الدين قد حرّمها .

يقول في يوم الفتح من قصيدته :

عفت ذات الأصابع فالجِوَاءُ إلى عذراء منزلها خلاء
كَأَنَّ سَيْيئَةً مِّنْ بَيْتِ رَأْسٍ يكون مِرَاجِئُهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ

(١) الأفافع الذي ينفق وتسمع له صوتا من نفق الأصابع وهو صوتها إذا فرقت .

(٢) الصلا وسط الظهر من الإنسان .

على أنيابها أو طعم غَضَضٍ من التفاح هَصَصَرَه الجِنَّاءُ
 إذا ما الأشرِباتُ ذُكِرْنَ يوماً فهُنَّ لطِيبُ الرَّاحِ الفِدَاءُ
 نُوكِلِيهَا المَلَامَةَ إنْ أَلْمَنَّا إذا ما كان مَغْثٌ أو لِحَاءُ
 ونشرها ففترَكنا ملوكاً وأسداً ما يُنْهِنُنْهُنَا اللِّقَاءُ
 ويقول في يوم بدر :

تَبَلَّكَتْ فَوادِكَ في المَنَامِ خريدةً تسقى الضَّجِيعَ بيارِدِ بَسَامِ
 كالمسك تخططه بماء سحابة أو عاتقِ كدم الذبيح مدام
 ويقول من قصيدة يفتخر فيها بمجد قومه في الجاهلية وفي الإسلام :

وفيما اشتها من عصير القَطَافِ وَعَيْشِ رَخِيٍّ عَلَى غَيْرِهِمْ
 نقول إن حسان لم يكن حريصاً على الآداب الإسلامية . ورجل يقول
 في زوجته ما قال بعد أن يطلقها ، ورجل يسئ الظن بزواج النبي ويجهر باتهامه
 لها ، ورجل يحن إلى حياة اللهو العابثة هذا الحين بعد إسلامه ، خليق أن
 يمارس لذته الفاحشة ، في الباب الوحيد الذي تركه له الإسلام مفتوحاً ،
 وهو الهجاء .

بقيت خاصة من خصائص حسان الفنية في الهجاء ، قد أشرنا إليها في
 حديثنا عن الخطيئة ، وهي براعته في خاق الصور الفنية وإبتكارها . وهذه
 موهبة تتيح للهجائيين بنوع خاص كثيراً من الشهرة والذيع . فهي تصور إلى
 جانب الذكاء بصيرة هجائية ، وروحاً فكهة ، لا تنظر إلى الأشياء إلا لتسخر
 منها ، وترى فيها شها قريباً بألوان مضحكة من الصور .

يقول في هجاء رجل من بني عابد بن عبد الله المخزومي :

فإن تَصَاحُ فَإِنَّكَ عَابِدِيٌّ وَصُلِحُ العابِدِيَّ إلى فَسَادِ
 وإن تَمْسُدْ فإِ أَلْفَيْتَ إلا بعيداً ما علَتْ من السَّدَادِ
 على ما قام يَشْتَبِئُنِي لَيْمٌ كخنزير تمرَّغَ في رمادِ

وقال في هجاء رجل من المنافقين اسمه الضحاك :

أبلغ أبا الضحاك أن عُرِوقه أَعَيْتْ على الإسلام أن تَسْمَجِدَا
أَتُحِبُّ يَهْدَانِ الحِجَازَ وديْنهم كَبِدَ الحِمَارِ ولا تُحِبُّ مُحَمَّدَا
وقال لسعد بن أبي السرح (واسم أمه مهانة) :

ووالله ما أدرى وإنى لسائل مَهَانَةُ ذَاتِ الخَيْفِ أَلَامَ أم سعد
أَعْبَدُ هَجِينِ أَحْمَرَ اللونِ فَاقِعٌ مَوْتَرٌ عَلِيَاءِ القِفَا قَطَطُ جَعْدُ (١)
وقال في هجاء بني عابد :

سألت قريشاً كَلَّهَا فِدْرَارُهَا بنى عابد شَاهَ الوجوه لعابد
إذا قَعَدُوا وَسَطَ الشَّدَى تَجَاوَبُوا تَجَاوَبَ عَدَّانَ الرِّيعِ السَّوَادِ (٢)
وما كان صَفِيٍّ أَيْوْفِي بِذِمَّةِ قَفَا ثَلْبٍ أَعْيَى بَيْعُ المَوَارِدِ
وقال يهجو الحارث بن كعب ، رهط النجاشي الشاعر :

حَارِثُ بْنُ كَعْبٍ أَلَا الأَحْلَامُ تَجْرِمُ
عَنَّا وَأَنْتُمْ مِنَ الجُرْفِ اجْمَاخِيرِ (٣)
لَا بَأْسَ بِالنَّوْمِ مِنْ طُولٍ وَمِنْ عِظَمِ
جِسْمِ البَغَالِ وَأَحْلَامِ العَصَافِيرِ
ذَرُّوا التَّخَاجُذُ وَامْشُوا مَشْيَةَ سُجْدَا
إِنَّ الرِّجَالَ ذَوُو عَصَبٍ وَتَذَكِيرِ (٤)

(١) الهجين الذى ولد من أمة . والعرب تسمى الهجين أحمر اللون تشير إلى أنه غير عربي . العلماء عصب العنق . فقطط حديد قمير .

(٢) الندى النادى وهو مجلس القوم للسر . عدان أضنه عتدان جمع عتود وهى الجدى الذى استكرش . السواد من السفاد وهو نزو الذكر على الأنثى .

(٣) الجوف جمع أحرف . الخاخير جمع محجور وهو أنواع الجوف والمراد الضعفاء المستريحون

(٤) التخاجز التباطؤ فى المشى أى تلتفت . لعصب شدة الحلق . المشية السجى السهلة .

كَأَنْكُمْ خُشْبُ جُوفِ أَسَافِلِهِ
مُثَقَّبٌ فِيهِ أَرْوَاحُ الْأَعَاصِيرِ
أَلَا طَعَانٌ إِلَّا فَرَسَانُ عَادِيَةٍ
إِلَّا تَجَشُّؤُكُمْ حَوْلَ الثَّنَائِيرِ ! (١)

وقال في هجاء بني سهم بن عمرو بن هصيص :

وَاللَّهِ مَا فِي قَرِيشٍ كُلِّهَا نَفَرٌ
أَكْثَرُ شَيْخًا جَبَابًا فَاحِشًا غَمْرًا
أَذَبُّ أَصْلَعُ سِفْسِفِيرٍ لَهُ ذَأَبٌ
كَالْقِرْدِ يَعِجُّمْ وَسَطُ الْجُلُسِ الْخَمْرًا
هَذَا مِثْلُ مِثَالِمْ مَحْرُومِ ثَوْبِهِمْ
إِذَا تَرَوَّحَ مِنْهُمْ زُوْدُ الْقَمَمَرِ (٢)

وقال في هجاء بني الحماص :

أَمَّا الْحِمَاصُ فَأَنْزَى غَيْرِ شَاتِمِهِمْ
لَا هُمْ كِرَامٌ وَلَا عَرَضِي هُمْ خَطَرُ
كَأَنَّ رِيحَهُمْ فِي النَّاسِ إِذَا بَرَزُوا
رِيحُ الْكِلَابِ إِذَا مَا بَاتَهَا الْمَطَرُ
أَوْلَادُ حَامٍ فَلَنْ تَلْقَى لَهُمْ شَبَهَا
إِلَّا التُّيُوسَ عَلَى أَكْتَافِهَا الشَّمَرِ (٣)

(١) التَّجَشُّؤُ تَبَسُّسُ الْمَعْدَةِ تَنْدُ الْأَمْتَلَاءُ . الثَّنَائِيرُ جَمْعُ تَنْوَرٍ وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الْأَوْرَانِ . يَقُولُ إِنَّكُمْ لَسْتُمْ أَصْحَابُ قِتَالٍ وَهَيْكَلٍ أَنْ تَحْلُسُوا إِلَى مَوَاضِعِ الطَّامَامِ تَنْجَشُّوْنَ وَأَنْتُمْ تَطِيفُونَ حَوْلَهَا .
(٢) يَقُولُ إِنَّ خُضَيْمَ بَيْتٍ مَحْرُومًا فَادَا رَحِلٌ لَمْ يَزِدْهُ غَيْرَ الْقَمَرِ أَيْ لَمْ يَزِدْهُ شَيْئًا .
(٣) أَوْلَادُ حَامٍ حَذَى سَامِي . نَفَاقِمٌ مِنَ الْعَرَبِ .

شبه الإمام فلا دين ولا حسب
لو قامروا الزنج عن أحسابهم قُمِروا
تلقى الحماسي لا يمنعك حرمتك
شبه النديط إذا استعبدتهم صبروا

هذه الصور الساخرة المضحكة ، التي لا تغلو من إغش ناب في كثير من المواضع ، وهذه الألفاظ المختارة لمثل هذه الصور ، هي التي أكسبت حسان مكانته الخاصة ، وأتاحت له الذبوع العريض ، وجعلته أشد على أعداء الإسلام من وقع النبل ، كما قال النبي . وأكثر ما يكون شعر حسان لاذعا قارصا ، حين يقصر فلا يتجاوز الآيات ، مثل أبياته في هجاء المغيرة ابن شعبة :

لو أن اللؤم ينسبُ كان عبداً قبيحَ اللون أعورَ من ثقيف
تركتَ الدينَ والإسلامَ جهلاً غداةً لقيتَ صاحبةَ النُصيف
وراجعتَ الصبا وذكرتَ لهواً من الأحشاء والخصر اللطيف
ومثل أبياته في هجاء أبي سفيان ، في قتل صهره أبي أزيهر الدوسي (قتلته هشام بن الوليد بن المغيرة ^(١) .

غداً أهلُ حِضْنِي ذِي الْمَجَازِ بِسُخْرَةٍ
وَجَارُ ابْنِ حَرْبٍ بِالْمَحْصَبِ مَا يَغْدُو ^(٢)

(١) كان أبو أزيهر رجلاً من الأزد . وإنما سمي الدوسي نسبة لأخواله . وكان حليفاً لأبي سفيان ابن حرب . ثم زوج بنتاً في فريش . زوج إحداهما لأبي سفيان ، والأخرى مغبة بن ربيعة ، وزوج الثالثة لنوليد بن المغيرة ، ثم أمسكها عنه ، لما بلده من سوء خلقه ، ولم يرد إليه المهر . فانتهر أبناء الوليد غرة من أبي أزيهر ، فقتلوه في سوق ذي المجاز . فجعل حسان يقول الشعر ليستثير أبا سفيان للاخذ بثأره ، فتقع الحرب بين القرشيين ، وتذهب ريعهم . وكان ذلك عقب وقعه بدر . وقد كادت الحرب تقع بين الفريقين حين سمع يزيد بن أبي سفيان شعر حسان ، لحى لصهر أبة ، ولكن أبا سفيان تدارك الأمر فكف الناس ، وقد أدرك ما قصد إليه حسان بشعره .

(٢) ذو المجاز موضع بمى أو عند عرفت ، كان بقام فيه سوق في الجاهلية . وفيه قتل أبو أزيهر الدوسي . حضناه أى جانباه . السخرة بضم السين والفتحين آخر الليل قبيل الصبح . جار ابن حرب هو أبو أزيهر . لا يبعدو لأنه قتل . فهو مقيم في هذا المكان الذي دفن به .

كسَاكَ هِشَامُ بْنُ الْوَلِيدِ ثِيَابَهُ
فَأَبْلَ وَأَخْلَفَ مِثْلَهَا جُسَدًا بَعْدُ (١)

قضى وطراً منه فأصبح غاديا
وأصبحت رِخْوًا ما تَنْحُبُّ ولا تَعْدُو (٢)

فلو أن أشياء بَبَدَّرَ شهوده
لَبَلَّ مُتُونُ الْخَيْلِ مُعْتَبِطٌ وَرَدُّ
فَمَا مَنَعَ الْعَيْرُ الضَّرْوَطُ ذِمَّارُهُ

وما مَنَعَتْ مَخْزَاةَ وَالِدِهَا هِنْدُ

ويمتد هذا الطور من حياة حسان عشر سنوات تنتهى بموت النبي ،
فيرثه حسان بشعر كثير ، فيه وفاء ، ولكن فيه حزنا على ما ضاع من
مكانته ومن منزلة الأنصار ، الذين طغت عليهم عصية المضريين بعد الفتح
ولم يعد نفوذهم يستند إلا على ما يدُلُّون به من سابق إيوائهم للنبي :

مَنْ ذَا الَّذِي عِنْدَهُ رَحْلِي وَرَاحِلَتِي

ورزقُ أهلى إذا لم يُؤْنِسُوا السَّمَطَا

أَمْ مِنْ نُعَاتِبُ لَا نَخْشَى جَنَادِعَهُ

إذا اللسانُ عَتَا فى القولِ أو عَثَرَا

كَانَ الضِّيَاءُ وَكَانَ النُّورُ نَتَبَّشُهُ

بعدَ الآلهِ وَكَانَ السَّمْعُ وَالبَصْرَا

فليتنا يومَ وارَوْهُ بملحده

وغَيَّوْهُ وَأَلْقَوْا فَوْقَهُ الْمَدْرَا

(١) يسخر منه . يقول أبل وأخلف ما أكلت ولبت من دبة قتيلك .

(٢) الوطر الأرب والحاجة . أصبح غاديا أى أن قاتل أبي سفيان قد أصبح آمنا بروح وبقدو

غير مكثرت . الخجب السرعة . يقصد أن أبا سفيان أصبح لا يستطيع أن يفعل شيئا .

لَمْ يَتْرِكِ اللَّهُ مِنَّا بَعْدَهُ أَحَدًا
وَلَمْ يَعْشِ بَعْدَهُ أَثَى وَلَا ذِكْرًا
ذَكَتْ رِقَابُ بَنِي النَّجَارِ كُلِّهِمْ
وَكَانَ أَمْرًا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ قَدِ قُدِّرَا

ويظل حسان على عصبيته لليمنية ولأنصار خاصة ، ويظل المهاجرون والمضرية على كرههم له ، ولكنهم يدارونه ويكرمونه ، لسابق منزلته عند الرسول . يمر به عمر وهو ينشد الشعر في المسجد ، فيتهرء قائلا « أُرْغَاءُ كُرْغَاءِ الْبَعِيرِ ؟ » ولكن حسان يمضى في إنشاده ، ويجيبه قائلا : دعنا عنك يا عمر ! فوالله لَتَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَنْشِدُ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ مَنْ هُوَ خَيْرُ مَنْكَ . ويزوى حسان ، فلا تكاد نسمع عنه شيئا ، إلا هذا الشعر الذى قاله فى رثاء عثمان ، مظهرا ولاءه لمعاوية ، محملا عليا تبعه قتله . وتثقل عليه الشيخوخة بعد أن يصاب فى بصره — وربما كان ذلك فى خلافة عمر ، كما تصوره قصة جيلة بن الأيهم — فيعتزل السياسة ، عاكفا على هذا الماضى الطويل الخافل ، تهيجه الذكرى ، فيجن إلى أيام شبابه متحسرا .

إِنَّ شَرَّخَ الشَّبَابِ وَالشَّمْعَ الْأَسْوَدَ مَا لَمْ يُعَاصِرَ كَانَ جُنُونًا
مَا التَّصَابِي عَلَى الْمَشَيْبِ وَقَدْ قَلَبَتْ مِنْ ذَاكَ أَظْهُرَ أَوْ بَطُونًا؟
إِنْ يَكُنْ نَعْتُ مَنْ رَقَاشَ حَدِيثٌ فَبِمَا نَأْكُلُ الْحَدِيثَ سَمِينًا (١)
وَانْتَصَيْنَا نَوَاصِيَ اللَّهِ يَوْمًا وَبَعَثْنَا جُنَاتَنَا يَجْتَنُونَا
فَجَنُونًا جَنَى شَهْيًا حَرِييًّا وَقَضَوْا جَوْعَهُمْ وَمَا يَأْكُلُونَا

(١) رقاش علم على كل امرأة . بما نأكل الحديث أى ربما . يقول إن أكن قد هرمت ، ولم يعد لحديث النساء فى نفسى حلاوة ، فلقد نعمت بهن فى شبان ، وكنت أرى حديثهن حلوا طيبا .

وَأَمِينٍ حَدَّثْتُهُ سِرَّ نَفْسِي فَرَعَاءَ حَفِظَ الْأَمِينِ الْأَمِينَا
مُخَضَّرٌ سِرَّهُ إِذَا مَا التَّقِينَا ثَلَجَتْ نَفْسُهُ بِأَنْ لَا أَخُونَا

ويتذكر الشام وملك بنى غسان إبان ازدهاره ، وقد أوحشت منهم
الديار مجيلا خياله في مغانيهم التي كان يرتادها في شبابه وفي أيام لُهوهِ ، يتبعها
متنقلا من مكان إلى مكان ، مجملا هذه الذكريات الحلوة في ترويضها واضعها ،
تاركا لأسماء الأماكن وحدها أن تثير في نفسه ما تثير من صور وأحلام .

لَمَنْ الدَّارُ أَوْحَشَتْ بِمَعَانٍ بَيْنَ أَعْلَى الْيَرْمُوكِ فَالْخَمَانِ
فَالْقَبْرِيَّاتِ مِنْ بِلَاسِ فَدَارٍ يَأْفَسُ كَاءَ فَالْقُصُورِ الدَّوَانِ
فَقَفَا جَاسِمٌ فَأَوْدِيَهُ الصَّقْرُ مَغْنًى قَبَائِلَ وَهَرَجَانَ
تِلْكَ دَارُ الْعَزِيزِ بَعْدَ أَنْيَسِ وَحُلُولِ عَظِيمَةِ الذَّرْكَانِ

ولا يزال يرفع الستار عن هذا الماضي البعيد ، حتى يتخيل عيد الفصح
وقد دنا ، ففضى الولائد الحسنان يتبها أن لا يستقبله بنظم أكاليل المرجان ،
وسحن بين الجنان ، في قصص رقيقة من الكتان ، وقد شدن إلى خصورهن
مآزر رقيقة بيضاء ، يجمعن فيها زهور الزعفران . ثم يعود إلى نفسه فيقول :
أين هذه الجوارى الحسنان ، من اللاتي يحتمن صمغ المغافر وينسفن
الحنظل ؟

ذَاكَ مَغْنًى مِنْ آلِ جَفْنَةٍ فِي الدَّهْرِ وَحَقٌّ تَعَاقُبَ الْأَزْمَانِ
قَدْ أَرَانِي هُنَاكَ حَقٌّ مَكِينٌ عِنْدَ ذِي التَّاجِ مَجْلِسِي وَمَكَانِي
وَمَنْ أَجْمَلَ مَا قَالَ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ الْآخِرَةِ عَلَى ذِكْرِ أَيَّامِهِمْ قَصِيدَتُهُ :
أَسْأَلُ رَسَمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ بَنِي الْجَوَارِي فَالْبَضْبَعِ فَخَرْمَلِ
يجول بخياله في مغانيهم ، مرددا أسماء الأماكن التي كان له فيها ذكريات ،
ويختم ذلك بقوله :

داراً لقومٍ قد أراهم مَرَّةً فوقَ الأَعَزَّةِ عِزُّهُمْ ثُمَّ يَنْقَلِبُ
ويثور في نفسه الحنين المُلِحَّ إلى هذه الأيام ، وإلى هؤلاء الصحاب
والندمان ، في ذاك الزمان البعيد ، فيقول :

لله دَرٌّ عَصَابَةٌ نَادَمْتُهُمْ يَوْمًا بِجِلَّتْ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ
يَمْشُرُونَ فِي الْحُلُلِ الْمَضَاعِفِ نَسْجَهَا مَشَى إِخْمَالٌ إِلَى الْجِبَالِ الْبُزْلِ
الضاربون الكِبَاشَ يَبْرُقُ يَبْضُهُ ضَرْبُ السَّيْطِ لَهْ بَنَانِ الْمُفْضِلِ
أَوْلَادُ جَفْنَةٍ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ قَدَّرَ إِنْ مَارِئَةَ الْكَرِيمِ الْمُفْضِلِ
يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرَّتْ كِلَابُهُمْ لَا يَسْتَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُتَقَبِّلِ
يَسْقُونَ مِنْ وَرْدِ (الْبَرِّ بِمِثْلِ) عَلَيْهِمْ بَرْدَى يَصْقُقُ بِالرَّحِيقِ السَّاسِلِ

تثير هذه الذكريات في نفسه الضيق الشديد بمقامه فيقول : أين هذا
العيش الحلو الرقيق ، من عيش هؤلاء الأعراب الخشن الضنين ، وأين
نساؤهن الجميلات من ولائد الأعراب اللاتي ينقفن الحنظل ؟ يا لها من أيام
حسان مَرَّتْ وكأن لم تكن

يُسْقَوْنَ دِرْيَاقَ الرَّحِيقِ وَلَمْ تَكُنْ تُدْعَى وَلَائِدُهُمْ لِنَقْفِ الْخَنْظَلِ
فَلَبِثْتُ أَزْمَانًا طَوَالًا فِيهِمْ ثُمَّ أَنْكَرْتُ كَأَنِّي لَمْ أَقْبَلِ
نعم . مرت سراعاً كالخلم ، ولم يعد إليهما من سبيل ، فقد تغير الشباب
والشعر ! ولكنه يستطيع في شيخوخته وضعفه وعيشه الراكد أن يحلم بها ،
ويستعيد بعض صورها ...

إِذَا تَرَى رَأْسِي تَغْيِيرَ لَوْنِهِ شَمِطًا فَأَصْبَحَ كَالشَّعَامِ الْمُحْجُولِ
فَلَقَدْ يَرَانِي مَوْعِدِي كَأَنِّي فِي قَصْرِ دَوْمَةٍ أَوْ سَوَاءِ الْهَبْكِ
وَلَقَدْ شَرِبْتُ الْخَمْرَ فِي حَانُوتِهَا صِهْبَاءَ صَافِيَةٍ كَطِيمِ الْفُؤَافِلِ
يَسْعَى عَلَى بَكَاسِهَا مُتَنَطِّفٌ فَيَعْلُنِي مِنْهَا وَإِنْ لَمْ أَنْهَلِ

إن التي ناولتني فقتلتها قُتِلتَ - قُتِلتَ - فهاتها لم تُقْتَلْ
كلتاها حَلَبُ العَصِيرِ فعاطني بزجاجة أرخاهما للِفَضْلِ
بزجاجة رَقَصَتْ بما في قعرها رَقَصَ القَلْبُ صِرا كِبِ مستعجل
ويصله عطاء جبلة بن الأيهم في خلافة عمر وقد فر إلى الروم مرتداً إلى
النصرانية فيقول في ذلك أبياتا يلومه عليها بعض الحاضرين من مزينة قائلا
— أتذكر قوما كانوا ماوكا فأبادهم الله وأفناهم؟ فيجيبه حسان (أما والله
لولا سوابق قومك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لطوقتك طوق الخمامة)
ثم يقبل على الرجل الذي جاء من عند جبلة بهديته فيقول — ماذا قال لك
جبلة؟ فيقول — قال لي إن وجدته حيا فادفعها إليه، وإن وجدته ميتا فاطرح
الشياب على قبره، وابتع بهذه الدنانير بدنا فانحرها على قبره . فيقول حسان
في أمي ظاهر وحزن عميق . ليتك وجدتنى ميتا ففعلت ذلك بي ! ويظل
حسان في عزله حتى توافيه منبته في أوائل ملك معاوية .

(انتهى القسم الأول في عصر الجاهلية)

المراجع

نصوص :

- القرآن الكريم
ديوان زهير طبع دار الكتب
د امرى القيس السندوبى مصر
د النابغة الذبياني مصر ١٩١١ م
د حسان بن ثابت مصر ١٣٤٧ هـ ، ط . أوروبا
د الخطيئة الشنقيطى مطبعة التقدم
د الشماخ بن ضرار الشنقيطى ١٣٢٧ هـ
د عميد بن الأبرص أوروبا
د عامر بن الطفيل
د علقمة الفحل
د الأعرشى
د طرفة بن العبد
العقد الثمين فى دواوين الشعراء الجاهلين د
المعلقات السبع للزوزنى مصر ١٣٥٢ هـ
المعلقات العشر للتبريزى مصر ١٣٥٢ هـ
مختارات ابن الشجرى مصر ١٣٤٤ هـ
ديوان الحماسة مصر
شرح ديوان الحماسة للتبريزى مصطفى محمد . مصر

- المفضليات طبع هارون مصر ١٣٦١ هـ
جمهرة أشعار العرب مصر ١٣٤٥ هـ
شعراء النصرانية اليسوعيين بيروت

نقد :

- العمدة لابن رشيق طبع مصطفى محمد مصر
الموازنة للأمدى صبيح مصر
ديوان المعاني للعسكري مصر ١٣٥٢ هـ
الصناعتين للعسكري الأستانه ١٣١٩ هـ
الوساطة للجرجاوى مصر ١٣٦٤ هـ
الموشح للمرزبانى مصر ١٣٤٣ هـ
نقد الشعر لقدامة مصر ١٩٣٤ م
نقد النثر لقدامة الجامعة المصرية

أدب :

- نهاية الأرب للنويرى طبع دار الكتب
العقد الفريد لابن عبد ربه مصر ١٩٤٠ م
البيان والتبيين للجاحظ السندوبى ١٩٢٦ م
الكامل للمبرد مصر ١٣٥٥ هـ
الامالى للقالى دار الكتب

تراجم وطبقات :

- الأغاني للأصبهاني طبع دار الكتب فى الأجزاء العشرة الأولى ،
وطبع بولاق فيما يلىها

- وفيات الأعيان لابن خلكان . طبع بولاق ، طبع مصر (فريد رفاعي)
 الشعر والشعراء لابن قتيبة . د مصر (السقا) ١٩٣٢ م
 طبقات الشعراء لابن سلام . د مصر (السعادة)
 خزانة الادب للبغدادى . د مصر (الخلبي) ١٩٣٠ م
 الفهرست لابن النديم . د مصر ١٣٤٨ هـ
 معجم الشعراء لتمرزبانى . د مصر (القدسى) ١٣٥٤ هـ
 المؤلف والمختلف للأمدى . د مصر
 الطبقات الكبرى لابن سعد . د أوروبا

تاريخ :

- سيرة ابن هشام . طبع مصر (الخلبي) ١٩٣٦ م .
 تاريخ الطبرى . د مصر ١٩٣٩ م
 تاريخ ابن الاثير . د مصر (المنيرة) ١٣٤٨ هـ
 مروج الذهب للمسعودى . د مصر ١٣٤٦ هـ
 إمتاع الأسماع للمقريزى . د مصر (لجنة التأليف) ١٩٤١ م
 معجم البلدان لياقوت . د مصر
 نسب عدنان وقحطان للمبرد . د مصر (لجنة التأليف) ١٩٣٦ م
 الإنباه على قبائل الرواه لابن عبد البر . د مصر (السعادة) ١٣٥٠ هـ
 شرح نقائص جرير الفرزدق . د أوروبا
 مقدمة ابن خلدون . د مصر ١٩٣٠ م
 النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم المقريزى . د مصر

مراجع :

- لسان العرب . لابن منظور
 القاموس المحيط . للفيروزبادى

- أساس البلاغة للزحشرى
 مجمع الأمثال للميداني
 شرح القاموس للزبيدي
 المعرب للجواليقي
 دائرة المعارف الإسلامية
 دائرة المعارف الإنجليزية
 دائرة المعارف الفرنسية

كتب حديثة :

- بلوغ الأرب للألوسي طبع مصر ١٩٢٤ م
 تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان مصر (الهلال) ١٩٢٤ م
 تاريخ التمدن الإسلامي مصر (الهلال) ١٩٢٦ م
 تاريخ آداب العرب للرافعي مصر ١٣٥٩ هـ
 النصرانية وآدابها لشيخو بيروت (اليسوعيين)
 الروائع للبستاني بيروت (اليسوعيين)

- The writers of Rome
 A literary history of Rome } J. W. Duff.
 Roman Satire
 The writers of Greece Norwood.
 Some principles of literary Criticism Wenchester.
 Juvinal and Persius G.G. Ramsay.
 Pope's Poetical works London 1908
 Manual of English litterature Arnold.

فهرس

ماهو الهجاء

(ص ١ - ٢٦)

استعراض الذين تصدوا لتقسيم الشعر العربي : أبو تمام ، قدامة ، أبو هلال ابن رشيق . (٢) نقد هذه التقاسيم : خلط أبي تمام ، تأثر قدامة بالمنطق والأخلاق تأثر الذين جاءوا بعد قدامة بتقسيمه . (١١) العاطفة هي العنصر الأساسي في الشعر وعليها يجب أن يقوم التقسيم . (١٢) تعريفنا للهجاء : أدب غنائي يصور عاطفة الغضب أو الاحتقار أو الاستهزاء . (١٣) آراء قديمة تؤيد مذهبنا في الهجاء : الجاحظ ، ابن عبد ربه ، أبو هلال ، النويري . (١٤) الهجاء لغة واحتمال الكلمة من الناحية اللغوية لإدخال الشعر الأخلاقي والاجتماعي فيها . (١٦) الفرق بين الشعر الهجائي والشعر التهذيبي . (١٩) أقسام الهجاء : الشخصي ، الأخلاقي ، السياسي .

الخصائص الفنية للشعر الهجائي

(ص ٢٧ - ٤٥)

(٢٧) خصائص الشاعر الهجاء وصفاته : الهجاء ساخط مورتور ، الهجاء نتيجة عقدة نفسية ، أمثلة من حياة الهجائيين في الأدب العربي واللاتيني والإنجليزي . (٢٩) ميزات الشاعر الهجاء : دقة الملاحظة ، الأسلوب اللاذع ، الذكاء والفظنة ، الاعتماد على التلميح ، الدعابة الساخرة ، المهارة في القياس وجوه الشبه بين موضوع هجائه وبين أقيح الصور . (٣٢) الهجاء فن واقعي : التعمق في الخيال والإسراف في الصناعة مفسد له ، الواقعية في الهجاء تستند إلى دقة الملاحظة (٣٩) مثل الهجاء مستمدة من تقاليد العصر ، استناده إلى قيم العصر يعرضه لأن يفقد قيمته بتغير الزمن . (٤٠) روح الدعابة في الهجاء : التلميح ، الربط بين الصور . (٤٥) خصائص الهجاء تباعد بينه وبين الشعر وتجعله أقرب للنثر .

الهجاء والسحر

(ص ٤٦ — ٦٠)

(٤٦) الأطوار التي مر بها الكلام حتى استوى شعرا : مدلول الشعر عند الجاهليين يختلف عن مدلوله عندنا اليوم ، القرآن والأمثال وبعض الخطب والأسجاع كان في عرفهم شعرا ، لم يكن الشعر مستقيم الأوزان في كل الأحيان ولكن الرواة أصلحوا كثيرا منه ، غلبة الطويل والبسيط على أشعارهم ومشابهة هذين البحرين لوزن الـ hexameter عند اليونان واللاتين . (٥٢) الشعراء يعالجون صناعتهم ليلا ، التباس أمرهم بالسحرة والسكينة ، تصوير القرآن لخلط العرب بين الشعر والسحر والقرآن . (٥٧) فن الهجاء أقرب الفنون الشعرية للارتباط بالسحر : شياطين الشعراء ، وجه الشبه بين الهجاء والسحر ، زى الشاعر في الهجاء ، خوف العرب من الهجاء .

الشاعر والقبيلة

(ص ٦١ — ٦٥)

(٦١) الشعراء يكونون جزء مهما من النظام القبلي : الشعراء يتزعمون قبائلهم في بعض الأحيان ، أمثلة للشعراء الذين سادوا في قبائلهم ، الشعر لا يضع من قدر الأشراف ولكنه يعزز مكان صاحبه من قبيلته ، اعتماد القبائل على شعرائها في الحروب والخصومات . (٦٤) غلبة الحماسة على الشعر الجاهلي ، الشعر الجاهلي مزاج من الحماسة والغضب يصور المثل العليا للحياة إيجابا وسلبا . (٦٥) ضعف شخصية الفرد ، الشاعر مؤرخ وقصاص ، اعتماد الشعر على العصبية وعلى القيم الأخلاقية والاجتماعية .

القيم الأخلاقية والاجتماعية عند العرب في الجاهلية

(ص ٦٦ — ٨٢)

(٦٦) القوة هي المثل الأعلى الوحيد الذي آمنوا به وحرصوا عليه ، صور من القوة في شعرهم وحياتهم : زهير ، طرفة ، سعد بن ناشب ، يجمع بن هلال

القطامي ، جرير ، قريط بن أنيف ، عبد الملك وجعيل بن علقمة التغلبي ، تميم ابن أبي بن مقبل والنجاحي . (٦٩) المغتصب بطل مادام يسعى جهرة ولا يدب متسترا ، لا يستغيث بالسلطان إلا العاجز . (٧٠) الصعاليك والمثل العربية : عروة ، تأبط شرا ، أبو النشاش . (٧٢) المكان الأول للفارس المقاتل وللسوقة حياة الصناعة والزراعة . (٧٣) أعز شيء على العربي فرسه وسلاحه . (٧٤) العرب يحبون كثرة النسل ويعتزون به ، كره العرب للسمن في الرجال وجههم له في النساء . (٧٦) العربي إذا أراد أن ينبج من زوجته أغضبها . (٧٧) الصبر والتجلد للمكارة والخطوب . (٧٨) الحب عندهم ضرب من الفخر بامتلاك اللذة والشباب . (٨٠) موازنة بين شعر الخمر والغزل الجاهلي وشعر الخمر والغزل في العصر العباسي ، السكرم مظهر للسيادة والاستعلاء والثقة بالنفس . (٨٢) قوة البيان نظير قوة السيف ، كل ما يهيج به العربي يرجع إلى الضعف والخور . (٨٢) حياة جاهلية صريحة واضحة تعترف بالتنازلات الطبيعية الأزلى ، البقاء للأصلح ،

أقدم صور الهجاء

(ص ٨٤ — ٩٤)

(٨٤) المنافرات هي أقدم صور هذا الفن ، المنافسة لغة . (٨٥) وصف المنافسة . (٨٦) عكاظ ، أسلوب المنافسة وقيمتها الأدبية : خليط من الشعر والنثر ، الارتجال غالب عليها ، تصويرها لقيم العصر الأخلاقية والاجتماعية . (٨٧) الأحكام . (٨٨) المنافسة بين رجلين من قبيلة واحدة ، عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة . (٩٣) المنافسة بين رجلين من قبيلتين كل يمثل قبيلته ، جرير بن عبد الله البجلي وخالد بن أرتاة الكلبي .

الهجاء الشخصي

(ص ٩٥ — ١٠)

(٩٥) الهجاء فن واقعي والهجاء الشخصي أحط درجات هذه الواقعية ، المشاركة في الشعور بين القارئ والشاعر ضعيفة . (٩٦) المعاني في الهجاء

الشخصى محدودة تتكرر عند كل شاعر ، المزرد بن ضرار الذبياني . (٩٧)
ولكنه لا يتخلو في بعض الأحيان من شعر جيد ، ذو الإصبع العدواني . (٩٨)
افتراء الكذب في الهجاء الشخصى . (٩٩) الهجاء الشخصى يوجه للقبيلة كلها
في بعض الأحيان ، تلخيص قصيدة للأعشى .

الخطيئة

(ص ١٠٢ — ١١٣)

(١٠٢) نشأته الأولى وأثرها في مزاجه . (١٠٣) انصرافه إلى الشعر .
ارتزاقه بالمدح وبالهجاء . (١٠٤) عمر والخطيئة . (١٠٥) إشفاق القبائل
والأشراف من هجائه : الخطيئة وخالد بن سعيد بن العاص ، الخطيئة وحسان .
(١٠٦) الخطيئة أعرابي جاف الطبع : فساد دينه ، نفاقه ، موقفه في الردة ،
ضيقه بعمر ، دفاعه عن الوليد بن عقبة حين حد في الخمر . (١٠٩) اعتماده في
هجائه على التفصيل والمقارنة ، دخوله بين بغيض بن شماس والزرقان بن بدر .
(١١١) براعته في خلق الصور وابتكارها ، توفقه لاختيار ألفاظه الهجائية .

الهجاء السياسى

(ص ١١٤ — ١١٣)

(١١٤) ما هو الوطن عند الجاهليين : جماعة من الناس تربطهم أواصر
النسب ، مفهوم العصبية يضيق ويتسع حسب الظروف . (١١٥) هجاء يصور
النزاع بين القبائل : اختلاط الغضب بالحماسة ، عبد الله بن عتبة الضبي .
(١١٧) الاعتماد على التاريخ والأنساب : أبو بكر ودغفل ، الحارث بن حلزة .
(١٢٤) هجاء يصور النزاع بين القبائل والملوك : جابر بن حنى التغلبي ، يزيد
ابن الحذاق الشنى ، المتلس ، طرفة ، الحارث بن ظالم الذبياني .

الاعشى

(ص ١٣٤ — ١٦٢)

(١٣٤) تصوير القدماء للأعشى . (١٣٥) نشأته وتلمذه على خاله المسيب بن علس . (١٣٦) الأعشى من فتيان الجاهلية : الأعشى صاحب لذة ، حرصه على اللذة جعله فى حاجة دائمة للبال ، رحلته إلى الأشراف وإلحافه فى السؤال . (١٣٩) ولكنه مع هذا ظل شاعر القبيلة الخاص لمصالحها ، موازنة بينه وبين الخطيئة . (١٤٠) يوم ذى قار . (١٤٢) جولاته السياسية فى الخصومة بين فروع بكر وقبائلها ، الأعشى ويزيد بن مسهر الشيباني ، بين الأعشى وبين بعض بطون قومه « بنو عبدان » ، ترفقه فى الهجاء وتراوحه بين الغضب والحنين والإباء والوفاء . (١٥١) نصوص من شعره .

الهجاء الدينى

(ص ١٦٣ — ١٩٥)

(١٦٣) للإسلام إلى جانب صفته الدينية صفة سياسية : خطط الرسول السياسية . رحلته عن مكة ، توحيد صفوف حزبه . نشاطه السياسى . التخلص من اليهود ، بدء سياسته الخارجية ، مكة أول أهدافه ، ما فى صلح الحديبية من كسب سياسى ، لا يشغل نفسه بالحرب مع عدوين فى وقت واحد ، اصطناع الأحزاب السياسية واختيار دعائها من الشعراء ، النهى عن رواية الشعر القديم بعد الفتح ، لاثبات للإسلام مع قيام دولتى الفرس والروم على أطراف الجزيرة العربية ، توحيد الديانة فى الجزيرة ، توحيد المسلمين فى الدين وفى القواوين المدنية ، التدرج فى التشريع ، الاعتماد على التقاليد القديمة وتهذيبها وتوجيهها . (١٦٥) الإسلام دين واقعى يقرر أن الحرب ضرورة من ضرورات الحياة : الإسلام يطلب من المسلم أن يكون قويا مستعداً للقتال ، تكفيره من دعى للجهاد ففقد عنه . الإسلام يبحث على الرحمة

والإحسان ولكنه يطلب من المسلم أن يكون قادراً على الرحمة والإحسان فalcفو لا يكون إلا من القوى القادر على الانتقام (١٦٧) العرب في معظمهم لم يسلبوا عن إيمان واقتناع : كانوا يفهمون النبوة على أنها نوع من الملك ، لم يفرقوا بين الزكاة والإتاوة ، إسلام ثقيف ، وفد بنى عامر ووفد تميم ، الشعراء يمدحون النبي بما تمدح به الملوك والسادة ، العصية الجاهلية لم تفتقر في حياة النبي (١٧٤) الإسلام قد أثار حركة فكرية قوية لا عهد للرب بمثلها : تنظيم الدعاية للإسلام ، النبي يشرف بنفسه على الشعراء ويقوم شعرهم ، نهيه عن الاستماع إلى الكفار وإبطال رواية الشعر الذي يهاجم المسلمين ، إهدار دم بعض الهجائيين ممن يهاجمون الدعوة (١٧٧) أثر العناية بالدعاية للدين في نمو فن الهجاء وعنفه ، الهجاء الديني ظل جاهلياً في صميمه . (١٧٨) القرآن وهجاء أعداء الدعوة : الهجاء في القرآن يقوم على قيم أخلاقية واجتماعية جديدة ، هجاء أبي بن أبي سلول وصحبه من المنافقين ، هجاء المنافقين من الأوس والخزرج ، هجاء أهل النفاق في يوم الخندق ، هجاء اليهود في إعراضهم عن النبي وأنحرافهم عن دينهم ، هجاء يهود بني قينقاع وعبدالله بن أبي في حمايته لم حين هاجمهم الرسول . (١٨٩) أسلوب القرآن في الهجاء : مناقشة حجج الكفار بالدليل العقلي وبالمنطق ، الاعتماد على التاريخ في تصوير ضلالة المعارضين ومكابرتهم ، تصوير حال المعارضين بالتمثيل وبالصور الهجائية الساخرة ، كشف الستر عن دسائس الكفار ومؤامراتهم ، التهديد والوعيد ، الهجاء القرآني يوافق من بعض النواحي ما عرف الجاهليون من هجاء سياسي ولكنه يخالفه فيما يستند إليه من قيم أخلاقية واجتماعية .

حسان

(م ١٩٦ — ٢٣٠)

(١٩٦) نشأته : النزاع بين الأوس والخزرج ، اشتراكه في هذا النزاع بشعره (١٩٧) رحلته إلى الغساسنة . فتنته بالشام . امتداد هذا القسم من

حياته إلى دخوله في الإسلام ، شعره في هذا القسم قطعة من هذه الجنان بعيد عن الصحراء ، ثلوج وكروم وأنهار ، مجالس اللهو ، الخمر ، إخلاصه في مدح الفسائنة ، قوة فخره ، الجمع بين شخصيتي شاعر البلاط وشاعر القبيلة . (٢٠٧) دخوله في الإسلام وقد تقدمت به السيرة اتباعا لقبيلته : حسان شاعر قومه في الإسلام كما كان شاعرهم في الجاهلية ، النبي يتألف حسان بالمال والعطاء . (٢٠٨) فتور عاطفته الإسلامية في شعر الطور الثاني وقوة عصبيته الثمينة . (٢١٠) حسان يمثل الساخطين من الأنصار يوم الفتح ، حسان وحديث الإفك ، كراهية حسان للمهاجرين تعصبا لقومه . (٢١٣) كثرة الضرورات الشعرية وشيوع الركاكة في شعره الإسلامي . (٢١٥) قوة شعره حين يترك نفسه على سجيتها الجاهلية وضعفه حين يتكلف نظم معاني القرآن (٢١٧) مكانته في هذا التطور تقوم على هجائه الموجه . إغشاه في هجائه ، الفحش مظهر البداوة وجفاء التصنع . (٢٢١) مجافاته لتعاليم الإسلام بهذا الإغشاش ، عدم حرصه على تعاليم الإسلام ، ذكر الخمر في شعره بعد إسلامه . (٢٢٢) براعته في خلق الصور الهجائية وابتكارها . (٢٢٥) أكثر ما يكون هجاؤه لاذعا حين يكون قصيرا . (٢٢٦) ينتهي هذا التطور الثاني من حياة حسان بعد عشر سنوات بوفاته النبي . (٢٢٧) إقامته على عصبيته الثمينة ، اعتزاله السيامة ، حينئذ إلى عصر شبابه في الشام . (٢٣٠) وفاته

تصويب للأخطاء المهمة

سأصحح فيما يلي الأخطاء التي قد يترتب على تركها خطأ في الفهم أو غموض ، وأترك غيرها مما يستطيع القارئ أن يهتدى للصواب فيه بغير دليل .
وسأثبت الصواب الذي ينبغي أن يقرأ بدل الخطأ المكتوب ، مشيراً إلى الصحفة (ص) والسطر (س) .

ص	س	ص	س
٣	٢	١٥٢	٢
٣١	٥	١٥٥	٧
٣٩	١٢	١٥٧	١
٤٤	٢	١٥٩	١٣
٤٤	٢٠	١٦٠	٣
٥٣	٢١	١٦١	١
٦٧	١٠	١٦٢	٢
٨١	١٤	١٦٢	٦
٩٤	١٧	١٦٥	١٧
هاش ١١١	١	١٦٥	١٢
١١٦	٦	١٨٨	١١
هاش ١٢٢	١	١٩٩	٨

